دكتور/ أحمد عبد القادر الشاذلي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

الحضارة الإسلامية

وقطوفها الدانية في علوم اللغة العربية واللغات الإسلامية

" بسم الله الرحمن الرحيم "

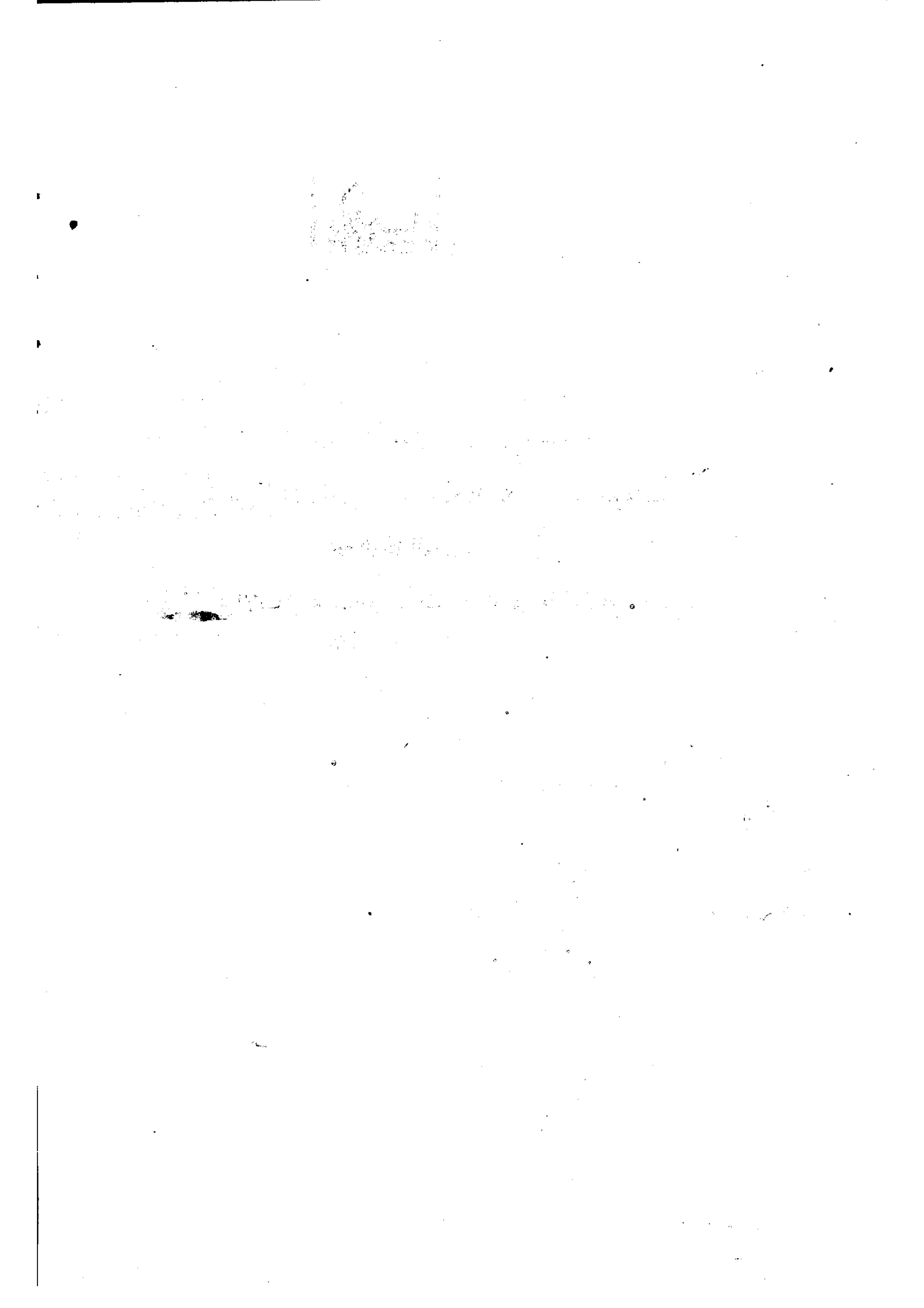
إهداء

إلى الأمة التى قدمت للعالم أسمى وأرقي حضارة .

إلى الأمة التى أعطت دون منة ومنحت بلا حدود مقومات حضارتها للعالم .

إلى الأمة الإسلامية صاحبة أعظم حضارة عرفها التاريخ الإنساني .

أ.د/ أحمد عبد القادر الشاذلي



الفصل الأول

الحضارة

يرتبط بمفهوم الحضارة عدة مفاهيم أخرى وهي الثقافة والمدنية وعلاقة الحضارة بالبداوة وارتباط مفاهيم الحضارة بالمدارس الفكرية المتنوعة وهذا يدفعنا إلى البحث في المفاهيم الآتية :-

- مفهوم الحضارة عند الأوربيين والعرب وفى الدراسات الشرقية .
- مفهوم الثقافة عند الأوربيين والعرب وفى الدراسات الشرقية .
- مفهوم المدنية عند الأوربيين والعرب وفى الدراسات الشرقية .

إن الحضارة أي حضارة هي جزء من سلسلة دائمة التواصل ، مستمرة العطاء ، لا يمكن فصلها عن غيرها من الحضارات ، فالحضارة الإنسانية متصلة منذ وطأ الإنسان الأرض وأقام أول حضارة عرفها الإنسان ، فالحضارة الفرعونية أعطت الكثير للحضارة اليونانية والرومانية وقد استفادت حضارة الفرس من حضارة بابل وآشور ومن اليونان، واستفادت الحضارة الإسلامية من حضارة الفرس واليونان والهنود والعرب .

أولاً : مفهوم الحضارة :

تعددت التعريفات حول مفهوم الحضارة حتى بلغت ما يزيد عن مائة وستين تعريفاً في اللغات الأوربية ، جمعها العالم الأنثروبولوجي الفريد كروبر (١٨٧٦ - ١٩٦٠ م) ولو أضفنا إليها التعريفات العربية لبلغت المائتين ، ولكن هذه التعريفات تختلف من مدرسة إلى أخرى وبين جيل وآخر وبين لغة وأخرى ، ومن ثم أستعرضها عند العرب وعند الأوربيين وعند الباحثين الشرقيين الإسلاميين .

أ- عند العرب

ورد بالمعجم الوسيط [1] أن الحَضارة (بفتح الحاء) أو الحِضارة (بكسر الحاء) تعنى الإقامة في الحضر ، والحاضرة هي المدينة التى يقيم فيها رجال الحكومة .

وكلمة " حضارة " في اللغة العربية من الفعل " حضر " وهو نقيض المغيب أو الغيبة، وجاء في لسان العرب [2] : حضر يحضر حضورا وحضارة ويعدى فيقال حضّره، ويقال : وأنه لحسن الحضرة والحضرة ، إذا حضر بخير ، وفلان حسن المحضر إذا كان ممن يذكر الغائب بخير ، وكذلك يقال : هو رجل حضر ، إذا حضر بخير والحضر : خلاف البدو ، والحضارة الإقامة في الحضر ، والحضـ والحضرة والحاضرة : خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف ، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار .

---

(١) المعجم الوسيط مادة " حضر " .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة " حضر " .

و[illegible] خلدون [1] عن أفضل [illegible]

وأسهب [illegible] وهم البدو [illegible]

الضروري [illegible] العمران [illegible]

القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر [illegible]

ويرى ابن خلدون أن الحضارة لا توجد إلا في القرى والمدن ولا تظهر في البادية ، وقد حمل على البدو والبادية ، ووصــف البــدو بأنــهم هادمون للحضارة ، ووصفهم بأنهم يمحوون الحياة ويجعلونها كالصحــارى مع أنهم مستعدون للتحضر ككل شعوب العالم لأن الإنسان مدني بطبعه ، أي غايته التحضر والعمران ، ويربط ابن خلدون بين مفهوم الحضارة والملــك وأن الملك لازم لاستقرار النظام وازدهار الحضارة .

وهجوم ابن خلدون على البادية والبدو لا يقلل من شأن رأيه إلا أنه يجب الأخذ بمبدأ الحذر والاحتياط خاصة أنه لم يبد سبب كــون البــدو هداميــن للحضارة ، كما أن رأيه يمكن دحضه عندما تهيأ للبدو فرصـــة الاســتقرار والإقامة .

والحضارة عند العرب لها مفهوم آخر فأهل المَدر هــم أهــل الحضــر ، والمُدر هو الطين، وأطلق على سكان البيوت المقامة من الطين أهل المدر ، عكسها أهل الوبر وهم سكان البادية والوبر هو الصوف الذي يصنــع منــه الخيام التى هي بمثابة منازل ومساكن للبدو .

كما يطلق على أهل الحضر أيضا عند العرب لقب أهل الحجر ، حيث تقام المدن بالأحجار وهم عكس أهل الحدر سكان البادية الذين يقطنــون الأرض المنحدرة التى لا يبنى عليها .

---

[1] مقدمة ابن خلدون تحقيق على عبد الواحد وافي – القاهرة .

لقد عرف العرب قديما المقابلة بين الحضر والسفر والإقامة والترحال ، وكأنما كانت المقابلة قائمة بين الحضارة والبداوة وهي مقابلة بين الاستقرار والتنقل [1] .

هذه هي مفاهيم الحضارة عند العرب الأقدمين فما رأى الباحثين المحدثين من العرب ؟!

يرى د. طه ندا [2] أستاذ اللغة الفارسية والحضارة الإسلامية بجامعة الإسكندرية أن الحضارة هي كلمة تطلق على كل ما يتصل بالتقدم والرقي في المجالات المختلفة كاللغة والأدب والفنون الجميلة ، والصناعة والتجارة وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني الذي يؤدي إلى التقدم والرقي وييسر السبيل إلى حياة إنسانية كريمة .

ويرى عويدات [3] أن الحضارة هي مجموعة الخطط والنظم الكفيلة بإشاعة النظام والسلام والسعادة وبتطور البشرية الفكري والأدبي .

ويرى عفت الشرقاوي [4] أستاذ اللغة العربية بجامعة عين شمس أن الحضارة هي التراث التاريخي المتمثل في العقائد والقيم التي ترسم للحياة غاية مثلى ومغزى روحيا عميقا متعالياً على متناقضات المكان والزمان .

كما يعرفها أيضا بأنها تركيب وجداني يتضمن القيم الروحية التي تحرك مجتمعا ما وكل ما يدور حول ذلك من فلسفات غيبية وأخلاقية وجمالية .

ويرى د. حسين مؤنس [5] أن الحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول

---

[1] القيم الحضارية في رسالة الإسلام - محمد فتحي عثمان الرياض ١٩٨٢ ص ٩ .

[2] فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية بيروت ١٩٧٦ ص ٩ .

[3] تاريخ الحضارات العام بيروت ١٧/١ .

[4] في فلسفة الحضارة بيروت ١٩٧٩ص ١٨ .

[5] الحضارة - عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨ ص ١٣ .

للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أو غير مقصود وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية .

ويرى د. مصطفى الرافعي [1] أن الحضارة فعل نام متحرك كالكائن الحي تولد ثم تحبو طفلة طرية العود وحتى إذا اشتد ساقاها وأينعت بدأ عهدها المزدهر أو شبابها المعطى .

ويبدو أن الرافعي يتحدث عن أطوار الإنسانية بأسلوب أدبي جذاب ، فالمجتمعات تولد وتحبو وتشتد ولكنها تموت أيضا ، وهو بذلك يجمع أطوار الإنسان في مفهومه للحضارة .

وإجمالاً لمفهوم الحضارة أرى أنها ذلك التراث المادي والروحي لأي أمة من الأمم ، هذا التراث يحتوى على قيم أخلاقية وأسس إنسانية راقية تحميه من الزوال والاندثار وتحفظه للأجيال .

فالحضارة الفرعونية إذا نظرنا إليها من شقها المادي فقط فإنها لن تكون حضارة فلولا إخلاص ووفاء وحب العاملين على إقامة المعابد والمقابر والأهرامات لاندثر هذا التراث المادي ولولا حب وتفانى الفنانين في التصوير والنحت والعمارة لفرعونهم ما قامت في الأصل حضارة .

كان العلم النظري والتطبيقي جناحا التراث الحضاري الفرعوني وقد انتقل هذا التراث إلى اليونانيين ، الذين سلكوا دربه ، وأضافوا إليه ما لديهم وأبدعوا في البناء والعلوم .

والحضارة الإسلامية بشقيها المادي والمعنوي (الروحي) تبقى لنا على مر الزمان نتذكر من خلالها إخلاص ووفاء وأمانة وعدل القائمين عليها ولولا أمانة هؤلاء ما انتقل إلينا هذا التراث الثقافي الضخم .

---

[1] حضارة العرب بيروت ١٩٨١ ص ١٣ .

الحضارة إذن تراث مادي وروحي وكلاهما متصل بالآخر فالبناء الضخم في الأصل كان فكرة في العقل خرجت على الورق وبكل إخلاص أقام المهندسون هذا البناء الذي مازال يطل علينا كل هذه القرون ، ولو تكاسل المهندسون وقصروا ما مكث هذا البناء طويلاً .

والإسلام على وجه الخصوص تبرز فيه الجوانب الروحية خلافاً لأي حضارة أخرى، فالحضارة الفرعونية قد لا نرى فيها سوى أبنية ومومياوات وأوراق بردى وأسرار ورموز علمية ، لكن يصعب علينا فهم النواحي الروحية وكذلك حضارة اليونان ، لكن في الإسلام القواعد والأسس الروحية تسيطر على الحضارة مما يساعد على استمرارها طويلاً ، وعندما انحرف المسلمون عن تلك القيم والقواعد ضاعت حضارتهم وانتقلت إلى أمم أخرى، وهنا نرى أن تخلف المسلمين عن الحضارة إنما هو تخلف أفراد ، أما الإسلام فهو لا يزال حاملاً لكل عناصر التحضر والتقدم وصالح لكل زمان ومكان .

ب : مفهوم الحضارة عند الأوربيين :

يختلف مفهوم الحضارة من مدرسة إلى أخرى ، فالمدرسة الإنجليزية تختلف عن المدرسة الفرنسية وكذلك المدرسة الألمانية والأمريكية .

المدرسة الإنجليزية ترى أن الحضارة تنقسم إلى حضارة عليا وحضارة بدائية ، والحضارة العليا هي التى يطلقون عليها Civilization والحضارة البدائية يستخدمون لها اصطلاح "Culture"

والمدرسة الألمانية تستخدم اصطلاح " Kultur " للدلالة على مفهوم الحضارة ، وترى أن الحضارة هي ما نحن عليه والمدنية هي ما نستعمل .

والمدرسة الأمريكية تستخدم اصطلاح " Culture " للدلالة على الحضارة، واصطلاح " Civiliaztion " للدلالة على الجوانب المادية أو التقنية في الحضارة .

والألمان يستعملون اصطلاح " Civiliaztion " للدلالة على الحضارة المنقوصة أو الحضارة في طريقها إلى الإفلاس والاحتضار [1] .

أما المدرسة الفرنسية فإنها تستخدم لفظ " Civiliaztion " للدلالة على الحضارة في مستوياتها بنفس المعنى الذي يقصده الألمان من استخدامهم لاصطلاح Kultur والأمريكان من استعمالهم لاصطلاح " Culture " والتي تعنى ثقافة بالمعنى الشائع عند العرب .

والأوربيون يعرفون الحضارة بعدة تعريفات منها :

يرى اشبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦ م) أن الحضارات كائنات عضوية وتاريخ العالم يمثل تاريخ حياة هذه الحضارات مجتمعة ، الحضارة تولد مع اللحظة التى تستيقظ فيها روح عظيمة تنفخ في الأحداث وتجسمها في صورة متميزة ، وتخلق شكلا من اللا شكل، ثم تزدهر وتموت بعد أن تحقق هذه الروح كل ممكناتها في شكل شعوب ، لغات وعقائد وفنون ودول وعلوم.

ويرى تايلور أن الحضارة هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعارف والعقيدة والفن والقيم الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية وكل القدرات والعادات التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع [2] .

ويرى البرت اشفيتر [3] أن الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء .

والحضارة عند ول ديورانت [4] هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة :

---

[1] الحضارة - د. أحمد حمدي محمود دار المعارف ١٩٧٧ ص ١٦ .

[2] في فلسفة الحضارة - عفت الشرقاوى ١١ .

[3] فلسفة الحضارة - ترجمه عن الألمانية عبد الرحمن بدوي ١٩٨٠ ، القاهرة ص ٣٤ .

[4] قصة الحضارة ترجمة ذكي نجيب محمود ١٩٦٥ ص ٣ .

الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي اضطراب والقلق لأنه إذا ما آمن الإنسان الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها .

ويعرف لويس دوللو [1] الحضارة على أنها المادة التى تضم عناصر ثقافية .

ويعرفها توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥م) على أنها تنشا من الأديان لا من شئ آخر وهو في ذلك يمجد الدين المسيحي وحضارة الغرب القائمة عليه وهي نظرة متحيزة ، والحضارة عنده ذات هدف إنساني واحد وهو رفع قيمة الإنسان وتبوءه المركز الذي هو خليق به كالكائن الأعلى بين الأحياء والحضارة جزء لا يتجزأ .

ويقول توينبى أن الحضارة على رأسها أقلية ذات روح خلاقة تقلدها الأغلبية وتتبعها في حرية كاملة ، فلا وجود في المجتمع المتحضر لأى صراع دموى أو تصدع فهو جسم متسق متوافق .

ويلاحظ أن المدرسة الأوربية تنطلق في فهمها للاصطلاح من تعريفها اللغوي ، مع اختلافات فردية بين كل متخصص في دراسة الحضارة .

---

[1] الثقافة الفردية وثقافة الجمهور - ترجمة عادل العوا بيروت ١٩٨٢ ص ٣٣ .

جـ - مفهوم الحضارة في الدراسات الشرقية الإسلامية :

لا يخرج مفهوم الحضارة عند الفرس والأتراك والهنود عما ذكره العوب والأوربيون، ولكن الاصطلاح المستعمل لديهم له دلالة خاصة فهم يستخدمون اصطلاح " تمدن " ويعنى عندهم الحضارة ،والحضارة الإسلامية هي " تمدن إسلامي " .

وقد استعار الفرس اللفظ العربي " تمدن " والذي يطلق على من يسكن المدينة ،وقد نقل الفرس اللفظ إلى الهنود والأتراك نظراً لدورهم الريادي في نقل الحضارة الإسلامية إلى هذه الشعوب ولكن سكان المدن هم " شهروندان" وسكان القرى هم " روستائيان " أما لفظ تمدن لا يعنى سوى الحضارة والمدنية وهنا تختلط عليهم مدلولات الحضارة والمدنية .

أما الثقافة فهي " فرهنگ" وفرهنگ اصطلاح يعنى به الآثار الأدبية والعلمية التى يقوم بها شعب من الشعوب وفي مجمله يعنى المعرفة بكافة جوانبها .

" وتمدن " يعنى به الحضارة بمفهومها العم والتي تعنى التراث المادي والمعنوي للأمة .

" وتمدن إسلامي " يعنون به الحضارة الإسلامية ، ومفهوم الإسلامية يعنى النتاج الذي ظهر بفضل الإسلام ، ولكن بعض الفرس والأتراك والهنود المسلمين يفضلون استخدام اصطلاح " تمدن مسلمان " ويعنى حضارة المسلمين .

ويفضل آخرون اصطلاح " تمدن جامعۀ إسلامي " أي حضارة المجتمع الإسلامي ، ويقصدون بذلك النتاج المادي والروحي الذي ينتجه الشعب كله بكافة طوائفه ودياناته فالمجتمع الإسلامي يعيش فيه يهود ومسيحيون وصابئة وزرادشت وهندوس ، وقد أسهموا جميعا في بناء الحضارة الإسلامية خلال سماح المسلمين لهم بممارسة دورهم فى العلوم والآداب .

ثانيا : مفهوم الثقافة :

أ- مفهوم الثقافة عند العرب

الثقافة عند علماء اللغة هي من " ثقف " [1] وثقف الشئ ثقفا وثقافا وثقوفة : أي حذقه، ورجل ثَقِف وثَقُف وثُقُف : أي حاذق وفهم ،ويقال : ثقف الشئ وهي سرعة التعلم، وثقّفته إذا ظفرت به قال تعالى " فاما تثقفنهم في الحرب " وقال تعالى " إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء " (الممتحنة ٢) وثقف الخل ثقافة : أي حذق وحمض جدا .

والثَقافة والثِقافة (بكسر الثاء وفتحها) : العمل بالسيف .

والثقافة : وثقُف بضم القاف وكسرها تأتى لازمة ومتعدية ، نقول في اللازمة ثقف يتثقف ثقفا وثقافة ، ونقول في المتعدية بنفسها ثقّفه ، وفي المتعدية بالتضعيف : ثقفته، وفي المتعدية بالهمزة : أثقفته .

يقول الزمخشرى في أساس البلاغة : ومن المجاز : أدبه وثقفه ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئا ، فالثقافة تعنى التهذيب والتأديب والتربية الحسنه [2].

والثِقاف : حديدة تكون مع القوّاس والرمّاح يقوم بها الشئ المعوج ، والثِقاف : ما تسوى به الرماح ، وتثقيفها : تسويتها .

فالثقافة لغة تعنى معنى من معاني التقويم والتكيف والتغيير النوعي والمعالجة .

يقول د . حسين مؤنس [3] إن الثقافة هي ثمرة كل نشاط إنساني محلى نابع من البيئة ومعبر عنها أو مواصل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك

---

(1) لسان العرب مادة ثقف .

(2) تبسيط العقائد الإسلامية حسن أيوب الكويت ط٢ ص١٠

(3) الحضارة ص ٣٦٢ .

ويضرب مثالا على ذلك بالشعر الإنجليزي وكونه مظهر ثقافي يعبر عن الطبيعة الإنجليزية .

والعرب قبل الإسلام عرفوا مفهوم الثقافة وأدركوا مغزاه وإن كانوا لم يستخدموه بالمعنى المتعارف عليه الآن ، فهناك من تعلموا في مدرسة جند يسابور ، وتلقوا العلوم والمعارف ، كما كان الشاعر الجاهلي مدرسة في العلوم والمعارف ، وكان بمثابة العالم المثقف لقبيلته ، لديه معرفة بالتاريخ والعادات والتقاليد والأيام والأنساب .

وعندما أظل الإسلام العرب ، اختلطوا بالأمم الأخرى ، وتعرفوا على مكونات ثقافية أخرى، فنقلوا مكوناتهم الثقافية إلى هذه الأمم ونقلوا عنهم ما لديهم ، واختلطت معارف العرب بالفرس والروم والهنود والأتراك واليونان ونتج لنا ما نسميه الثقافة الإسلامية .

ولكن بعض الباحثين العرب لا يفرقون بين الحضارة والثقافة والمدنية ، فالحضارة والمدنية مرتبطان عندهم بدلالة مكانية أما الثقافة فهي مرتبطة بالتقويم والتكيف النوعي ، فالتمدن والتحضر مرتبطان بالتطور المكاني والتثقيف بالتطور الذاتي .

والثقافة بناء على التعريفات السابقة هي هذا السلوك الحسن الناشئ عن العلم والمعرفة ، لأنه لا يتصور تهذيب وتربية وتأديب بدون علم ومعرفة بالحسن الذي يُطلب فعله والقبيح الذي يُطلب تركه ، والمعرفة لازمة لسلوك الحسن غالبا .

ب- مفهوم الثقافة في الدراسات الشرقية الإسلامية

استخدم الفرس والأتراك والهنود المسلمين اصطلاح " فرهنكى " للدلالة على المكونات الثقافية ، وفرهنك تعنى المعجم والقاموس الذي يضم مصطلحات وألفاظ اللغة، وتعنى أيضا العلوم والمعارف والآداب والثقافة

عند أهل الشرق من المسلمين تعنى التراث الفكري والأدبي الذي تتركه أمـة من الأمم .

ويدخل في نطاق مفهوم الثقافة العلوم النظرية والآداب من شعر ونـثر ، والفنون والمعارف وكل ما يتعلق بالإبداع الفردي أو الجماعي .

وهي أيضا تعنى" تربيت وتهذيب " وهي التربية والتهذيب .

جـ – مفهوم الثقافة عند الأوربيين

الثقافة في معناها المجرد العام عند لويس دوللو (1)تقابل كلمة طبيعـة ، فهي العبقرية الإنسانية مضافة إلى الطبيعة بغية تحوير عطاءاتها واغنائـها وتنميتها .

والثقافة تدل أيضا على انكباب الإنسان بصورة منهجيـة علـى تنميـة ملكاته الفطرية بدراسة الآداب والفنون والعلوم وكذلك بالملاحظة والتفكير .

والاصطلاح اللاتينى لكلمة ثقافة هو Colere وفـي الرومانيـة Culture ومن الكلمة اللاتينية Culte و Cultuo وتعنى عبادة وإجلال والآلهة وهي تدل على الدين والثقافة .

وقد أخذ الأوربيون لفظ ثقافة من الكلمة اللاتينية فـهي فـى الألمانيـة Kultur وتعنى إصلاح الشئ وتهذيبه وإعداده للاستعمال .

وفي الإنجليزية والفرنسية اصطلاح Culture وهي تعنى أيضا الإصـلاح والتهذيب ومنها جاء اصطـلاح "Agriculture " بمعنـى إصـلاح الأرض وتهذيبها وزراعتها ومن "Cultura animi " أي تهذيب الروح و Cultura Dei أى التهذيب الرباني .

وقد ربط ول ديورانت (2) بين Culture و Agriculture وذكر أن الثقافة هي ضرب من السلوك المهذب الذي هو في رأى أهل المدن الذين صاغوا كلمـة

---

(1) الثقافة العربية وثقافة الجمهور ص ٨ .

(2) قصة الحضارة ١ / ٥ .

مدنية – من خصائص المدنية وحدها ، وذلك لأنه تتجمع في المدنية حقا أو باطلا ما ينتجه الريف من ثراء من نوابغ العقول .

وقد اختلف الأوربيون حول الاصطلاح الذي يجب أن يطلق على " حضارة " و" ثقافة " ففي الوقت الذي استخدم فيه الإنجليز كلمة Civilization للدلالة على الحضارات العليا وكلمة Culture على الحضارات البدائية ، استخدم الألمان عكس ذلك فاستخدموا Kultur للدلالة على الحضارة في عز ازدهارها وCivilization على الحضارة في مرحلة تدهورها وإفلاسها ، أما الفرنسيون فقد استخدموا كلمة Civilization للدلالة على الحضارة المقصودة عند الرومان بـ Kulrur .

ثالثا: مفهوم المدنية :

أ- مفهوم المدنية عند العرب

لم يفرق العرب بين الحضارة والمدنية ، وقد جاء في المعجم الوسيط أن المدنية هي الحضارة واتساع العمران وكلمة تمدن تعنى من عاش حياة أهل المدن وأخذ بأسباب الحضارة .

وفي لسان العرب جاءت المدنية من مدن بالمكان أي أقام به . .

وفرق بعض الباحثين بين الحضارة والمدنية [1] بقولة أن الحضارة تشمل الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات بينما تمثل المدنية السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا .

ولما كان كثير من الباحثين يرون أنه لا فرق بين الحضارة والمدنية أو بمعنى آخر أن هناك تداخلا كبيرا بينهما لدرجة أنه لا يمكن التفريق .

وأرى أن الحضارة هي تعبير عن الجانب المادي والمعنوي والمدنية تعبير عن الجانب المادي فقط .

---

[1] التغير الحضاري وتنمية المجتمع د. محي الدين صابر ٤١ .

وهناك فرق آخر بين الحضارة والمدنية ، فالمدنية لها معايير دقيقة تقيس كل ما ينتمي إليها ، أما الحضارة فإنها لا تقبل هذه المقاييس أو المعايير ، ففي المدنية يمكن أن نثبت سلامة أو عدم سلامة الشئ مثلا يمكن أن نفضل الجرار على المحراث ونعرف سبب الأفضلية ، ولكن في الحضارة لا يمكن ذلك على سبيل اليقين .

المدنية في تقدم مستمر طالما لا يعوقها معوقات ، أما في الحضارة فلا يمكن إدراك هذا التقدم بنفس إدراك المدنية فمثلا مدينة أبو ظبي يمكن أن نرى وندرك مدى التقدم المدني فيها ونحكم عليها بالمدنية ، ولكن لا يمكن أن ندرك أنها متحضرة .

المدنية لا يلزم وجود عنصر روحي أخلاقي ولكن الحضارة تلزم عنصر الأخلاق ، ولا يمكن لشعب أن يكون متحضرا مع انعدام الأخلاق فيه ، ولكنه يمكن أن يكون مدنيا .

والمدنية والحضارة على الرغم من اختلافهما إلا أنهما ليسا منفصلين ، فنحن حين نضع دستورا للدولة نأخذ في الاعتبار التراث والتقاليد الموروثة .

ويرى عفت الشرقاوى أن الحضارة لا ينفصل فيها الجانب المادي عن الروحي ، وأن المدنية هي أداة من أدوات الحضارة كما يرى أن المدنية هي تراث المعرفة التطبيقية الذي يرمى إلى السمو بالإنسان والارتفاع به عن مستوى الاستسلام لملابسات الطبيعة ، كما أن للإنسان ومدى قدرته على التحكم في الأشياء . ولا يختلف هذا الأمر عما هو موجود بالدراسات الشرقية الإسلامية .

ب- : مفهوم المدنية عند الأوربيين

المدنية اصطلاح مشتق من الكلمة اللاتينية "Civitas" وهي حالة المجتمع ، ويقصد بها الوضع العام الذي يكون عليه أى مجتمع .

يقول كلايف بل [1] أن المدنية هي تلك النكهة التى تصيفها نظرة عقليـــة معينة على التغيير الذاتي لعصر من العصور أو مجتمع مـــن المجتمعـــات ، إنها اللون الذي تخلفه وجهة نظر خاصة سائدة على المظاهر الاجتماعيـــة ، والأفراد هم الذين لهم عقول يقفون بها موقفا معينا أو ينفون بـــها وجهـــة نظر معينة من وجهات النظر ويرى أن المدنية وسيلة للخير ولكنها ليســـت الوسيلة الوحيدة ٠

ويرى البرت اشفيتر [2] أن محاولة التمييز بين الحضارة كمـــا يســـميها الألمان "Kultur" وبين "Civilization" التى تعنى عندهم المدنية بوصفـــها مجرد التقدم المادي، هو أمر يهدف منه جعل العالم يألف فكرة قبول نـــوع من الحضارة لا أخلاقي إلى جانب نوع أخلاقي منها ٠

لم يتفق علماء الغرب على اعتبار كلمة Culture مرادفة لكلمة حضـــارة وإنما كلمة Civilization لأنها تركز على الخصال الاجتماعية المستحبة التـــى ظهرت بظهور المدن٠

نخلص من هذا كله إلى أن الشائع هو أن اصطلاح حضارة مرادف عنـــد البعض لاصطلاح مدنية إلا أن منها خاص بالجانب المادي والروحي والثاني بالمادي فقط ٠أما الثقافة فهي تنفرد بالجانب الروحي المعنوي ٠

المدنية والثقافة يمثلان الحضارة مع اختلاف بين المدارس في الشـــرق والغرب ٠

إن اختلاف المفاهيم راجع إلى اختلاف المدارس والمتخصصين فالبـــاحث في اللغة يبحث في مفاهيم غير التى يبحـــث فيـــها البـــاحث التـــاريخي أو الاجتماعي أو الفلسفي ٠

---

[1] المدنية ترجمة محمود محمود القاهرة ١٩٥٩ ص ١٣٢ ٠

[2] فلسفة الحضارة ٣٦ ٠

الفصل الثاني

الإسلام

إذا كان موضوع دراستنا هو الحضارة الإسلامية وقد تناولت في الفصل الأول مفهوم الحضارة وما يرتبط به من عناصر كالثقافة والمدنية وفي هذا الفصل أتناول الشق الثاني لموضوع دراستنا وهو الإسلامية .

فالإسلام هو دين سماوي له صفات وخصائص ، ويحمل قيماً حضارية تؤدى إلى بناء الحضارة وسوف استعرض في هذا الفصل :

١- الأصول الحضارية للإسلام .
٢- الحضارة إسلامية أم عربية .
٣- الحضارة حضارة مسلمين أم إسلام .
٤- الحضارة الإسلامية واحدة أم عدة حضارات .

أولا: أصول الحضارة الإسلامية

قامت الحضارة الإسلامية على أسس وأصول ومبادئ ، وكونت القيم الحضارية الإسلامية أصلا ثابتا وقويا لهذه الحضارة ، وكثيرون ممن يبحثون في مجال الحضارة الإسلامية يتحدثون عن دور الأجناس في إقامة الحضارة الإسلامية ، ويهملون الأساس الذي قامت عليه هذه الحضارة وهو الإسلام بأفكاره ومبادئه ! .

إن الحضارة - أية حضارة - هي جامعة لمختلف الجوانب من النشاط الإنساني ، وتلبى مختلف حاجات الإنسان ، ولذا فإنها جماعية بطبعها ، وهي نتاج جماعة .

وللحضارة خاصية الاستمرار والنماء والبقاء فترة كافية من الزمن .

هكذا كانت الحضارة الإسلامية ، لها خصية الانتشار والنماء والاستمرار لأنها قامت على أسس وأصول تسمح لها بذلك .

كان الإسلام كدين ونظرية أصلا من أصول الحضارة الإسلامية وهذا الأصل لم يكن مرتبطا بجنس بعينه ، وأن كان للعرب الفضل في نقله للآخرين ، ولكنهم ليس لهم الفضل في إيجاده .

فالإسلام دين سماوي جاء من عند الله ،حاملا للقيم الحضارية والأسس الإنسانية التى تؤدى إلى بناء الحضارة .

الإسلام حمل للعالم أجمع وللبشرية كلها قيمة العلم والعمل حمل قيما روحية وثقافية واجتماعية وأخلاقية ونظريات سياسية واقتصادية أسهمت جميعها في بناء الحضارة الإسلامية .

وقد أنضوي تحت لواء الإسلام أقوام لهم تراث مادي وروحي وبمعنى آخر لهم حضارة ومن هؤلاء :-

- العرب - الفرس - الهنود - الأتراك - وأمم أخرى .

واستفاد المسلمون من الحضارات القديمة والسابقة التى قامت في بلاد اليونان ومصر والشام وبلاد الرافدين والهند .

وعندما انخرط العرب والفرس والهنود والأتراك في المجتمع الإسلامي ، بنوا وأسسوا حضارة واحدة هي الحضارة الإسلامية مستلهمين القيم الإسلامية والمبادئ السامية والإنسانية التى جاء بها الإسلام .

لم يأت الإسلام لأمة بعينها ، ولم ينزل لشعب خاص ، وإنما نزل للناس جميعا ، وبُعثَ محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة .

لقد قامت الحضارة الإسلامية على ثلاثة أعمدة رئيسية هي :

أولا: دور الإسلام .

ثانيا : دور العرب .

ثالثا : دور الأمم الأجنبية .

أما الإسلام فكانت مصادره القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وسيرة المصطفي صلى الله عليه وسلم وغزواته ومعاملاته والفتوحات الإسلامية وأحداثها .

لقد اهتم المسلمون بنوعين من الدراسات في مستهل حياتهم وهي : الدراسات التاريخية وتعنى بدراسة تاريخ الإسلام ومن هؤلاء أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير في اهتماماته بمغازى الرسول عليه السلام .

والنوع الثاني : هو الدراسات الدينية التى اهتمت بقراءة القرآن الكريم ورواية الحديث النبوي الشريف وما يتصل بهما من تشريع وفقه وظهرت مدارس في المدينة ومكة والكوفة والبصرة واليمن وخراسان ومصر .

ولقد جاء الإسلام بقيم وأصول حضارية قسمها أستاذنا الدكتور شوقي ضيف إلى قيم روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية .

أما د. مصطفي الشكعة فقد حددها في كتابه " معالم الحضارة الإسلامية " بالعلم والتعلم والعقل والتفكير والإنسانية والمساواة والتحرر من الخوف بين الفرد والمجتمع.

وأرى أنه يستوجب علينا أن نعرف أن الإسلام منهج متكامل منهج حضاري وثقافي، يهتم بالجانب الروحي والجانب المادي ، تتكامل فيه النظرية مع التطبيق ، ولهذا علينا أن ندرس الجانب المادي والمعنوي في القيم الحضارية للإسلام .

يقوم الإسلام على ثلاثة أسس هي : العقائد والعبادات والمعاملات ، والأسس الثلاثة مترابطة متداخلة ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى .

فالمسلم الذي يشهد أن لا اله إلا الله محمداً رسول الله يؤدى العبادات المتعلقة بهذا الاعتقاد ويسير في معاملاته على نفس النهج .

وسوف أستعرض الأصول الحضارية للإسلام على النحو التالي :-

- أصول حضارية روحية .
- أصول حضارية علمية وعقلية .
- أصول حضارية عن الفرد والمجتمع .
- أصول حضارية إنسانية .

١ - الأصول الحضارية الروحية

الإسلام باشتقاقه اللغوي كلمة تدل على معنى الخضوع والانقياد [1] وقد جاءت في القرآن الكريم بهذا المعنى قال تعالى : " وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له " وقال تعالى " وأُمرت أن أُسلم لرب العالمين " .

قامت الشريعة الإسلامية على أصول وقواعد وهي : العقيدة والعبادات والمعاملات أما العقيدة فإنها تقوم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

---

[1] تاريخ الأدب العربي - د. شوقي ضيف - العصر الإسلامي ١١

واليوم الآخر والقدر شره وخيره ، والإيمان بوجود خالق لهذا الكـــون وأن الخالق واحد يستلزم شهادة أن لا إله إلا الله •

أما الإيمان بوجود اله خالق لهذا الكون وخالق للإنســـان ، فلــم يكتــف انقرآن بذكر الآيات التى تدلل على وجود الله بل أكد بالدليل العقلـــي علــى وجود الله ، قال تعالى : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلـــى السـماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت " فالإنســان إذا نظر إلى الإبل وهي معروفة لدى عرب الصحراء أو نظر إلى السـماء أو الأرض أو الجبال ، وسأل نفسه عن خالقها فلا بـــد أن يصــل إلــى إدراك الخالق وهو الله •

وفي أكثر من سورة وآية أقسم الحق سبحانه وتعالى بمخلوقاته داعيـــا للتفكير في خلقها والتدبر في أمرها قال تعالى " والشمس وضحاها والقمــر إذا تلاها والنهار إذا جلاها ونفس وما سواها " وقال تعالى " والفجر وليـــال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر " وقال تعالى أيضا " والضحى والليــل إذا سجى " " والسماء والطارق " وهذا القسم بالمخلوقات التـــى خلقــها الله تعالى تدفع الإنسان إلى التفكير في خالقها ، وقديما قال الاعرابي " البعـــرة تدل على البعير " وقال أبو بكر الصديق عندما سُئل كيف عَرفت ربك قـــال " عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى " أي أن الله دله علـــى طريــق معرفته •

وبعد أن أكد القرآن الكريم على وجود الله وقدم الأدلة العقليـــة ، أثبــت أيضا بالدليل العقلي على أن الله واحد قال تعالى " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " فالله لابد أن يكون واحد في هذا الكون حتى لا يفسد أمــره ، قــال تعالى " قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـد " • أما صفات الله فهو " ليس كمثله شئ " و" لا تدركه الأبصــار وهــو يـدرك الأبصار " وهو " اللطيف الخبير " " وسع كرسيه السموات والأرض " •

إن الإيمان بوجود اله واحد قيمة روحية لبنى الإنسان ، فهو تنزيه للبشر من عبادة قوى الطبيعة والأصنام ،وعبادة اله واحد فقط ، اله قـــادر قــوى عليم خبير سميع بصير . . له مشيئة مطلقة تسيطر على الكون كله .

فالإنسان بعبادة خالقه وترفعه عن عبادة الطبيعة وما فيــها مــن قــوى ومخلوقات هو تنزيه للإنسان أفضل الكائنات والمخلوقات ، فالطبيعة مخلوقة ومسخرة تحت أذنه ، فكيف يعبدها ويخضع ويخنع لقواها ؟ الإسلام حـــرر الإنسان من هذا كله ووجه كل طاقته إلى عبادة الواحد الأحد .

وفي مجال العبادات فإن العبادات تتركز على الصوم والصـــلاة والحـج والزكاة ، أما الصلاة فهي صله بين العبد وربه وإظهار للعلاقة المســـتمرة يوميا بين العبد وربه قال تعالى " قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصـلاة " . . " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " .

والصوم عبادة يلتزم فيها المسلم بأوامر ونواه الله سبحانه وتعالى قــال تعالى " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون " .

والحج ركن آخر من أركان العبادات ، يقوم بـــه المســلم فــي أشــهر معلومات ، إظهارا للخضوع والانقياد لله تعالى ، كما أنـــه فرصـــة لتجمــع المسلمين من كل صوب وحدب في وقت محدد .

والزكاة هي تطهير لأموال الأغنياء ، وهي حق من الحقوق التى للفقــراء عند الأغنياء، وهي نوع من التكافل الاجتماعي .

وفي المعاملات رسم الإسلام طريق الفضيلة والســـلوك وحــدد أصــول المعاملات بين البشر ، وحرم الإسلام الفجور والريـــاء والكــذب ، وحــرم المعاملات الربوية ، والإفساد في الأرض وحرم الكـــبر والتعــالي ، حــرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، حرم آفة الخمر والقمار .

وضع الإسلام أسس التعامل ما بين البشر على أساس أخلاقي وعلى مبدأ عدم الإضرار بالآخرين ٠

الإسلام ليس عقيدة دينية مفروضة بل سلوك أخلاقي يراقب بـه المـرء أفعاله وأعماله خشية العقاب وأملا في الثواب وقد ساعد هذا علـى إقامـة حضارة زاهرة قائمة علي الإيمان بالله وبوحدانيته وأداء المنسك والعبـادات طواعية ، وسلوك السبل الأخلاقية في المعاملات ٠

٢ – الأصول الحضارية العملية والعقلية

حرر الإسلام العقل البشرى من الأوهام وفتح له مجال التدبـر والتفكـير فكانت دعوة الحق سبحانه وتعالى للإنسان أن يفكر في وجود صـانع هـذا الكون ومبدعه ، ثم التفكير في وحدانية الخالق ، وبذلك كانت دعوة الإسـلام للإنسان أن يفكر بعقله ويتدبر ٠

خاطب القرآن الكريم الإنسان دائما بأنه صاحب عقل ولب ودعاه للتفكـير في الكون قال تعالى " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قيامـا وقعـوداً وعلـى جنوبـهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنـا عذاب النار " ٠

يحتكم القرآن إلى العقل لإدراك خالق الكون ، فالله موجـود إذا تدبرنـا الليل والنهار والأرض والسموات والإبل والإنسان نفسه ، والله واحد " لـو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " " وما كان معه من اله إذا لذهب كل اله بمـا خلق ولعلا بعضهم علي بعض سبحان الله عما يصفـون " فالإلـه قـادر لا ينازعه سلطان فكيف له بآخر يساعده أو يعاونه تعالى الله عما يصفون ٠

ويخاطب القرآن المسلم ويدعوه للتدبر والتفكر واستخدام لبه وعقلـه ولا يتبع أباءه قال تعالى " وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبـع مـا ألفينا عليه آباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون " ٠

لقد شبه القرآن الكريم من لا يستخدمون عقولهم بأنهم كالأنعام بل أضل أولئك هم الغافلون " .

كرم الإسلام العقل وجعله في مرتبة عالية ، وكرم الذين يستخدمون عقولهم ، ودعا إلى استخدام العقل والعلم والمعرفة ، لم يحدد لهم قوالب يحبسون فيها أفكارهم بل دعاهم للإطلاع والبحث ، ففتشوا وبحثوا في كل علم وصل إليهم ، وأطلعوا على معارف الأمم التي فتحوها وترجموها ونقلوها إلى العالم أجمع ، وحافظوا على تراث الأمم السابقة .

دعا الإسلام إلى طلب المعرفة والعلم ، وكانت أول سورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم هي " أقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم " .

وأشاد القرآن الكريم بالعلم والعلماء وصور العلماء بأحسن تصوير ، قال تعالى :" إنما يخشى الله من عباده العلماء" وقال تعالى " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال تعالى " وقل رب زدني علماً .

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم دعوته لطلب العلم ، فقال " طلب العلم فريضة على كل مسلم " وقال " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سلك الله به طريقا من الجنة " وقال " العلماء ورثة الأنبياء " وقال "اطلبوا العلم ولو في الصين " وهي أبعد بلد كان العرب يعرفونه في ذلك الحين .

إن الحضارة بنت العلم والعلم ضالة المسلم ، فلا حضارة بدون علم ولا تقدم بدون معرفة، والعلم والمعرفة هما سبيل المسلم للرقى والتقدم .

لقد فتح الإسلام باب الاجتهاد ، واعتبر الاجتهاد أصلا من أصول الإسلام لما لا يوجد في كتاب الله وسنة نبيه ، وقصة معاذ ابن جبل الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن معروفة حيث سأله النبي كيف يصنع إذا عرض له قضاء ولم يكن في كتاب الله وسنة نبيه ، فقال له معاذ : اجتهد رأى لا آلو ، فسر النبي صلى الله عليه وسلم وحمد الله .

٣- أصول حضارية للفرد والمجتمع

وضع الإسلام أسس بناء الفرد والمجتمع وحدد العلاقة بين الفرد والمجتمع .

أذاب الإسلام شخصية الفرد في المجتمع دون أن يلغيها ، ألغى ما من شأنه أن يجعل الأفراد متنافرين ، فألغى الطبقات وحقق المساواة بين الجميع ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

قضى الإسلام على العصبية القبلية ،ولم يحل محلها العصبية العربية أو القومية العربية ،وإنما ألغى ما من شأنه أن يؤدى إلى التشرذم أو التعصب لجنس دون آخر ، وجعل الإسلام هو الأصل الذي يجتمع حوله العربي وغير العربي ، فألغى العصبية والقومية وأحل محلها مفهوم الإسلام بمضمونه العالمي ، الذي ينضوي تحته كل البشر .

لقد أضعف الإسلام من شأن القبيلة وأحل محلها فكرة الأمة فقال تعالى " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فأعبدون " . وقال تعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس " .

أرسى الإسلام قواعده الاجتماعية القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلغاء الفوارق الطبقية والمساواة بين البشر في الحقوق والواجبات ، وجعل الجميع أخوة " إنما المؤمنون أخوة " .

فرض الإسلام الزكاة لتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية بالأخذ من مال الغنى حقا معلوما للسائل والمحروم .

وإلى جانب الفرض الذي فرضه الحق سبحانه وتعالى ، جعل الصدقات لمن أراد ودعا إليها وضاعف أجرها ،ولهذا سارع الأوائل بتقديم الصدقات فقدم أبو بكر ماله كله ، وجهز عثمان بن عفان جيش العسرة واشترى بئر رومه ، وقدم عبد الرحمن بن عوف قافلة قوامها سبعمائة راحلة لوجه الله تعالى وطمعا فى الأجر والثواب .

نظم الإسلام المعاملات الاقتصادية في الزراعة والصناعة والتجارة ووضع أسسا للبيع والشراء " وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم " .

وكما أهتم الإسلام ببناء الفرد أهتم ببناء المجتمع ، وحدد العلاقة بين الاثنين ، واهتم بالمرأة وجعلها كفوءاً للرجل لها ماله من الحقوق ولها مثل ما للرجل من علم وعمل ، كرم المرأة في الميراث إذ جعل لها حقاً معلوما من مال أبيها ، وفي نفس الوقت يقوم زوجها بالإنفاق عليها دون المساس بإرثها ، وأباح الطلاق لصالح الطرفين .

منع الإسلام الرق والاستعباد ، وسعى لتحرير العبيد من الرق ومنع استرقاق آخرين ، وجعل إفطار الصائم بعذر أن يحرر رقبة والحنث باليمين، وبذلك تجف مصادر الرق والعبودية .

هكذا عاش المسلمون تحت قواعد وأسس اجتماعية حضارية يسعون جميعا نحو إعلاء كلمة الله ونشر دينه ، عاشوا في أخوة يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

٤- أصول حضارية إنسانية

حرر الإسلام الإنسان من عبادة الأوثان والأصنام وقوى الطبيعة ، وبذلك رفع مكانته وأعلى من قيمته وقدره ، حيث جعله أسمى المخلوقات جميعا ، وحرى به ألا يعبد ما هو دونه .

خاطب القرآن الإنسان على أنه المخلوق الذي خلق في أحسن تقويم ،وأبدع خلقه في أروع صورة ، وأن الله كرم الإنسان على سائر المخلوقات " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا "

كرم الإسلام الإنسان ، كل إنسان . فدعا إلى تحرير العبيد ومنع الرق والاستبعاد .

أباح الإسلام حرية العقيدة " لا إكراه في الدين " " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً " وجاء الجهاد ليس للعدوان ولكن للدفاع عن دين الله .

وضع الإسلام أسس التعامل مع أسرى الحرب ومع الدول المغلوبة ودعا المسلمين إلى القتال بشكل حضاري ، فلا يقتلون طفلا ولا شيخا ولا امرأة ، ولا تمس الكنائس والمعابد بسوء (انظر مقالنا – السلوك الحضاري للمسلمين في الحرب والقتال – صحيفة الاتحاد ٢٥/٩/٩٢ – أبو ظبي) .

الإسلام دين الإنسانية جمعاء في الوقت الذي كانت الشرائع السماوية السابقة قد نزلت لأقوام خاصة ، وجاء الإسلام بمبادئ تهم الإنسانية كلها كالرحمة والمحبة والإخاء والمساواة والعدل وحسن معاملة الآخرين وحرر الإسلام الإنسان من عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، وحرره من الرق والعبودية وكرمه على سائر المخلوقات .

ثانيا : الحضارة إسلامية أم عربية !؟

يصر البعض على أن يطلق على الحضارة التى بناها أقوام من العرب والفرس والترك والهنود صفة حضارة عربية استنادا إلى أن العرب هم الذين حملوا للعالم الإسلام ،وأن أكثر النتاج الحضاري عربي ومن هؤلاء زيجريد هونكه (1) التى كتبت عن أثر الحضارة العربية في أوربا ، كما استخدمها مصطفى الرافعي في كتابه حضارة العرب ، وكذلك جاك ريسلر في كتابه الحضارة العربية ، وكذلك وصفها اشبلنجر بأنها عربية وجوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب .

صحيح أن القرآن الكريم نزل بالعربية ولكن احكامه إنسانية قال تعالي " انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" وقال تعالي " يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " والإنتاج الحضاري ليس عربيا محضاً ، بل إنه ينتمي إلى أمم ولغات وشعوب عدة .

أما الذين قالوا أنها حضارة إسلامية فهم كثيرون منهم : بارتولد وآدم متز وجرونبارم وجب من الغرب ومن العرب طه ندا وعفت الشرقاوى ومصطفي الشكعة وأحمد شلبى وجميع علماء الفرس والترك والهنود المسلمين ، ورأى هؤلاء يقوم على أساس أن الدين الإسلامي هو المصدر الرئيسي لأغلب المبدعين والشريعة الإسلامية التى أعطت للحضارة الإسلامية الكثير وأسهمت بدور فعال في بنائها مع عدم الإقلال من دور الذين يعيشون تحت سلطان المسلمين .

---

(1) في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب [illegible]

الذين زعموا أنها حضارة عربية استندوا إلى أن العرب هم الذين قـادوا هذه الحضارة وأن اللغة العربية هي اللغة التى كانت لغة للثقافة والحضارة، ويمكن الرد على زعمهم بالقول لم لم يقم العرب قبل الإسلام حضارة عربيـة زاهرة في قلب الجزيرة العربية علما بأن اللغة العربية هي نفس اللغة التـى كانت لغة الثقافة ؟! .

والذين زعموا بأنها حضارة عربية قد أغفلوا حـق الأجنـاس الأخـرى وأنكروا أصحاب حضارات قديمة .

إن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا فكرة القوميـة أو التعصـب القومـي ، وإنما عرفوا فكرة القبلية المجزأة ، وبعد الإسلام عرفـوا الإسـلام كفكـرة أغنتهم عن القبلية والقومية ، فكان الإسلام بمثابة المنهج والمبـدأ الـذي جمعهم جميعا حوله .

ويحاول من قالوا بفكرة الحضارة العربية إثبات وجود حضـارة عربيـة سابقة مثل حضارة أهل اليمن والشام وبلاد الرافدين وحضارة مكة ويـثرب وحضارة عاد البائدة ، ولا أحد ينكر وجود مثـل هـذه الحضـارات إلا أن الجزيرة العربية لم تشهد حضارة قبل الإسلام بمائتي عام أو أكـثر ، ولـم يشهد قلب الجزيرة حضارة تضارع الحضارات القديمة ، ولو كان للعرب قبل الإسلام حضارة فاين ملامحها ، ولماذا لم يُستعمل اصطلاح حضـارة علـى نتاجهم ، إن الحضارة كمصطلح جاء وكأنما وضـع خصيصـا ليقـف فـى مواجهة البداوة وهي الحالة التى كان عليها العرب قبل الإسلام .

إن الحضارة التى ظهرت بعد الإسـلام فـي السياسـة والفكـر والأدب والاقتصاد والفن والعلوم العقلية والنقلية والتطبيقية ما كان لها أن تظـهر على يد العرب وحدهم . وإنما نجد في كل فن من الفنون ملمحا فارسـيا أو هنديا أو تركيا أو فرعونيا أو يونانيا بالاضافة إلى جذوره الإسلامية .

إن الحضارة هي حضارة إسلامية لأن الإسلام كان مهيمنا على كل جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع وجود تأثيرات من أمم أخرى اختلطت بالعرب المسلمين .

لو كان العرب في عصر ما قبل الإسلام قادرين على إقامة حضارة زاهرة لأمكن قبائل الهنود الحمر في أمريكا وقبائل الترك في آسيا وقبائل الزنج في أفريقيا إقامة حضارة مماثلة لما إقامة العرب .

نخلص من هذا أن اصطلاح الحضارة الإسلامية أفضل وأقرب للصواب .

ثالثا: هل هي حضارة إسلامية أم حضارة المسلمين ؟

قد يكون للنظرية أو الأيديولوجية دور هام في إقامة الحضارة واستمرارها ، لكنها على كل الأحوال لن تكون المكون الأول والأخير لهذه الحضارة .

الإسلام كنظرية أو فكرة لها مكانتها السامية وقداستها العالية كأى نظرية دينية سماوية أو وضعية كاليهودية والمسيحية والبوذية والزرادشتية في تكوين الحضارة ، فالدين مكون رئيسي في تكوين الحضارة ولكنه ليس كل المكونات الحضارية .

كانت الحضارات القديمة تسمى بأسماء الأماكن التى ظهرت بها كحضارة بلاد الرافدين أو حضارة بلاد اليونان ، أو تسمى باسم الشعب المبدع كحضارة اليونانيين والفراعنة والرومان والفرس والآشوريين والفنيقيين والهنود .. إلخ ولم يطلق أى وصف لأى حضارة لكونها سياسية أو اقتصادية أو دينية فليس هناك حضارة اليهود ولا المسيحيين ولا الزرادشت ولا البوذية وليس هناك حضارة اشتراكية أو رأسمالية أو ليبرالية .

تفرد الإسلام عن غيره من النظريات الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية بكونه صار وصفا للحضارة ، وأصبحت الحضارة التى أبدعها المسلمون تسمى الحضارة الإسلامية .

وربما يعود هذا إلى أن الإسلام يعد نظرية سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ، فهي نظرية كاملة متكاملة تضم كل مكونات الحضارة ولهذا مال الباحثون إلى اطلاق اصطلاح الحضارة الإسلامية عليها .

ويعترض آخرون على هذه التسمية ويرون أن المبدع دائما هو الإنسان هو الذي يقيم الحضارة لا النظرية والإنسان هو الذي يهدم الحضارة ، والإنسان هو الذي يقيم المدنية ويهدمها ، لذا يجب أن نطلق اسم الحضارة

على المبدع نفسه وهو المسلم ، ولهذا أيد فريـــق فكـرة أن يكـون اسـم الحضارة التى أبدعها المسلمون " حضارة المسلمين " لأن المســلمين هـم الذين أبدعوها وليست النظرية .

وأرى أن تسمية الحضارة باسم الإسلامية أو حضارة المسلمين أمـــر لا اختلاف عليه كثيرا ، فالمسلم هو في الأصل حـامل الرسـالة ومـن هـذا المنطلق يبنى الحضارة ، وإبداعات المسلم في السياسة والاقتصاد والثقافـة قائمة على أسس وأصول نابعة من الإسلام .

الإنسان وحده بدون النظرية الإسلامية يمكنه أن يبدع حضـارة ولكنـها بالطبع لن تكون إسلامية ، ولكن الإنسان الذي تربي في ظل الإسلام بأفكـاره ومبادئه لابد وأن ينتج حضارة قائمة على ما لديـه مـن أفكـار ومبـادئ إسلامية .

ولكن سواء قلنا عنها إسلامية أو حضارة مسلمين فـإن هـذا لا يعنـى التقليل من شأن الأقليات غير المسلمة ، إلا أن الكل يجب الجزء ، وتبقـي إبداعات غير المسلمين ضمن إطار الإسلامية .

ولقد أعجب كثير من الباحثين بتسمية الحضـارة بحضـارة المسـلمين وخاصة الذين أبدعوا في ظل الإسلام من غير المسلمين ، وقد كتب أسـتاذنا الدكتور أحمد محمود الساداتى رحمه الله كتابين عن المسلمين وحضارتـهم استخدم اصطلاح حضارة المسلمين .

رابعا: هل الحضارة الإسلامية حضارة واحدة أم عدة حضارات ؟!

من المعروف أن شعوبا كثيرة قد دخلت الإسلام ، وأقامت هذه الشعوب حضارة زاهرة، كان من مكوناتها الحضارية الإسلام وعناصر أخرى محلية ، فالفرس أقاموا حضارة ، ونشأت عدة دول كان لكل واحدة منها دور بارز ، وكذلك أقام الهنود والأتراك ، فقامت في الهند حضارة المغول الإسلامية ، وقام في مصر عدة دول كان لكل واحدة منها حضارة مثل حضارة الفاطميين والأيوبيين والمماليك وكذلك قامت في تركيا وبلاد الشام والأندلس وبلاد المغرب .

ولا يمكن أن ننكر بأي حال من الأحوال المكونات المحلية لكل شعب فالشعب الإيراني كان له حضارة قديمة ، وكذلك كان الهنود وكذلك المصريون ، وعندما اعتنقت هذه الشعوب الإسلام ، صار الدين الإسلامي هو المكون الرئيسي لحضارتها ، لم تنس ماضيها وحضارتها القديمة لأن التراث الموروث لا يسهل القضاء عليه أو نسيانه بل يبقى شائعا ومنتشراً بين الشعب وإن اختلفت درجة تأثيره من شعب لآخر .

فالمصريون ورثوا حضارة الفراعنة وحضارة اليونان وحضارة الرومان وكانت الإسكندرية منارة ثقافية لحضارات الأرض كلها ، وليس من السهل أن ينسى المصريون حضارتهم وتراثهم بمجرد مجئ الإسلام ، وكذلك ورث الفرس حضارة الأكمينيين والاشكانيين والبارثيين والساسانيين بل واليونانيين ، وتأثروا بحضارة الهند ومصر ، ولا يمكن أن يمحى الإسلام ما ورثوه بسهولة ويسر .

إن الإسلام لم يأت ليمحو الحضارات السابقة أو يقضي على تراث الشعوب ، وإنما جاء ليقضي على عبادة ما دون الله من أوثان وأصنام جاء ليمحوا نظريات الكفر والشرك .

حمل الإسلام قيما وأصولا حضارية تمثلت في القيم الإنسانية والروحية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية ، وأكد الإسلام على قيمة العلم والعمل والعدل والمساواة وتحرير النفس من قيود العبودية والإذلال والقضاء على شرور النفس والأخلاق والعادات الفاسدة .

كانت هذه القيم هي الأصل المشترك للحضارة التى أقامها المسلمون في الهند وإيران والشام ومصر والأندلس وتركيا ، وكانت قيم الإسلام قاسما بين كل هذه التجمعات البشرية التى تعتنق الإسلام .

من الخطأ أن نقسم الحضارة الإسلامية إلى حضارات منفصلة فهذا التجزئ لا يجوز إلا بهدف الدراسة والبحث في فصول الدرس والتحصيل ، ولا يمكن أن نقسم الحضارة الإسلامية إلى جملة حضارات استنادا إلى وجود مكونات حضارية محلية ، فهذه المكونات لا تشكل عنصرا رئيسيا في البناء الحضاري للمسلمين ، ولكن لها عبقها المحلى .

إن القواسم المشتركة بين المسلمين تجعل حضاراتهم واحدة ، فالقرآن والفكر والثقافة وانسجام العادات والتقاليد يجعل من حضارة المسلمين حضارة واحدة .

يمكن أن نقسم الحضارة الإسلامية على أسس مكانية أو زمانية ، نقول الحضارة الإسلامية في الهند أو في تركيا أو نقول في العصر الفاطمي أو المغولي أو فى القرن الرابع الهجري ، وهذا من أجل الدراسة فقط فالحضارة الإسلامية شجرة وارفة الظلال غزيرة الثمار ولكل ثمرة مذاقها الذي لا يقل حلاوة عن الثمرة الأخرى .

الفصل الثالث
المسلمون

إذا كانت النظرية وحدها لا تستطيع أن تقيم حضارة فإن معتنقي النظرية هم الذين يستطيعون إن يقيموا حضارة وقد اعتنق الإسلام عدة شعوب وأمم أهمها : العرب ، الفرس ، الهنود ، الأتراك وأسهم في بناء الحضارة الإسلامية شعوب أخرى مثل اليونان ، وسوف استعرض في هذا الفصل :

أولاً : العرب والإسلام .
ثانيا: الفرس والإسلام .
ثالثا: الهنود والإسلام .

أولاً : العرب والإسلام

العرب هم الجنس الذي حمل الإسلام ونقله إلى العالم أجمع هم الذين فتحوا الدول والممالك من الصين إلى الأندلس ونشروا الدين بين أهالي تلك البلاد .

والعرب أحد الأجناس السامية ، والساميون اصطلاح أطلق على الشعوب التى كانت تتفاهم بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية والفنيقية والآشورية والارامية وينسبون إلى سام بن نوح [1]

العرب ينسبون إلى يعرب بن قحطان ، وكانت العروبة قديما تعنى البداوة، والأعراب هم سكان البوادى والعرب هم سكان المدن [2] .

إن معرفتنا عن العرب لا تتعدى مائة وخمسين سنة قبل الإسلام ولا نعرف الكثير عن الفترة السابقة عن عرب الصحراء أما سكان المدن مثل

---

(1) تاريخ العرب [illegible] ص ٣٠ .
(2) حضارة العرب [illegible] ص ٢٣ .

مكة والمدينة والأطراف كاليمن والغساسنة والمناذرة قد يطول قليلا لارتباطهم بالتحضر والتقدم ووجود كتابات تاريخية عن الممالك الأولى التى قامت .

وتراث العرب قبل الإسلام لا نعرفه إلا من مصدرين :

١- القرآن الكريم الذي تحدث عن معتقدات العرب وأصنامهم وأوثانهم .

٢- الشعر الجاهلي بما فيه من معلقات وقصائد وأيام وأنساب ووصف للبيئة العربية .

ولقد انقسم العرب إلى قسمين وهما :

١- البدو ٢- الحضر

أما البدو منهم فهم سكان الصحراء وسكان الخدر وأهل الوبر ويطلق عليهم الأعراب، واتسمت حياتهم بالتنقل والترحال .

أما أهل الحضر فهم الكلدانيون والآشوريون والآراميون والمعينيون والسبئيون والحميريون ومدن اللحيانيين وآل ثمود .

وكان العرب سواء في الحضر أو البادية يعيشون حياة قبلية يغلب عليها النظام الطبقى حيث الأحرار والأغنياء والعبيد والفقراء وظهر بين القبائل جماعات الصعاليك الذين لعبوا دورا خطيرا في المجتمع العربي قبل الإسلام سواء في الوضع الاجتماعي أو الوضع الثقافي .

ويؤكد د. مصطفى الرافعى أن العرب في البادية أصحاب حضارة ولذا قسم الحضارة إلى حضارة بدوية وحضارة مدنية (1) .

وصور طه حسين (2) العرب بأنهم كانوا أصحاب علم ودين ولديهم ثروة وبأس وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها ، وأصحاب اقتصاد داخلى وخارجي معقد " فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة

---

(1) حضارة العرب ٢١ .

(2) في الأدب الجاهلي - طه حسين ص ١٠٠ .

راقية لا أمة جاهلة همجية ، وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر في أمة جاهلية همجية ؟! •

فمن الناحية السياسية كان العرب لهم كيانات وهي القبائل ، وعلى رأس كل قبيلة شيخ ، وهناك مجلس القبيلة ، وهو مجلس الشورى وفى المدن كان هناك تآلف بين سكانها من القبائل ، وقد أنشأ العرب حلف الفضول في مكة ، وتأسس للكعبة نظام للخدمة وتقديم الرعاية للحجاج ، فكان هناك اختصاص لكل فرع أو بطن من بطون قريش •

كانت السقاية والعمارة من حق بنى هاشم وكان عليهم سقاية الحجيج والمحافظة على النظام والآداب في البيت الحرام ، وكانت السدانة والحجابة من حق بنى عبد الدار •

وكانت الرفادة - وهي الأموال التى تقدمها قريش لسترفد بها منقطع الحاج - من نصيب بنى نوفل •

وكان الأيسار - وهو الازلام التى يفزع إليها في الملمات ويؤخذ رأيها في المعضلات - من نصيب بنى جمح •

وكانت الأموال المحجرة - وهي الأوقاف التى تقدم للآلهة - من نصيب بنى سهل •

كما عرف العرب أصول وقواعد كالمشورة والاشناق والسفارة ، أما المشورة فهي أن يعرض الأمر على صاحبها قبل اعتماده والأخذ به وكان هذا من نصيب بنى سعد •

والاشناق : وتعنى الديات والمغارم فكانت لبنى تيم •

والسفارة وهى أنه إذا وقعت حرب أو منافرة جعلوا صاحبها سفيرا أو منافرا وكانت لبنى عدى •

كان العرب جميعاً البدو منهم والحضر يجتمعون حول الكعبة بأصنامهم وأوثانهم وكان الحج موسما للنفع والاستفادة والزيارة والعبادة وعلى الرغم من مكانة الكعبة بين العرب إلا أنهم كانت لهم أصنامهم وأوثانهم التي يتقربون بها زلفى مثل ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا واللات والعزى ومناة وهبل واساف ونائلة .

كما كان هناك الأحناف الذين عبدوا الله على دين إبراهيم الخيل ومنهم ورقة بن نوفل .

كما كان هناك اليهود والنصارى ، أما اليهود فكانوا في يثرب واليمن ، وأما النصارى فكانوا في نجران وبين الغساسنة والمناذرة .

إن الفرق بين البدوي والحضري ، هو إن الأول يقنع بالضرورات من أسباب العيش بينما الثاني يتوسع في أسباب الترف من مسكن ومطعم وملبس .

وعلى الرغم من حالة الفساد الاجتماعي المتمثل في النظام الطبقي وإهدار حقوق المرأة وانتشار العصبية القبلية والسلب والنهب والقتل لأتفه الأسباب وشيوع تناول الخمر، لكن العربي اتصف بصفات طيبة منها : الكرم وحب الحرية وحماية الجار وحفظ العرض ومراعاة حقوق القربى ونجدة الضعيف .

حمل العرب الإسلام إلى العالم والأمم الأخرى ، وحملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم الحميد ، حملوا آدابهم الشعرية والخطابة والأمثال ، لم ينسوا أشعار عنترة وزهير وطرفة ولبيد ، ولم ينسوا كرم حاتم الطائي ، حملوا إلى الأمم الأخرى التراث العربى والإسلامي فكانوا خير وسيط .

ثانيا : البداوة والحضارة

وقفنا على مفهوم الحضارة ، التى يعرفها البعض على أنها عكس البداوة، وكأنما جاءت الحضارة لتكون مضادة لمعنى البداوة .

- لقد انقسم العرب قبل الإسلام إلى قسمين :

أ- البدو   ب- الحضر

والبدو هم سكان البادية وهم أيضا سكان الصحراء ، ويطلق على من سكن الصحراء أهل الحدر أو أهل الوبر .

والبادية هي مؤنث البادي ، ويقصد به فضاء واسع فيه المرعى والماء وسكانه هم أهل البادية والجمع : بواد والنسبة إليها بدوي على غير قياس[1]

والبداوة هي الحياة في البادية ويغلب عليها التنقل والترحال وجاء في القرآن " وجاءكم من البدو " .

والبداوة هي الحالة التى عليها البدو ، وتتمثل حالة البدو في عدم الاستقرار والارتحال من مكان إلى آخر ، بحثا عن الكلأ والعشب والماء ، لا رغبة في التجديد والتغيير .

البداوة ليست مرادفة للبدائية ولكنها تأخذ بعض صفاتها وأحوالها ، فالبدو والمجتمعات البدائية تتفق على بساطة حياتها وعدم وجود نظم معقدة اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية فهي أحوال بسيطة بساطة صحراء البدو ، وبساطة إمكانيات البيئة البدائية ومع وجود قواسم مشتركة بين البدائية والبداوة ، إلا أننا لا نعتبرهما اصطلاحين مترادفين ، بل لكل منهما خصائصه .

والبداوة ليست فترة زمنية معينة بمعنى أن المجتمع العربى القبلي قبل الإسلام كان مجتمعا تغلب عليه البداوة ، وأن هذا المجتمع قد تحول إلى

---

(1) معجم الوسيط القاهرة ١٩٦٠ تأليف إبراهيم مصطفى وآخرين ج ١ ٤٦ .

مجتمع الحضارة بعد الإسلام ولكن مجتمع البداوة يتوافر في كل زمان ، ففي فترة ما قبل الإسلام كان هناك مجتمع بدوي ، وبعد الإسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد الدولة الأموية والعباسية وحتى عصرنا هذا مازال هناك في قلب الصحراء مجتمع بدوي ، وقبائل المغول التى ظهرت في وسط آسيا وقبائل الهنود الحمر في أمريكا هي قبائل بدوية ومازال حتى عصرنا هذا يطلق على بعض القبائل لقب بدوية وعلى بعض الأفراد لقب بدوي .

سكان الصحراء المتنقلين دوما وراء مقومات الحياة ، يعيشون حياة لا استقرار فيها ، لديهم أعرافهم وتقاليدهم وقواعدهم الخاصة التى لا ترتبط بقانون دولة أو سلطة حكومة ، وهذه القبائل مازالت تعيش في الصحراء الكبرى بشمال أفريقيا وصحراء الجزيرة العربية، وفي صحارى دول الخليج مازال في " البر " الكثير من القبائل البدوية ، والبر هو اصطلاح يفيد معنى الصحراء وهذا لا يستخدمه إلا سكان السواحل ، ليميزوا بين البحر ومن يعملون به والصحراء ومن يجوبونها .

ويظن البعض إن البداوة لفظ اختص به العرب قبل الإسلام في العصر الجاهلي ، ويظنون أن الجاهلية صفة لازمة للبداوة ، والواقع أن الجاهلية والجاهلي تعبير يطلق على فترة زمنية فقط وهي فترة ما قبل الإسلام ، والجاهلي ليس من الجهالة وعدم الدراية والمعرفة ، ولكنها تعني الشدة والغلظة ، ويقصد بالعصر الجاهلي بالإضافة إلى كونه اصطلاح يدلل على فترة ما قبل الإسلام إلى أنه من الشدة والحمية التى كان العربي يتصف بها في ذلك العصر ، حيث الحياة القاسية التى تطبع الإنسان بطابعها ، فيسمى صخرا وحجراً وتأبط شرا وكليبا وعنترة وظالما وتأتى أخلاقه مماثلة لاسمه .

ونعل هذا يقودنا إلى إدراك ما يطلقه العرب من البدو في عصرنا هذا على الفتى السريع الانفعال القوى الشكيمة بكلمة " جاهل " أو " جهال " وهي لا تعنى عدم المعرفة بقدر ما تعنى عدم النمو والوصول إلى درجة التعقل .

إن البداوة والحضارة اصطلاحان يرتبطان بالمكان أكثر من ارتباطهما بالزمان ، فالبدوي هو من عاش في الصحراء ، صحراء الجزيرة العربية أو بادية الشام أو الصحراء الكبرى .

لقد عرف العرب البداوة والحضارة ، وكان منهم البدوي والحضري وظهرت فيهم حضارة الكلدانيين والآشوريين في الشمال وحضارة معين وسبأ وحمير في الجنوب ، وفي قلب الصحراء ظهرت مدن اللحيانيين وآل ثمود ومكة والمدينة .

كما كان المناذرة في الحيرة على أطراف بلاد فارس ، والغساسنة في الشام على أطراف الروم ، ينعمان بنوع من الحضارة .

إذن المفهوم واضح تمام الوضوح أمام العربي ، والبدوي يعرف أنه بدوي والحضري كذلك ، ويعتز كل منهما بما عليه .

اعتاد المؤرخون استخدام اصطلاح آخر مرتبط بالحضارة والبداوة وهو اصطلاح " الأعراب " وخاصة مؤرخو الفرس والترك والهنود من المسلمين، باعتباره مرادفا للبداوة ، وإطلاق هذا المسمي على سكان البادية .

والاصطلاح " أعراب " هو اصطلاح يفرق عن اصطلاح " عرب " فالأول يطلق على سكان البادية والثاني على الحضر ، وقد استخدمه كثير من الشعوبيين ومنهم أبو نواس .

هل يمكن اعتبار مصطلح بدواة مضادا لمصطلح حضارة أم أن هناك فروق واختلافات ؟ !! هذا ما سنستعرضه فيما يلي .

ثالثا : القبيلة العربية واصطلاح الحضارة

- يقول ول ديورانت إن الحضارة تتألف من عناصر أربعة :

١- الموارد الاقتصادية ٢- النظم السياسية

٣- التقاليد الخلقية ٤- متابعة العلوم والفنون

ويضيف إلى ذلك ركنا هاما وهو أن الحضارة تبدأ حيث ينتهي القلق والاضطراب .

ولو تتبعنا هذه الأسس التى وضعها ديورانت في وصفه للحضارة على القبيلة العربية لوجدنا أن بعضها يتوافق والبعض ينعدم وجوده .

١- الموارد الاقتصادية

القبيلة العربية لها مواردها الاقتصادية المتمثلة في الرعي والقنص والتجارة ، أما الرعي وهو المهنة والمصدر الرئيسي للدخل فانه يستوجب التنقل والترحال من مكان لآخر حيث لا تتوافر المراعى في أماكن واحدة ، بل في أماكن متباعدة ، ومع ذلك كان لكل قبيلة محارمها وحدودها المتعارف عليها ، إلا أن هذه الحدود تتباعد لمسافات طويلة قد تصل أياما في المسير ، كما أن ندرة الأمطار والماء قد أديا إلى ندرة العشب والكلأ وكانت هناك مواسم جذب وقحط ، كانت تؤدى أحيانا إلى ضياع الثروة الاقتصادية للقبيلة . أما القنص في البرية فهو أيضا مرتبط بتوافر العشب والماء حيث لا تتوافر الحيوانات البرية بشكل كثيف في قلب الصحراء وإنما كانت الحيوانات القابلة للقنص محدودة من حيث الأعداد والحجوم فهي ليست كثيرة العدد وليست كبيرة الحجم ، مما يجعل مهنة القنص مهنة وقتية ولا تمثل إيرادا ثابتا للدخل .

أما التجارة فقد وجدت في أماكن معلومة ولها طرقها ومدنها ولها قبائل معينة تقوم بها وبرعايتها وحراستها ، وقد شهدت هذه القبائل الممارسة

للتجارة نوعا من الاستقرار، وحققت مكاسب واسعة ونالت قسطا من الحضارة ومنها قبائل قريش في مكة واليهود في يثرب ٠

كانت الموارد الاقتصادية في قلب الصحراء العربية مرتبطة بما تجود به السماء من أمطار، ولذا لم تكن ثابتة ، كما أن هذا النشاط الاقتصادي كان قائما على التنقل والترحال ومن ثم لم يتحقق الاستقرار ٠

إن الركن الأول لقيام الحضارة قد انعدم في القبيلة العربية حيث أن النظام الاقتصادي للقبيلة لم يكن مستقرا إلا في عدد محدود من القبائل التى مارست التجارة ، ومع ذلك فإن بعض هذه القبائل قد انعدم فيها ركن آخر من أركان التحضر ٠

٢- النظم السياسية في القبيلة العربية

كانت القبيلة هي الوحدة السياسية هي الدولة وهي الكيان المستقل ، وكل قبيلة لها نفس الكيان ، ويختلف الأمر من قبيلة إلى أخرى حسب قوتها وصلابة أبنائها ، وأحيانا كانت القبيلة الصغيرة ترتبط بأخرى كبيرة لتضمن حمايتها أحيانا تتحالف القبائل فيما بينها ٠

كانت القبيلة مكونة من عدة أفخاذ أو بطون أو عشائر ، ويرأس القبيلة شيخ ، وهناك مجلس يرأسه شيخ القبيلة ويضم رؤساء البطون ، وشيخ القبيلة هو الرئيس الفعلي والحاكم الذي لا يرد قراره ٠

كان مجلس القبيلة بمثابة مجلس للشورى يضم جميع البطون وهو يتكون من كبار وأصحاب الحل والعقد ٠

النظام السياسي في القبيلة العربية في ظاهره قائم على المشورة ، ولكنه في الواقع نظام دكتاتوري يخدم فئة خاصة وهم علية القوم الذين يتحكمون في أمور القبيلة ٠

أما دستور القبيلة فهو دستور متعارف عليه قائم على العرف والعادات والتقاليد ، وهو دستور غير مكتوب ، وإنما يخضع لسلطان وسطوة شيخ القبيلة .

وكثيراً ما كان شيخ القبيلة ومجلسها يحكمون أحكاما جائرة على أحد أفراد القبيلة ، وحين لا ينفذ الحكم ، ويرفض المحكوم عليه ما صدر بشأنه، تخلعه القبيلة ، والخلع معروف بأنه يقع في حق الأشخاص الذين يرفضون أحكام القبيلة ويخرجون على قواعدها وإذا خلع فإنه يهدر دمه ، وتنتفي عنه صفة التابعية والولاية وحماية القبيلة ، وقد خلع كثيرون وكون المخلعون جماعات سميت باسم الصعاليك ، كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب وتوزيع أسلابهم على الفقراء والمحتاجين دون الاستئثار بها لأنفسهم ، وكأنما أرادوا أن يحققوا العدل بأسلوبهم بعيدا عن ظلم القبيلة ، وكان من هؤلاء الصعاليك شعراء مشهورين منهم عروة بن الورد والشنفرى وعمرو بن براق وتأبط شرا .

كان النظام السياسي في القبيلة العربية خاضعا لمعايير ومقاييس مقبولة أحيانا وغير مقبولة في أحيان كثيرة ، كان نظاما محكما إلا أنه لم يرق بالقبيلة إلى مستوى الدولة أو المملكة أو الحكومة ، ولم يرق بنظام القبيلة إلى مستوي النظم السياسية التى أقامتها الحضارات المعاصرة لهم .

٣- التقاليد الخلقية في القبيلة العربية :

شاعت في القبيلة العربية عادات وأخلاقيات جيدة وكريمة مثل الكرم والشجاعة والشهامة والمروءة ونصرة الضعيف ومع ذلك كان هناك عادات مذمومة وتقاليد بالية ، كان النظام الطبقي قائما ، عادات السلب والنهب والإغارة موجودة ، والتدافع من أجل الاستيلاء على محارم الآخرين من ماء وعشب وكلأ متوفرة ، كما كانت مجالس اللهو والشراب وعادة وأد البنات

من أسوأ العادات الاجتماعية وما يرتبط بها من سوء معاملة للمرأة وخاصة غير الحرائر منهن .

كانت الثروة تتركز في يد قلة من مشايخ القبائل ورؤساء البطون والعشائر بينما يعيش باقي أفراد القبيلة في ضنك من العيش ويعملون في دولاب القبيلة رغم أنفهم ولا يمكنهم المعارضة .

كانت النزعة القبيلة تطغى على النزعة القومية مما أدى إلى التناحر والتنافر بين القبائل وقيام المعارك والحروب بينهم واستمرارها إلى فترات طويلة تصل أحيانا إلى أربعين سنة كما حدث في الحرب بين عبس وذبيان وأيام العرب تشهد كثيراً من صراعهم القبلي المذموم .

كان لدى العرب في الجاهلية أخلاق حسنة وأخرى مذمومة إلا أن الأخلاق والسلوكيات الحسنة كانت تفوق كثيراً عما لديهم من مثالب سيئة ، ولعل هذه الأخلاقيات مرتبطة أكثر بالبيئة ، التى عاشوا فيها ومن ثم لا يقدرها إلا من عرف وقرأ وتعامل مع مثل هذه القبائل .

٤- العلوم والآداب عند القبيلة العربية :

عرفت القبيلة العربية كثيراً من العلوم والفنون والآداب عرفت الطب وعلوم النجوم والفلك والرياضات ، ولكنها لم ترصد ما عرفته من علوم تتعلق بالبيئة العربية فالطب وارتباطه بالحكمة كان معروفا ويسمى الطبيب حكيما ، وطبيب العيون يسمى كاحلاً وكان هناك أطباء لعلاج الإبل والغنم ، كما كانت علوم الفك والرياضيات والنجوم ضرورة تفرضها البيئة الصحراوية " وعلامات وبالنجم هم يهتدون " كما ورد في القرآن الكريم ، فالسير في الصحراء الحارة الرطبة ، ولذلك كان العربى خبيراً في معرفة النجوم ويعرف مواضع الدب الأكبر والشعري وسهيل وقد ذكر بعض النجوم في شعره .

أما من ناحية المعرفة والثقافة فلا أحد ينكر معرفتهم وتفوقهم في الآداب من شعر وخطابة، واشتهروا ببلاغتهم وفصاحتهم واشتهرت معلقات وأيـــام وقصص وأنساب العرب.

لقد بزوا الأمم جميعها في فن الشعر ، واشتهر عددهم اشـــتهارا يفـــوق أشعار الأمم القديمة كلها في حرفة النظم والسبك وقد اشـــتهرت الأســـواق كأماكن لنشر الشعر والخطابة، وكمكان لتجمع ثقافي .

أما من الناحية الدينية فقد انتشرت بينهم الديانات السماوية كاليهوديـــة (في يثرب واليمن) والمسيحية (الغساسنة) وظهر الأحناف في الصوامـــع المنتشرة في الصحراء .

والغالبية من العرب كانوا عبدة أصنام ، ولقد كانت عبادتـــهم للأصنـــام والأوثان في أبسط صورها ، لم يعبدوا آلهة لها جذور في التاريخ ، لم تكـــن عبادتهم الوثنية قائمة على فلسفة وأصول كالتى عنـــد اليونـــان والفـــرس والهنود .

كان العرب يعبدون ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا واللات والعـــزى ومناة وهبل واساف ونائلة ، مع هذا كان العربي ينتقل من عبادة اله إلـــى آخر ، وبمعنى آخر ينتقل من عبادة صنم إلى صنم آخر دون خوف أو فـــزع من انتقام الأول ، ولم تخرج قداسة الأصنام عن كونها مجرد عون ، ومجرد أدوات يتوسلون بها إلى رب الكعبة .

كانت الكعبة تمثل رمزا للتجمع الديني لجميع العرب ، وكانت القبائل تأتى بأصنامها وتضعها حول الكعبة ، وتطوف وتسعى ، كانت الكعبة هي الموحـد الوحيد للعرب ، وكان لها قداستها في قلوبهم جميعا ! .

لم يتخلف العرب عن ركب الفنون والعلوم والآداب ، وكان لهم دور بارز في الثقافة الإسلامية .

لو تتبعنا العناصر الأربعة السابقة لوجدنا أن القبيلة العربية كـــان مـــن الممكن أن يتحقق لها التحضر لو توافر لها عنصر الاستقرار ، لأن بتوافـوه يتوافر الأمن والأمان وتتجه العقول إلى الإبداع والبناء .

كانت الخيمة هي البيت وهي الوطن ، وكان من السهل فك هذه الخيمـــة ونقلها من مكان لآخر ، كان العرب يعيشون حياة تنقل وترحال ، ومن ثم لم يتيسر لهم بناء الحضارة .

وعندما تيسر للعرب الاستقرار بعد مجئ الإسلام وانتقالهم إلـــى البـــلاد المفتوحة ، استطاعوا بناء الحضارة بمشـــاركة العنـــاصر الأخـــرى التـــى امتزجوا بها .

رابعاً : القطوف الدانية للحضارة الإسلامية في اللغة العربية

إن الحضارة الإسلامية كل لا يتجزأ ، وتراثها المادي والروحي ليس ملكا لأمة دون غيرها ، فالكل أسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في إنتاج هذه الحضارة .

ولو أردنا بذلك ضرب مثل فليكن كليلة ودمنه ذلك الكتاب الذي يعود إلى أصول هندية، ترجمه الفرس إلى البهلوية فأخذ تأثيرا آخراً ، ثم انتقل إلى العربية ، وبذلك أسهم في إنتاج هذا الأثر الحضاري الهنود والفرس والعرب، وقدموه باسم المسلمين إلى العالم كله، ليشتهر قصص الحيوان في الآداب العالمية .

وفي فن العمارة نجد تأثيرا هنديا في كثير من الآثار الإسلامية ممثلاً في القباب البصلية ، وهذا التأثير الهندي قام به مهندسون من الفرس والعرب، وأضافوا لمساتهم الحضارية ، وامتزجت الفنون الهندية مع الفارسية مع العربية ، فالقباب هندية والأعمدة فارسية والزخارف عربية .

وفي مجال العلوم الشرعية والدينية والعربية والأدبية كالفقه وعلم الحديث وعلوم القرآن وعلم النحو والبلاغة والبيان والبديع وكتب الأدب فهي ذات مضمون عربي ، ولكن التنسيق والتكوين والبناء والتأصيل جاء على شاكلة ما عند أمم أخرى من علوم ، فهذه العلوم كانت معلومة ومعروفة عند العرب ولكنهم لم يدونوها على مناهج وقواعد إلا بعد اختلاطهم بالفرس فأسهم الآخرون في إبداع هذه العلوم ، لتنسب جميعها إلى الحضارة الإسلامية .

ومقصودنا بالقطوف الدانية في علوم اللغة العربية هو ذكر العلوم التي كتبت بالعربية في مجال اللغة العربية والعلوم الدينية ، باعتبار أن اللغة

العربية المصدر الأول الذي كتبت به الآثار الإسلامية ، وباعتبار أن الكتابة في حد ذاتها مظهر حضاري لأي أمة ، وأن النتاج العلمي والأدبي ما هو إلا جزء من النتاج الحضاري ، وبذلك يكون حديثنا عن القطوف الدانية في علوم العربية والدينية قد غطى جزءا يسيرا من تراث أمتنا الإسلامية .

وسوف استعرض في هذا الفصل العلوم الدينية مثل : علوم القرآن وعلوم الحديث وعلم الرجال والسير وعلم التوحيد والملل والنحل وعلم التصوف والفلسفة .

أما في علوم العربية فسوف استعرض علم اللغة وعلم النحو وعلم البلاغة وعلم الأدب .

وفي الفصل الرابع سوف استعرض ما كُتب باللغات الإسلامية في الفارسية والتركية والأردية حتى نلم بطرف من تراث المسلمين .

أولاً : العلوم الدينية والشرعية

لقد حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى فقد كُتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة في تلك العصور باللغة العربية التى كانت من منتصف القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر – لغة العلم للجنس البشرى والحق أنه كان ينبغي لأي إنسان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل كثيرون من غير المتكلمين بها .

عندما كان القرآن الكريم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم كان المسلمون يعرفونه ويدركون معناه بالسليقة الفطرية ، وإذا ما استشكل عليهم أمر سألوا فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك كان هناك من لا يعرفون العربية وأصولها على درجات متفاوتة .

وكان بعض المسلمين يصاحب النبى في حله وترحاله والبعض الآخر مشغول بأمور أخرى . ولا يرى النبى إلا في الصلوات أو في أوقات

متباعدة، ومن ثم فإن إدراكات وفهم هؤلاء للدين مختلفة عن المصاحبين للنبي صلى الله عليه وسلم دائما .

كما أن العرب كانوا قبائل ولكل قبيلة عاداتها وتقاليدها وثقافتها ، وهناك عادات وتقاليد عند قبيلة تختلف عن أخرى وكذلك في لهجة كل قبيلة عن الأخرى .

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى معارف اليهود والنصارى ، وهي معارف لم يكن العرب على إلمام بها ، ومن ثم احتاج العرب إلى تفسير ومعرفة هذه الأمور .

هذه هي بعض الدواعي التي دعت المسلمين إلى كتابة علوم تتعلق بالتفسير وأسباب النزول ومعرفة الناسخ والمنسوخ وإعراب القراءات وذكر فضائل القرآن ومجازه وهي ما نسميه علوم القرآن .

كما أنهم عملوا على جمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وشروحها ، وسميت باسم علوم الحديث .

وهناك علوم أخرى ارتبطت بالعلوم الدينية كالسير والفقه وأصول الفقه والتوحيد والملل والنحل والفرق والتصوف والفلسفة ،وهي كلها لها علاقة بالدراسات الدينية .

أ- علوم القرآن

أعتني المسلمون بعلم أسباب النزول وعلم المحكم والمتشابه وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم إعجاز القرآن وإعرابه والقراءات والتفسير وفضائل القرآن ومجازه وقام العلماء باختصار هذه المعارف ومنها ما كتبه السيوطي في كتابه " الإتقان في علوم القرآن " .

كانت الآيات القرآنية تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في الغالب مرتبطة بالحوادث أو جوابا لأسئلة أو طمأنة للمسلمين ولمعرفة هذه

الحوادث والأسئلة والظروف والأشخاص والمعنيين بالحوادث وضع علم يبحث في أسباب النزول .

ومعرفة أسباب النزول أمر هام وضروري لما له علاقة بتفسير الأحكام والعبادات والمعاملات ومعرفة الحلال والحرام ولضرورته بالنسبة للفرد والأحوال الشخصية والحقوق المدنية .

ومن أهم علوم القرآن :

١- علم أسباب النزول : وأهم كتبه - لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطى المتوفى ٩١١هـ .

٢- علم الناسخ والمنسوخ : وهو يتعلق بالآيات التى نزلت ثم نسخت وعدلت الأحكام وأهم كتبه : الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لأبى جعفر النحاس المتوفى ٣٣٨ هـ .

٣- أعجاز القرآن : الإعجاز أنواع فه[illegible] إعجاز بياني لغوى وإعجاز علمي وإعجاز غيبي وإعجاز تشريعي ؛ أهم الكتب في مجال إعجاز القرآن : نظم القرآن للجاحظ وإعجاز القرآن للواسطى وإعجاز القرآن للرماني والباقلانى ودلائل الإعجاز للجرجانى .

٤- علم التفسير: احتاج المسلمون إلى التفسير لمعرفة معاني القرآن الكريم بعد دخول أجناس أخرى إلى الإسلام ، ودخول اللحن في اللغة والتفسير أنواع : -

أ- تفسير بالمأثور وهو تفسير بما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته والخلفاء وأهم كتبه : جامع البيان في تفسير القرآن للطبري م٣١٠ هـ في ثلاثين جزءا فقد سار على دربه في تفسير القرآن ابن كثير متوفى ٧٧٤ هـ في كتابه : تفسير القرآن العظيم ، ويمتاز ببساطة العبارة ودقة الإسناد .

ب- التفسير بالرأي ويعتمد على الرأي والاجتهاد في التفسير وأهم التفاسير: مفاتيح الغيب للرازى متوفى ٦٠٦ هـ ، وتفسير البيضاوى المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى م: ٦٨٥ هـ .

جـ - تفاسير المعتزلة وهم فرقة تستند إلى العقل والمنطق والفلسفة في التفسير ومن أهم تفاسيرهم : اكتشاف حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشرى متوفى ٥٣٨ هـ . وكذلك تفاسير القاضي عبد الجبار والشريف المرتضى .

د- تفاسير الصوفية : وأهم تفاسيرهم تفسير محيى الدين بن عربي المتوفى ٦٣٨ هـ وتفاسير التسترى وروزبهان والكاشاني والبيانانكى .

هـ - تفسير بالرأي والمأثور وأهمها : مجمع البيان في علوم القرآن للطبرسي متوفى ٥٤٨ هـ في عشرين جزءا .

و- التفسير بالرأي المحمود : وأهم التفاسير هي تفسير النسفى وتفسير السيوطى وتفسير النيسابورى .

ز- تفسير الأمامية : وأهمها تفسير عبد اللطيف الكازرونى وتفسير الحسن العسكري وتفسير الكاشى وتفسير الخراسانى .

ح- تفسير الزيدية : وأهمها تفسير الشوكانى .

ط- تفسير الخوارج : وأهمها تفسير محمد بن أسفيش .

ى - تفاسير الفقهاء ، وأهمها تفسير الطبرى وتفسير القرطبى .

وهذه التفاسير تشمل أكثر التفاسير التى ظهرت منذ القرن الثالث الهجري وحتى القرن الثامن الهجري وهناك تفاسير أخرى في العصر الحديث للشيخ الشعراوى والصابوني ومصطفي محمود .

ب- علم الحديث

السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن ، ولهذا أهتم المسلمون بعلوم الحديث ، فقاموا بجمع الأحاديث النبوية الشريفة وشرحها .

وأهم كتب الأحاديث النبوية الشريفة :

- صحيح البخاري لأبى عبد الله البخاري ، وصحيح مسلم لمسلم بن الحجاج، وسنن الترمذى لأبى عيسى الترمذى ، ومسند ابن حنبل للأمام أحمد بن حنبل ، ونيل الأوطار للإمام الشوكانى وفتح الباري في شرح البخاري لابن حجر العسقلانى ، وتأويل مختلف الحديث لابن قتية الدينورى، ومنهاج السنة لابن تيمية ، ومعرفة علوم الحديث للحاكم النيسابورى وتدريب الراوي لجلال الدين السيوطى وهدى الساري في مقدمة فتح الباري لابن حجر العسقلانى .

جـ - علم السير والرجال

سجل المسلمون أخبار النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء الراشدين والصالحين من العلماء والفقهاء ، وكان أبان بن عثمان بن عفان متوفى ١٠٥ هـ وعروة بن الزبير متوفى ٩٤هـ ومحمد بن مسلم الزهري متوفى ١٢٤ هـ ومحمد بن اسحق متوفى ١٥٠ هـ ومحمد بن عمر الواقدى متوفى ٢٠٧هـ من رجال السيرة النبوية الشريفة وتبعهم ابن هشام .

ومن أهم الكتب في الرجال والسير :

- الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن على العسقلانى .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزرى .
- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى .

- لسان الميزان لابن حجر العسقلانى .
- خلاصة تهذيب الكمال لصفى الدين الخزرجى .
- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى .
- طبقات الشافعية لابن هداية الله الحسينى .
- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون السعادة .
- نيل الابتهاج لأحمد بن بابا البتنكى .
- الفهرست لابن النديم .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى .
- شذرات الذهب للمسعودى .
- طبقات المفسرين للسيوطى .
- وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى .
- معجم الأدباء لياقوت الحموى .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى .
- بغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطى .
- أعيان الشيعة لمحمد الأمين الحسيني .

د- علوم التوحيد والملل والنحل

سجل المسلمون علوم التوحيد والملل والنحل الإسلامية وغير الإسلامية فكان من بين ما سجلوه :

- الفرق بين الفرق للبغدادي .
- الفصل بين الملل والنحل لابن حزم الأندلسي .
- الملل والنحل للشهرستانى .
- فضائح الباطنية للغزالى .
- الوشيعة في عقائد الشيعة لموسى جاودان .

هـ - علوم التصوف والفلسفة

ظهرت علوم تتعلق بالدراسات الدينية ومنها علوم الصوفية وعلم الكلام والفلسفة ، وسجل المسلمون تراثهم في التصوف وعلم الكلام والفلسفة ومنها :

- الفتوحات المكية لابن عربي .
- فصوص الحكم لابن عربي .
- إحياء علوم الدين للغزالى .
- تبليس ابليس لابن الجوزى .
- الرسالة القشيرية للإمام القشيرى .

وكان من أعلام الفلسفة الإسلامية الكندي المتوفى ٢٥٧ هـ ، والفارابي المتوفى ٣٣٩ هـ ، وابن سينا المتوفى ٤٢٨هـ ، وابن رشد المتوفى ٥٢٣هـ ولهم مؤلفات عديدة منها مؤلفات ابن سينا في النفس وله عدة رسائل وجامع البدائع .

كما أن رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا كان لها دور بارز في الفكر الفلسفي الإسلامي .

أما علم الكلام الذين نشأ تحت عباءة المعتزلة منهم واصل بن عطاء المتوفى ١٣١ وبشر بن المعتمر متوفى ٢١٠ هـ وإبراهيم بن سيار متوفى ٢٢١ هـ والهذيل بن العلاف متوفى ٢٢٦ هـ والجاحظ متوفى ٣٥٥ هـ .

أما علم الأخلاق فكان الإمام الغزالى وابن مسكويه على رأس هذا العلم ومؤلفاتهم كثيرة في هذا الجانب .

ثانيا : علوم اللغة العربية :

لغة أي أمة هي عنوان حضارتها وتعبير عن عقليتها ، وكلما كانت اللغة غنية في تركيباتها وفى مصطلحاتها وألفاظها كلما كانت لغة ذات حضارة .

اللغة العربية غنية بنحوها وصرفها وبلاغتها ولعلها أغنى لغات العالم ، وهى صالحة لأن تكون قالبا للمعارف بكافة أنواعها .

صارت اللغة العربية بعد ظهور الإسلام لغة الدين والفكر وصارت بذلك خير من يُعبر عن الحضارة والثقافة .

وعلوم العربية هي علم اللغة والنحو والصرف والأدب والبلاغة وسوف أستعرض كل علم من هذه العلوم .

أ- علم اللغة

بدأ العلماء منذ بداية نهضتهم الثقافية بعد الإسلام بجمع وترتيب ألفاظ اللغة العربية ، واستمرت جهودهم خلال القرون الأولى وأخذوا يجمعون ألفاظ اللغة العربية من عدة مصادر :

١- القرآن الكريم . ٢- الشعر الجاهلي . ٣- أعراب البادية .

أما القرآن الكريم والشعر الجاهلي فكانا في متناول يدهم أما أعراب البادية فكان لابد من السفر إلى البادية لمعرفة أو التأكد من بعض الألفاظ ، فقد كان أسلوب الثقاة منهم الذهاب إلى البادية والأخذ عن لسان سكانها ، وقد انقسم اللغويون إلى مدرستين لغويتين هما : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة وكانت الأولى تهتم بالقياس والثانية تهتم بالسماع والاعتماد على الروايات المنقولة عن الأعراب .

قام اللغويون بتسجيل وتدوين ألفاظهم في رسائل وكتب منها كتب الأصمعي - كتاب الإبل - وكتاب الخيل - وكتاب النخيل ومنها كتاب خلق الإنسان لأبى اسحق الزجاج متوفى ٣١١هـ .

وقام الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى ١٧٠ هـ بوضع معجم أسماه كتاب العين ، وقد رتبه تبعا لمخارج الحروف من الحلق فاللسان فالشفتين ، وبدأ بحرف العين وهو أفضل الكتب اللغوية .

وتبع الخليل بن أحمد آخرون في وضع المعاجم اللغوية منهم :

- أبو بكر محمد بن الحسن الأزدى صاحب كتاب الجمهرة في اللغة وهو مرتب على حروف الهجاء .
- الأزهري المتوفى ٣٧٠ هـ صاحب التهذيب وهو مرتب على نظام كتاب العين .
- ابن فارس متوفى ٣٩٠ هـ صاحب المجمل .
- الجوهري متوفى ٣٩٨ هـ صاحب الصحاح وقد لخصه الرازى باسم مختار الصحاح وهما مرتبان حسب الحرفين الأول والأخير من الكلمة .
- ابن سيدة الأندلسي متوفى ٤٥٨ هـ صاحب المحكم والمخصص أما المحكم فهو معجم كبير مرتب على نظام كتاب العين أما المخصص فمواده مرتبه حسب مواضيعها ومعانيها وليس تبعا للحروف .
- ابن منظور متوفى ٧١١ هـ صاحب لسان العرب وهو أكثر من معجم فهو كتاب لغة ونحو وصرف وأدب وفقه وشرح للحديث وتفسير للقرآن ويقع في عشرين مجلدا .
- الفيروزابادى متوفى ٨١٧ - صاحب القاموس المحيط وشارحه السيد مرتضى الزبيدى المتوفى ١٢٠٥ هـ صاحب تاج العروس في شرح جواهر القاموس .
- وتتابع بعد ذلك تأليف وتبسيط المعاجم وفي العصر الحديث تم تبسيط المعاجم في المعجم الوسيط الصادر من مجمع اللغة العربية بالقاهرة في جزئين سنة ١٩٦٠ ، كما أن هناك جهودا في تأصيل الألفاظ قام بها أحمد تيمور باشا .

ب- علم النحو والصرف

هو العلم الذي يتناول قواعد اللغة .وبه تعرف أحوال الألفاظ من الإعراب والبناء .

لم يكن العرب في الجاهلية في حاجة إلى علم النحو ، فهم يتكلمون اللغة بالسليقة والفطرة ، ويتحكمون فيها ، فلما جاء الإسلام للناس كافة ، ودخلت أمم غير عربية اللسان في الإسلام ، بدأ الفساد واللحن يشيعان في اللغة العربية ، وبدأ الخطأ واللغط يظهران في قراءة القرآن الكريم ، لهذا بدأ المسلمون في وضع علم لقواعد اللغة ولضبط الكلام .

لقد وجه الإمام على نظر أبا الأسود الدوءلى المتوفى سنة ٦٠هـ لوضع قواعد النحو، فقام باعجام اللغة وهو وضع النقاط على الحروف ، وسمى اعجاما لأن هذه النقط لم تكن معروفة إلا عند العجم ، وكذلك وضع أبو الأسود علامات الإعراب من فتحة وكسرة وضمة وسكون .

ظهرت عدة مدارس نحوية أهمها :

أ- مدرسة البصرة وكانت تهتم بالقياس وتهمل الشواذ .

ب- مدرسة الكوفة وكانت تهتم بالرواية والسماع وكانوا يقبلون ماشذ من اللغة طالما سمعوه من العرب .

جـ - مدرسة بغداد وهى مدرسة توفق بين المدرستين السابقتين وقد قامت متأخرة عنهما .

ومن أشهر علماء مدرسة البصرة في النحو أبو الأسود الدوءلى مؤسس هذا العلم والخليل بن أحمد الفراهيدى ويونس بن حبيب وسيبويه المتوفى ١٧١ هـ صاحب كتاب " الكتاب " وهوكتاب غير مسبوق جمع فيه كل مسائل النحو (أنظر مقدمة كتابنا : الألفاظ الفارسية في كتاب سيبويه) ومن مدرسة البصرة أيضا المبرد متوفى ٢٣٥ هـ صاحب الكامل فى الأدب .

ومن علماء مدرسة الكوفة الرواسي المتوفى ٢٣٥هـ ومؤسس هذه المدرسة وغلب على أعمالها النواحي الصرفية ، والفراء المتوفى ٨٠٧ والكسائى .

ومن النحويين في بغداد ابن جنى المتوفى ٣٩٢ هـ وله عناية خاصة بالصرف ، والزمخشرى المتوفى ٣٥٩ هـ وهو أديب ومتكلم معتزلي وله المفصل في النحو وقاموس أساس البلاغة ومنهم جمال الدين بن الحاجب المتوفى ٦٤٦ هـ صاحب الكافية في النحو وابن مالك الأندلسي المتوفى ٦٧٢ هـ صاحب الألفية .

جـ - علم البلاغة

أهتم المسلمون بدراسة جماليات اللغة ، وتوسلوا بالنقد لابراز حسن العبارة وجمال الصورة وجودة النظم ودقة السبك ، وساروا في إبراز محاسن الشعر والنثر وبيان معانيه وما فيه من بديع إلى درجات عالية ، وكان الهدف من ذلك إبراز مواضع الإعجاز في القرآن الكريم .

ومن أهم البلاغيين الجاحظ صاحب البيان والتبين وقد جمع فيه مسائل البلاغة والبيان والنقد وعنى بالقواعد البلاغية والخطابية والشعر ، واختار من كلام العرب ما يؤيد رأيه ووضع الجاحظ خصائص الأسلوب الجيد في الخطابة والرسائل والقصص والشعر .

بالإضافة إلى الجاحظ هناك ابن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ صاحب كتاب البديع ، وقدامه ابن جعفر متوفى ٣١٠ هـ صاحب نقد الشعر وأبو هلال العسكري متوفى ٣٩٥ هـ صاحب كتاب الصناعتين في النظم والنثر .

ومن أشهر من ألف في البلاغة عبد القاهر الجرجانى متوفى ٤٧١ هـ صاحب أسرار البلاغة وكتاب دلائل الأعجاز ، وأبو يعقوب السكاكى متوفى ٦٢١ هـ صاحب مفتاح العلوم ، وضياء الدين بن الأثير متوفى ٦٣٧هـ صاحب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .

د- علوم الأدب

الأديب والمثقف شخص واحد وهو معروف عند العرب بأنه الشخص الذي يعرف طرفا من كل علم ، فالأديب لم يقتصر علي واحد من الأدب فهو أديب لغوى مؤرخ جغرافي .

اهتم العرب بالشعر واعتبروه ديوان العرب وخزانة حكمتهم ومستنبط آدابهم ومستودع علومهم ولهذا سجل المسلمون ما ورد إليهم من شعر جاهلي منقول شفاهة عن طريق الرواة ، وقد تكونت سلاسل من الرواة للشعر الجاهلي وكان كثير من الشعراء رواة قبل قرضهم للشعر .

– وضع المسلمون الشعر الجاهلي في مجموعات أهمها :

أ- المعلقات

وهى أقدم ما بقي لنا من شعر جاهلي وهى سبع قصائد طوال لشعراء جاهليين مشهورين ، جمعها حماد الراوية المتوفى ١٥٦ هـ وسماها السموط أو المعلقات ، وقد تم شرحها بعد ذلك على يد التبريزى باسم المعلقات العشر إذ أضاف إليها ثلاثاً ، وعند الزوزنى سبع معلقات وهى لامرئ القيس وعنترة بن شداد وزهير بن أبى سلمى وطرفة ابن العبد ولبيد بن ربيعة والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم .

ب- الأصمعيات :

– جمعها الأصمعى وتشمل ٧٢ قصيدة لواحد وستين شاعرا .

جـ – المفضليات

مجموعة شعرية جمعها المفضل الضبى المتوفى ١٦٤ هـ وأسماها " كتاب الاختيارات" ولكنها عرفت بالمفضليات نسبة إلى جامعها وهى تضم ١٢٠ قصيدة لسبعة وستين شاعرا منهم ٤٧ من الجاهليين و ١٤ من المخضرمين و ٦ من الإسلاميين .

د- جمهرة أشعار العرب لأبى يزيد القرشي

هـ - الحماسيات :

- حماسة أبى تمام المتوفى ٢٣١ هـ وحماسة البحتري المتوفى ٢٧٤ ٠

و- الشعر والشعراء ٠

الشعر والشعراء لابن قتية الدينورى

ز- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ٠

ح- شعر مفرق ٠

وهناك أشعار مفرقة وردت في الأغاني للأصفهانى ومعجم الأدباء لياقوت الحموي والعقد الفريد لابن عبد ربه ومروج الذهب للمسعودى وغيرهم من الأدباء والمؤرخين ٠

تطور الشعر العربي وانتقل من حال إلى حال خلال العصور الإسلامية ، وظهر فحول من الشعراء لا يقلون جودة عن شعراء ما قبل الإسلام ولكن اختلف الشكل والمضمون وتنوعت الأساليب وألوان البيان والبديع ، ووجد من يضارع عنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة من أمثال البحتري وأبى تمام والمتنبي ٠

أما في مجال النثر فقد ألف المسلمون الرسائل والكتب وظهرت أنماط نثرية متعددة كالخطب والأحاديث والأخبار التاريخية وأيضا المقامات ، ومن كبار رجال الكتابة في العصور الإسلامية الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع وأبو حيان التوحيدي وابن العميد والصاحب بن عباد ٠

وظهر من الرسائل نوعان : الرسائل الرسمية والرسائل الاخوانية أما الرسمية أو الديوانية فكان من اشهر كتابها عبد الحميد الكاتب والحسن بن سهل والصابى وابن العميد والصاحب بن عباد وضياء الدين بن الأثير ، أما الاخوانية اشتهر فيها الجاحظ والخوارزمي وبديع الزمان وابن زيدون ٠

كما كانت الخطابة فن نثرى اشتهر في العصر الأموي والعباسي ووردت نماذج من كتب الأدب ،

لقد أسهمت العلوم الدينية والعربية في ازدهار الحضارة الإسلامية خلال عصورها المختلفة ،

الفصل الرابع

الفرس والإسلام

الفرس جنس آرى هاجر من وسط آسيا ،واستقر في الأرض الواقعة على تخوم الحيرة وبلاد الرافدين ، حيث كانت تقطن قبائل عربية .

والآريون هم الجنس المعلوم لنا لكن بلاد فارس أقام بها أجناس أخرى كالعيلاميين الذين سكنوا جنوب غرب إيران والكادوس والكاسيون والتبورى، ولكن أهم هؤلاء هم العيلاميون .

خضع العيلاميون أحيانا لسلطان السومريين الذين ينسبون للجنس السامي ، واختلطت معالم حضارتيهما التى استمرت حتى القرن السابع قبل الميلاد .

قامت عدة حضارات في إيران منها حضارة الأكمينيين والبارثيين والساسانيين ، فقد أسس قورش دولة الأكمينيين في إيران واستولى على بابل وآسيا الصغرى ووصل إلى حدود نهر السند وبلاد ما وراء النهر واستولى على الشام ، وقاد قمبيز ابنه حملة إلى مصر واستولى عليها .

أقام الأكمينيون حضارة زاهرة مازالت أثارها باقية حتى الآن وقد أخذوا بعض المؤثرات الفرعونية من مصر عقب غزوة قمبيز ، كما تأثروا بحضارة بابل وآشور واليونان .

تضمنت حضارة الأكمينيين نظما سياسية واقتصادية تمثلت في تقسيم البلاد إلى أقسام إدارية واقتصادية . كما تمثل في وضع نظام سياسي على رأسه الملك .

أما في المجال الثقافي فقد استخدموا الكتابة على الأحجار بالخط المسماري وعلى ألواح الطين ، وسجلوا الفرامين الملكية التى وصل إلينا بعضها .

أما في مجال العمارة فقد عثر على آثار من القصور والمقابر والخزف تبين وجود حضارة عريقة ، وما عثر عليه مقبرة قورش وتخت جمشيد وآثار بيستون وأعمدته الرائعة .

وبعد سقوط الدولة الأكمينية على يد الإسكندر الأكبر ، قامت دولة السلوقيين التي حكمت إيران وبلاد الشام ،وامتزجت في عهدهم الحضارة الشرقية بالحضارة اليونانية ونتج عنهما ما نسميه بالحضارة الهلينيستية .

تفوقت الحضارة اليونانية على الأكمينية ، وأقيمت حضارة تعتمد على حضارة اليونان أكثر من اعتمادها على حضارة الفرس .

وقامت حضارة الاشكانيين عقب اضمحلال السلوقيين ،وامتد نفوذ أصحابها إلى الشام والهند .

وجاء الساسانيون آخر الدول الفارسية المستقلة قبل الإسلام وينسبون إلى آل ساسان كاهن معبد اصطخر ، بل يمتد تاريخهم إلى الانتساب للأكمينيين .

أسس دولة الساسانيين أردشير بن بابك ، وبسط نفوذه على كل بلاد فارس ، وتوج نفسه ملكا في تيسفون (المدائن) رسميا سنة ٢٢٦م.

تعاقب على عرش الساسانيين ملوك عظام كان أهمهم شابور الأول الذي خلف أردشير وظلت دولته قوية في مواجهة الروم إلا أنه بعد وفاته ضعفت دولة آل ساسان بسبب الاضطرابات التى عمت البلاد من الداخل ، وهجمات الروم من الخارج حتى عهد شابور الثاني بن هرمز الثاني ، وقد حكم سبعين سنة ، وبسبب هجوم العرب على تخوم بلاده قاد جيشا لتأديبهم ،

وقتل منهم الكثير ، وقد اشتهر بين العرب باسم شابور ذى الاكتـــاف عنـد العرب كما وقعت حروب ضارية بينه وبين قيصر الروم .

ويعد خسرو الأول الملقب بأنوشيروان (أنوشه روان - الروح الخالدة) أشهر ملوك الساسانيين ، فأعاد لدولة الساسانيين مجد الأجداد المحتضـر ، ووضع نظما سياسية وإدارية واقتصادية ،وأمتد نفوذه إلى الشام وأرمينية ، وعقد الصلح مع الرومان مقابل مبالغ كبيرة كان يأخذها منهم .

وعقب وفاة أنوشيروان تدهورت أحوال الساسانيين وتوالى على الحكـم ملوك ضعاف ، وانتشر الفساد السياسى في البلاد مما مهد الطريـــق أمـام العرب المسلمين .

الحياة الدينية في عهد الساسانيين

في عهد الساسانيين انتشر الدين الزرادشتى ،وقد صـار دينـا رسـميا للدولة ، وكان زرادشت مؤسس الديانة صاحب كتاب الأوستا المعروف فـي العربية بالابستاق ، قد دعا إلى ديانة قائمة على وجود الهين هما اله النـور أو الخير أو " أهورامزدا " واله الشر أو الظلام "أهريمن " .

وقد وقع كتاب الأوستا الذى دون فيه زرادشت معـالم دينـه فـي يـد اليونانيين وترجموا جزءا منه في الطب والنجوم ثم أحرقـوه كمـا أحـرق الأسكندر من قبل نسخة منه .

ومن الأديان التى شاعت في العصر الساسانى الدين المانوى ومؤسسـه مانى الذى ولد قرب بابل ، ودعا إلى دين يؤمن بالخير والشر ، ويـرى أن الشر دائما موجود وسيظل دائما ، والإنسان وكل الكائنات مركبة من الشـر والخير ، وقد ألف كتابا أسماه " أرزنـك أو أرتنـك" وقد قتله بـهرام الأول سنة ٢٧م تحت ضغط الكهنة الزرادشت .

كما شاع المذهب المزدكى ، ومزدك هو أحد أبناء خراسان ومذهبه قريب من مذهب مانى ، يؤمن بالنور والظلمة ،ويعتقد أن العالم مكون من ثلاثـة

عناصر هي النار والماء والتراب ، ومن أهم تعاليمه منع قتل الحيوانات ، وقد سجن ومات .

الحياة العلمية الفارسية قبل الإسلام

نظرا لقلة المعلومات عن الحضارات السابقة للعهد الساسانى نكتفي بالحديث عن آخر هذه الحضارات التى أقامها الفرس والتي كان لها تأثير مباشر على الحضارة الإسلامية .

في عهد الساسانيين انتشرت المدارس وكان منها مدرسة جنديسابور " كندى شايور " الواقعة بالقرب من شوش ، وفيها كانت تدرس الرياضيات والطب والنجوم ، وترجمت الكتب الدراسية من اليونانية والهندية إلى البهلوية ، وكان أغلب المدرسين غير إيرانيين، وقد التحق بهذه المدرسة الشاعر العربي والطبيب الجاهلي الحارث بن كلدة ، والذي اشتهر في الجزيرة العربية بمعرفته بطب الإبل والناس ، وتعلم قصص الفرس ، وكان ابنه النضر بن الحارث يلاحق النبي صلى الله عليه وسلم بقص هذه القصص على العرب ليصرفهم عن سماع النبي .

اهتم الإيرانيون في عهد الساسانيين بالرياضيات والنجوم واقتبسوا كثيرا من علوم الصينين والكلدانيين واليونانيين ..

أما كتب الحكمة فقد ذكرها المؤرخون وقالوا أنها كانت منتشرة في العهد الساسانى ، ولكن العرب المسلمين أهملوها بعد فتحهم لبلاد فارس ، ويقول بعضهم أنهم أحرقوها ، وهو قول لا سند له ، ويدحضه وجود كتب في الحكمة مثل الاوستا وكليلة ودمنة وآنين نامه وكتاب التاج والأدب الصغير والأدب الكبير .

لقد قامت علاقات بين العرب قبل الإسلام ، علاقات سياسية تمثلت في علاقة الفرس بالمناذرة في الحيرة ، وعلاقتهم بسيف بن ذى يزن ملك اليمن واستقرارهم فيها حتى ظهور النبى صلى عليه وسلم حيث كان سيف قد

استقدمهم لطرد الأحباش ، فساعدوه على طردهم ، ثم ظلوا يرسلون الـولاة لحكم اليمن ٠

كما قامت علاقات تجارية بين العرب والفرس تمثلت في رحلـة الشـتاء التى كانت القوافل العربية تلتقي مع الفارسية في الشام وفي دومة الجنـدل وفي العراق ٠

أما العلاقات الاجتماعية فكانت قائمة على الجوار حيث كان العرب فـي الحيرة يقطنون على تخوم بلاد فارس ، وقد شـارك العـرب الفـرس فـي احتفالاتهم في أعياد الزواج وفي الأتراح والأفـراح وفـي عيـد النـوروز والمهرجان ٠

أما في النواحي الثقافية فكان بعض الفـرس يرسـلون أبنـاءهم إلـى الصحراء لتعلم سجايا العرب مثلما فعل كسري مع أبنه بهرام جور ، وكـان العرب يلتحقون بمدرسة جند يسابور للتعلم ٠ مثل الحارث بن كلدة ولقيـط ابن يعمر الأيادي مترجم شابور ذي الأكتاف لقد قام العرب بفتح بلاد فـارس سنة ٢٦ هـ بعد معارك ضارية انتهت بمعركة نهاوند في عهد عمـر بـن الخطاب ، وقتل فيها يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين ، وبدأ الفـرس يقبلون على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية ٠

وقام أصحاب اللسانين بترجمة الكتـب الفارسـية المؤلفـة فـي عـهد الساسانيين إلى اللغة العربية ، ومن أهم هؤلاء المترجمين : عبـد الله بـن المقفع وآل نوبخت وموسى بن خالد ويوسف بن خالد وعلـى بـن زيـاد التميمى والحسن بن سهل والبلاذرى وأحمد بن يحيى بن جابر وجبلـة بـن سالم واسحق بن يزيد ومحمد بن الجهم البرمكى وهشام بن القاسم وموسـى

بن عيسى الكردي وزادويه بن شاهوية الأصفهاني ومحمد بن بهرام وبهرام ابن مراد وعمر بن الفرخان [1].

– أما الكتب التى ترجمت عن البهلوية إلى العربية فهي :

أ- في الأدب والتاريخ :

* ترجم إلى العربية كتاب رستم واسفنديار وبهرام وشوس على يد جبلة بن سالم .

– كتاب خداى نامه وآنين نامه وكتاب مزدك وكتاب التاج في سيرة أنوشيروان وكتاب الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة وقد نقلها إلى العربية عبد الله بن المقفع .

– سير ملوك الفرس وهو أكثر من كتاب ترجم إحداها محمد بن الجهم البرمكى وآخر ترجمة زادويه بن شاهويه وثالث ترجمة محمد بن مطيار الأصفهاني ورابع لابن المقفع .

– كتب هزار أفسانه "ألف ليلة وليلة" وشهر زاد مع ابرويز وكتاب الكارنامج في سيرة أنوشيروان وكتاب دارا والصنم الذهب وكتاب بهرام ونرسي وكتاب هزار داستان وكتاب الدب والثعلب .

* وأشهر الكتب المترجمة هو ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وخداى نامه .

١- ألف ليلة وليلة :

كتاب مجهول المترجم ، وهو بالفارسية " هزار أفسانه " (ألف خرافة) ويحكى قصة ملك من ملوك الفرس ، كان كلما تزوج من امرأة وبات معها ليلة قتلها في الغد ، وتزوج هذا الملك من إحدى بنات الملوك ممن لهن علم ودراية وتدعى شهر زاد . فكانت تروى له أسطورة تنتهي عند نقطة تجعلالملك يستبقيها ويسألها الليلة الثانية إلى أن أتى عليها ألف ليلة وهو

---

[1] الفهرست لابن النديم ٣٤١ - ٣٤٢ .

معها ، ورزقت منه بوند ، وأوقفته على حيلتها فاستعقلها ومال إليها واستبقاها .

ويقال أن هذا الكتاب قد ألف للحمانى بن بهمن ، ويقال إن أول من سمر بالليل الاسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة وإنما يريد الحفظ والحرس .

* قال عنه ابن النديم انه كتاب غث بارد الحديث .

وقد اختلف الباحثون حول ألف ليلة فقال بعض المستشرقين أن مؤلف الكتاب واحد وقال دى ساسي أنه أكثر من مؤلف .

واختلفوا أيضا حول العناصر التى أسهمت في تكوين الكتاب ، فقال هامر[1] إن الكتاب مكون من عناصر أجنبية وهى ثلاثة : فارسية وبغدادية ومصرية وأيد ذلك أوسترب ونلدكه وشوفان وأحمد حسن الزيات [2].

ويقال أن الجهشيارى هو واضع كتاب ألف ليلة وليلة ،وأنه أختاره من أسمار العرب والعجم والروم ، ولم يتم منه إلا أربعمائة ليلة ثم مات ، ويبدو أن نفراً جاءوا بعده بزمن متأخر أعادوا كتابة ما ألفه الجهشيارى بلغة عامية ثم أتموه إلى ألف ليلة وليلة .

ولا شك أن الكتاب به تأثير فارسي متمثلاً في الأسماء الفارسية وكذلك أثر هندي متمثل في تشابه حكاياته مع كليلة ودمنه كقصة الحمار والثور التى وردت في مقدمة الكتاب ، كما أنه لا يستبعد أن يكون الكتاب قد كتبه مصري لأن لهجته مصرية .

---

[1] مقدمة ألف ليلة وليلة المترجم إلى الإنجليزية بعنوان الليالي العربية لندن ١٨٣٩ - ١٨٤١ (The Arabian Nights) .

[2] أصول الأدب ص ٥ .

٢- كليلة ودمنه :

جاء في مقدمة الكتاب أنه من عادة الهند أنهم كانوا يكلفون أدباءهم بوضع الكتب لهم وتقديمها بأسمائهم حتى تكون لهم عونا في الخلود في التاريخ ، وعندما تولى دبشليم ملك الهند أمر بيدبا الفيلسوف أن يضع كتابا يخلد به أسمه كعادة أجداده وآبائه فوضع له هذا الكتاب على لسان الطير والحيوان .

ألف بيدبا الكتاب في عام كامل وقدمه إلى الملك ، وكان في خمسة عشر بابا كل باب منها قائم بنفسه وفي كل باب مسألة والجواب عليها ،وحمله إلى الملك واراد أن يكافئه الملك بحفظ هذا الكتاب في خزائنه حتى لا يصل خبره إلى ملوك الفرس ، فيجدون في الحصول عليه ونقله إلى البهلوية .

وحدث ما كان يخشاه بيدبا إذا نقل هذا الكتاب إلى البهلوية في عهد كسري أنوشيروان الساسانى ووزيره بزرجمهر حيث ترجمه الطبيب الفارسي برزويه .

ظل كتاب كليلة ودمنة متداولا في إيران بعد ترجمته من السنسكريتية إلى البهلوية ، حتى فُتحت إيران فأقدم عبد الله بن المقفع على نقل هذا الكتاب من البهلوية إلى العربية سنة ١٣٣ هـ ولولا ترجمته ما بقى كتاب كليلة ودمنة حيث أن الأصل السنسكريتى مفقود كما أن ترجمته البهلوية مفقودة أيضا ، وقد ترجم هذا الكتاب من البهلوية إلى العربية سنة ١٣٣هـ ولولا ترجمته ما بقى كليلة ودمنة حيث أن الأصل السنسكريتى مفقود كما أن ترجمته البهلوية مفقودة أيضا ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى جميع لغات العالم[١].

[١] فرهنگ أدبيات فارسي - زهرا خانلرى - توس ٦: ١٣ ص ٤١٢ .

٣- خداى نامه :

كتب هذا الكتاب بالبهلوية باسم خوتاى نامك أى كتاب السادة وترجمه ابن المقفع إلى العربية باسم تاريخ ملوك الفرس .

استفاد من هذا الكتاب جميع المؤرخين الذين جاءوا من بعد ابن المقفع أمثال الطبرى وابن الأثير وابن كثير والمسعودى .

ويتناول هذا الكتاب تاريخ ملوك الفرس ويقال أن هناك عدة نسخ منه إحداها نقلها إلى العربية ابن المقفع وأخرى ابن الجهم البرمكى وثالثة ابن مطيار الأصفهاني ورابعة هشام بن قاسم الأصفهاني .

ب- في الطب :

* ترجم إلى العربية كتاب كناش تيادروس في الطب على يد الطبيب تيادروس .

جـ - في النجوم :

* ترجم كتاب في صور درجات الفلك منسوب لزرادشت كما ترجم كتاب جاماساف في النجوم .

د- في اللاهوت

* ترجمت الأوستا باسم الابستاق وهو كتاب ديني يتضمن تعاليم زرادشت ، كما ترجم كتاب مانى ارزنك .

ولم تؤثر هذه الكتب على فلاسفة المسلمين ولكنها أثرت على المسلمين .

هـ - في الفنون

- ترجم كتاب الشطرنج وكذلك كتاب النرد .

هكذا كان الفرس أصحاب حضارة قبل الإسلام ، لعبوا دورا بارزا في إثراء الحضارة الإسلامية ، وسوف أستعرض دورهم ضمن القطوف الدانية للحضارة الإسلامية .ولمزيد من الاطلاع حول دور الفرس .

ثانيا : القطوف الدانية للحضارة الإسلامية في اللغة الفارسية

أعتنق الإسلام أمم كثيرة بالإضافة إلى العرب ، فقد دخل الفرس والهنود والأتراك والبربر في الإسلام ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية لتشمل مصر وشمال أفريقيا والأندلس وإيران والهند وبلاد ما وراء النهر وآسيا الصغرى .

وعندما دخل غير العرب الإسلام ، هجر بعضهم لغته وتحدث بالعربية مثل أهل مصر وشمال أفريقيا وأجزاء من العراق ، وهناك أمم أخرى استعملت لغة ناتجة عن استعمالهم للحروف العربية وهجرهم للحروف القديمة كالفرس والأتراك والهنود ، ولذا ظهرت الفارسية الإسلامية والتركية الإسلامية والأردية الإسلامية والأخيرة هي لغة المسلمين في الهند .

وبعض اللغات الإسلامية قديم ، مثل الفارسية التى تضرب بجذورها في التاريخ وتراوح اللغة العربية في عمرها وهناك لغات أخرى قامت على أكتاف لغات أخرى مثل الأردية التى قامت على أكتاف العربية والفارسية والتركية والسنسكريتية (الهندية القديمة) .

ظلت اللغة العربية هي اللغة المستعملة في جميع الأمصار الإسلامية ، فكانت لغة القرآن الكريم المستعملة في الصلاة ، وكانت لغة الدواوين والرسائل والمكاتبات باستثناء بعض الأماكن التى ظلت فيها لغتها مستعملة إلى وقت متأخر بسبب قيام أهلها بأعمال الإدارة مثل خراسان التى ظلت اللغة البهلوية مستعملة بها حتى ١٨٠ هـ ، نظرا لأن الدهاقين هم القائمون على أعمال الحصر والإحصاء وجمع أموال الخراج .

قامت دول مستقلة في البلاد المفتوحة ، ففي إيران قامت عدة دويلات مستقلة أهمها : الدولة الطاهرية والصفارية والسامانية والغزنوية والسلاجقة والخوارزمشاهية وآل بوية والايلخانية والتيمورية والأتابكة ملوك الطوائف والصفوية والقاجارية ثم البهلوية وأخيراً الإسلامية (أنظر كتبنا : روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا) .

أما في الهند فقد قامت دولة آل تغلق وآل بلبن واللودية والبختيارية والخضرخانية والتيمورية وملوك الطوائف والدولة المغولية الكبرى التي انتهت سنة ١٨٥٧م وحل محلها الإنجليز ثم قامت بعد ذلك دولة باكستان والهند وبنجلاديش ، وكانت اللغة الفارسية هي المستعملة ، ثم استعملت اللغة الأردية في الفترة المتأخرة في باكستان والهند ، بينما ظهرت اللغة البنغالية في بنجلاديش وهي لغة إسلامية .

أما تركيا فقد تعاقب عليها ممالك مستقلة حتى استقر أمر الأتراك العثمانيين منذ القرن العاشر الهجري وحتى أوائل هذا القرن ، وكانت اللغة التركية هي المستعملة في رصد التراث الإسلامي .

وفي أسيا الوسطى التي كانت تابعة لإيران فترة طويلة من الزمن فقد قامت بها ممالك مستقلة ظلت تحافظ على استقلالها حتى قضى عليها الروس وشكلوا ما يسمى بالاتحاد السوفيتي سابقا وقد نالت هذه الجمهوريات استقلالها ثانية وهي : قزاقستان وتركمانستان وازبكستان وتاجيكستان ، كما أن هناك جمهوريات في جبال القوقاز كانت تحت مظلة الحكم الإسلامي وقامت بها حكومات إسلامية وهي حاليا : آذربايجان وداغستان وتتارستان وابخازيا وقرشاى واوسيتيا وهي جمهوريات ذات حكم ذاتي ضمن الاتحاد الروسي ما عدا آذربايجان فهي ذات استقلال كامل ، وابخازيا تابعة لجورجيا (كرجستان سابقا) .

كما أن دولة أفغانستان قد حكمها ملوك عظام من المسلمين وقامت بها دول مستقلة ذات سيادة ، واللغة المستعلمة في رصد تراثها الحضاري هي الفارسية ، أما لغة البشتوفهى لهجة بين الفارسية والأردية ، ومازالت لغة غير رسمية .

لقد ألف ونظم وكتب المسلمون بلغاتهم العديد من المؤلفات والكتب العلمية والتاريخية والأدبية ، وكان كثير من المؤلفين يكتبون بأكثر من لغة كابن سينا والبيروني والخيام. إن التراث الحضاري للمسلمين غير العرب غزير وجم ويضارع ما كتبه العرب ، وقد تفوقوا في فنون كثيرة ، وتأثروا بما لدى العرب وأثروا في العربية والعرب كثيرا ، وبفضل الأمم غير العربية من هؤلاء المسلمين ظهر دور حضاري وثقافي مميز ، وقد نتج عن الامتزاج بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى نتاج حضاري متميز .

وخلال الصفحات التالية سأستعرض نتاج الفرس والهنود والأتراك وغيرهم من الأمم الإسلامية ، هذا النتاج المكتوب بلغة هذه الشعوب .

للفرس حضارة زاهرة قبل الإسلام ، تعرفنا عليها في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، واللغة الفارسية هي اللغة الإسلامية الأولى بين اللغات الإسلامية التى نشأت بعد الإسلام ، وهى اللغة الثانية التى رصد بها معالم الحضارة والتراث الإسلامي وأهمية اللغة الفارسية تتركز فيما يلي :

١- أنها اللغة الإسلامية الأولى التى ظهرت بعد اعتناق الفرس الإسلام ، وهى بالطبع ليست لغة جديدة تماما ولكنها استبدلت الحروف البهلوية بالحروف العربية واستعاضت بدلا من الألفاظ البهلوية ألفاظاً عربية .

٢- إن اللغة الفارسية كانت أوسع انتشارا في المشرق الإسلامي ، وشملت إيران وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند وتركيا ، وكانت بذلك تحتل موقعا أكبر من المواقع التى تحتلها اللغة العربية .

٣- إن الفرس كانت لديهم عقلية مبدعة ، فقد ألفوا وكتبوا مؤلفات ونظموا دواوين شعر، تضارع ما كتبه ونظمه العرب وكان لديهم شعراء لا يقلون شاعرية عن المتنبي وأبى تمام .

٤- إن العقلية الإيرانية قد أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية سواء بلغتها أو باللغة العربية ، وقد أسهم العديد من الفرس في الثقافة الإسلامية مثل سيبويه والفراء والكسائى والجرجانى والسكاكى وابن المقفع وأبو نواس وبشار وأبو حنيفة وابن سينا والبيرونى والخوارزمى .

تأثر العرب بالفرس قبل الإسلام واستفادوا منهم واستعار بعضهم ألفاظا فارسية كالأعشى وعمرو بن كلثوم ، وبعد الإسلام تأثر العرب المسلمون كثيراً بالفرس في لغتهم وسلوكهم وآدابهم ، واستعاروا من الفرس الكثير في النظم السياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية والأدبية (أنظر كتابنا: الأدب المقارن ، وكذلك مقال العجمة في شعر أبى نواس في مجلة الدراسات الشرقية العدد الرابع والسابع) .

أبدع الفرس في علوم الحضارة الإسلامية ، وكتبوا مؤلفاتهم بالعربية والفارسية أما أشهر أعمالهم العربية فهي :

١- مؤلفات أبى حامد الغزالى (٥٠٥ هـ) وأهمها أحياء علوم الدين ومقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال والوسيط في الفقه وأيها الولد ورسالة الطير .. كما أنه ألف بالفارسية كيمياى سعادت ونصيحت الملوك .

٢- مؤلفات ابن سينا (م٤٢٨ هـ) في الطب والفلسفة ومنها القانون والشفاء والإشارات وبالفارسية له دانشنامه علائى .

٣- مؤلفات عبد الله بن المقفع وهى مؤلفة ومترجمة منها كليلة ودمنة والأدب الصغير والأدب الكبير وتاريخ سير الملوك .

٤- مؤلفات البيرونى (م ٣٩١ هـ) منها " الآثار الباقية عن القرون الخالية " وتحقيق ما للهند من مقبولة مقولة في العقل أو مرذولة " .

٥- وفي علوم العربية من نحو وصرف ولغة وبلاغة كان هناك مؤلفات سيبويه والزمخشرى والكسائى وابن قتيبة وعبد القاهر الجرجانى والسكاكى .

٦- وفي الأدب شعره ونثره هناك بشار بن برد وأبو نواس وبديع الزمان الهمذانى وعبد الحميد الكاتب وابن العميد وابن الرومي .

٧- وفي التفسير الطبري والفخر الرازى والبيضاوى والتسترى وروزيهان والقاشانى والطبرسى والنسفى والنيسابورى والكازرونى والشوكانى .

٨- وفي علم الحديث كان البخاري ومسلم والترمذى وأبو داود والسجستانى والنسائى .

٩- وفي التاريخ كان الطبري وأبو الفدا والنرشخى والجاحظ والأصفهانى والثعالبى .

وقد وجد ابن خلدون (١) أن معظم المؤلفات العربية حتى عصره من تأليف العجم فأفرد لهم فصلاً عنوانه " فصل في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم " .

ومن الفرس الذين كتبوا باللغتين ويسمون " أصحاب اللسانين" ابن سينا والبيرونى والخيام وسعدى الشيرازى ومحمد بن قيس الرازى .

وقد اسهم الفرس في ترجمة تراثهم قبل الإسلام إلى العربية ومن هؤلاء ابن المقفع وآل نوبخت وموسى ويوسف ولدى خالد والحسن بن سهل والبلاذرى ومحمد بن الجهم البرمكى وموسى بن عيسى الكردي وزادويه بن

---

(١) المقدمة ٤٥١ - ٤٥٣ .

شاهويه الأصفهانى ومحمد بن بهرام الاصفهانى وعمر الفرخان ، وبـــهرام ابن مروانشاه ٠

لم يبخل الإيرانيون بجهدهم في بناء الحضارة والثقافة الإسلامية ، فألفوا باللغة العربية ، وألفوا باللغة الفارسية وقد تناولت في الصفحات السابقة ما ألفوه بالعربية وترجموه من البهلوية ، وسوف استعرض فـــي الصفحـات التالية مؤلفاتهم في اللغة الفارسية ٠

أ- في العصر السامانى والغزنوى

كان حكام الدولة الطاهرية أول دولة فارسية مستقلة والتي أسسها طـاهر ابن الحسين ، يستخدمون اللغة العربية في مكاتباتهم ورسائلهم ، وكان مـن بينهم عبد الله ابن طاهر من أفضل كتاب النثر في الأدب العربي ٠

وجاء يعقوب بن الليث ـــ مؤسس دولة الصفاريين وكان جاهلا بكل شئ ولا يعرف العربية ... صفارا أي صانع نحاس ، وجمـــع حولـه مجموعة من العيارين ... دولة الصفارية وجاءه الشـــعراء يمتدحونـه بالعربية ، فقال لهم : لماذا يقال ما لا يفهم ؟ فأخذ الشـــعراء يمتـدحون حولـه بالفارسية وكان على رأس الشعراء محمد بن وصيف السجزى ٠

إن أول مؤلفات بالفارسية الإسلامية غير معلوم إلا أن بعضهم يـــرى أن تفسير القرآن الكريم على يد أبى على الجبائى (م٣٠٣هـــ) أول كتـاب بالفارسية ٠

وفي العصر السامانى بدأت النهضة العلمية والأدبية الفارســـية بســـبب إحياء السامانيين للقومية الفارسية ، وبدأوا بترجمة الكتـب العربيـــة إلـى الفارسية مثل تفسير القرآن وتاريخ الطبري ٠

وكان الرودكى (م٣٢٩هـ) أشهر شعراء العصر السامانى ويقال أن لـه ما يقارب مليون بيت شعر لم يبق منها إلا عدة آلاف كما كان من شـــعراء

العصر السامانى أبو شهيد البلخى وأبو شكور البلخى وكسائي المروزى وأبو المؤيد البلخى ورابعة القزدارية ودقيقى.

وفي العصر الغزنوى استطاع السلطان محمود الغزنوى أن يجعل من غزنة عاصمة بلاده مركزا ثقافيا وأدبيا وجمع في بلاطه الكثير من الشعراء المعروفين في عصره ، وكان الشعراء يسعون إليه لكرمه وسخائه .

التحق بالبلاط الغزنوى الشاعر دقيقى الطوسى وعسجدى وعنصرى البلخى ومنوجهرى والفردوسى ،والأخير يعد من أفضل شعراء الفرس وهو ناظم الشاهنامة في ستين ألف بيت عن تاريخ الفرس .

والشاهنامة التى تعد من مفاخر الإيرانيين تضارع الالياذة والأوديسا في اليونانية والرامايانا في الهندية وهى تتناول تاريخ الفرس من بداية الخليقة إلى الفتح الإسلامي وتشمل العصر الأسطوري والبطولى والتاريخي للشعب الإيراني ، وهى مصدر من مصادر التاريخ الإيرانى (أنظر كتابنا : الملحمة في الآداب الشرقية والغربية) .

ومن المؤلفات التى ألفت في العصر الغزنوى كتاب عجائب البلدان لأبي المؤيد البلخى وتاريخ بلعمى للوزير السامانى أبو على محمد البلعمى ، كما ألف كتاب تاريخ سيستان لمؤلف مجهول وهناك رسائل وكتب أخرى .

ب- العصر السلجوقي والخوارزمشاهى (٣٣٢ - ٦١٦ هـ)

ظهر في هذا العصر كبار شعراء الفرس المعروفين منهم جلال الدين الرومى ومسعود سعد سلمان وناصر خسرو وسنائى الغزنوى وأنورى وخاقانى ونظامي الكنجوى وعطار النيسابورى وعمر الخيام وشهاب الدين السهروردى وظهير الدين فاريابى .

أما في مجال النثر فكان هناك نظام الملك صاحب سياست نامه وهو مترجم إلى العربية وأبو الفضل البيهقى صاحب تاريخ بيهق ومحمد بن منور صاحب أسرار التوحيد وقابوس بن وشمكير صاحب قابوسنامه

ومؤلفات ناصر خسرو سفرنامه ووجه دين وجامع الحكمتين وزاد المسافرين .

كما كان أبو حامد الغزالى صاحب مكانة علمية بين العرب والفرس وله بالفارسية كيمياى سعادت ، وهناك الراوندى صاحب راحة الصدور وعطار صاحب تذكرة الأولياء ومحمد عوفي صاحب جوامع الحكايات .

جـ : عصر المغول والإيلخانيين (من ق ٧ هـ إلى ١٠ هـ)

على الرغم مما فعله المغول في البلاد الإسلامية وغيرها من تخريب وتدمير ، إلا أنهم سرعان ما قامت نهضة زاهرة في عهد خلفاء هولا كوخان وجنكيزخان .

ظهر في العصر المغولى والايلخانى شعراء عظام مثل سعدى الشيرازى صاحب الكلستان والبوستان وحافظ الشيرازى صاحب أشهر غزليات في الفارسية .

ومن الكتاب نصير الدين الطوسى ومؤلفاته في الحكمة والفلك والرياضيات ومنها أخلاق ناصري وأساس الاقتباس ومعيار الأشعار ورسالة في الحساب .

وكذلك رشيد الدين فضل الله الهمذانى صاحب جامع التواريخ وعطا ملك جوينى صاحب جهانكشا " فاتح العالم " ونجم الدين الرازى صاحب مرصاد العباد وأفضل الدين الكاشانى صاحب مدارج الكمال ، والجامى صاحب نفحات الأنس وميرخواند صاحب روضة الصفا (أنظر كتابنا روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء - ترجمة د. أحمد الشاذلي) وحبيب السير لخواند مير .

د- العصر المغولى في الهند

قامت فى الهند دولة إسلامية كبرى . أقامها المغول فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجري واستمرت حتى القرن الثالث عشر الهجري ، وقد

أسس هذه الدولة ظهير الدين محمد بابر وخلفه على حكمها ابنه همايون ثم جلال الدين أكبر بن همايون ثم شاهجهان وجها نكير وأورنكزيب حتى بهادر شاه .

ظهر في العهد المغولى العديد من الأدباء والمفكرين وخاصة في عهد أكبر ، الذي صار بلاطه محط رحال الشعراء والأدباء المتحدثين بالفارسية والهندية ، ويكفي أن بلاطه كان به ما يزيد عن ثلاثمائة شاعر وأديب (أنظر رسالة الماجستير الخاصة بالمؤلف بعنوان " الحياة الثقافية في بلاط السلطان جلال الدين أكبر " ورسالة الدكتوراه وعنوانها " نظام الدين أحمد وكتابه طبقات أكبري " بمكتبة كلية التربية جامعة المنوفية - وكلية الآداب - جامعة القاهرة) .

كان فيضي وأبو الفضل بن المبارك وعرفي الشيرازى وبيرام خان من شعراء العصر المغولي المعروفين .

ومن أشهر المؤلفات الضخمة التى ألفت في الهند باللغة الفارسية : آئين أكبري وأكبر نامه لأبى الفضل بن المبارك وطبقات أكبري لنظام الدين أحمد، وتاريخ فرشته لمحمد قاسم فرشته ، ومؤلفات بأسماء الحكام والسلاطين منها بابر نامه وهمايون نامه وشاهجهان نامه وجهانكير نامه وأورنك زيب نامه والفتاوى العالمكيرية ومنتخب التواريخ لعبد القادر بداونى وكثير من المؤلفات الأدبية والتاريخية التى مازالت مخطوطة حتى الآن .

تعليق عام

لقد كتب الفرس في جميع فروع المعرفة حتى أننا نجد صعوبة في ذكر كل ما ألفوه وكتبوه من كتب ورسائل في الأدب والتاريخ والجغرافيا والفلك والطب والصيدنه والكيمياء والجبر والحساب ويكفي أن نعرف أن عالما مثل الخيام ترك لنا فى الشعر رباعياته وفى العلوم الأخرى في الفلك والرياضيات . وابن سينا علاوة عن كونه شاعر نظم بالعربية والفارسية

فإن له مؤلفات عديدة في الطب والفلسفة والإلهيات ، كما كـان البـيرونى موسوعة تاريخية وعلمية له في التاريخ والأدب والفلك والرياضات والطب والالهيات والصيدنه .

ولم يكن تراث الفرس محدودا بل كان من الكثافة لدرجة أنـه لا يمكـن حصره داخل إيران وبلاد ما وراء النهر وتركيا والهند .

لقد أسهمت اللغة الفارسية في إيجاد لغة جديدة في الهند وهـى اللغـة الأردية التى ظهرت بعد الفتوحات الإسلامية في الـهند حـول معسـكرات الفاتحين ، ونتج عن امتزاج الفارسية مع السنسكريتية ظـهور هـذه اللغة التى صارت لغة رسمية في جمهورية الباكستان الإسلامية .

لقد أثر الفرس كثيرا في الحضارة الإسلامية ، وظهر رجال لهم في كـل فن وعلم وكانوا سباقين إلى معرفة العلوم والآداب الإسلامية والعربية .

وقد أثر الفرس على الثقافة العربية ، فتركوا آثارا بعيدة على الأدب (أنظـر مقالنا : العجمة في شعر أبى نواس في مجلة الدراسات الشـرقية - العـدد السابع والرابع) .

كما أثر الفرس على اللغة ، وسجل علماء اللغة تأثير الفرس علـى ألفـاظ اللغة العربية في معاجم للدخيل في لغة العرب منها :

- المعرب من الكلام الأعجمي تأليف أبى منصور الجواليقى (م٥٣٩)
- شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الديـن الخفـاجى (م١٠٦٩هـ)
- الكلمات الفارسية المعربة لآدى شير ١٣٣٤ هـ .
- فصل من فقه اللغة للثعالبى (م٤٢٩ هـ) .
- الألفاظ المعربة الموضوعة لرضا كحالة .
- الدخيل في لهجة أهل الخليج د . أحمد الشاذلي ١٩٩٢ .
- الألفاظ الفارسية في كتاب سيبويه د . أحمد الشاذلي ١٩٨٧ .

الفصل الخامس

الأتراك والهنود والإسلام

الهند واحدة من الأمم القديمة ذات الحضارة العريقة وهم الفرس والهند والروم والصين .

- يقول الجاحظ عن الهند : أنها اشتهرت بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة [1] .
- ويقول القفطى : إن الأمم الثماني التى عنيت بالعلوم هي الهند والفرس والكلدانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون وأما باقي الأمم لم تعن بشئ من ذلك والهند هي الأمة الأولى ، كثيرة العدد ، فخمة الممالك ، قد أعترف لها بالحكمة وأقر لها بالتبريز في فنون المعرفة على كل الأمم السابقة [2] .

عرف العرب الهند قديما ، وأطلقوا على بناتهم اسم هند وعلى سيوفهم وأبنائهم اسم مهند ، وحمل التجار الهنود كثيرا من بضائع الهند كالبهارات والسيوف والحيوانات العجيبة ، إلى بلاد العرب .

لقد عرفت الهند الحضارة منذ القدم ، وتأسست فيها دول ذات حضارة عريقة ، واشتهرت حضارة ماجادوها وأشوكا وذاع صيت ملكها شانكارا ، ولكن الهند ظلت داخل حدودها الاقليمية ولم يمتد نفوذها إلى خارج تلك البقعة ، ولهذا لم يكتب لحضارتها الذيوع والانتشار بمثل ما ذاعت حضارة الفرس واليونان .

تفوق الهنود في علوم الحكمة والفلسفة والطب والرياضات واشتهر فلاسفة وحكماء الهند في أقطار الأرض .

---

(1) رسائل الجاحظ ٧٣ .

(2) أخبار الحكماء ٢٧ .

عرف الهنود النظام السياسي للدولة حيث يتربع الملك على العرش يعونه الوزير والقواد ، والملك يرقى إلى مصاف الآلهة وراما بطل الرامايانا هو الآلة والمنك وابن الملك داسارتا .

وهناك نظام ديني شائع بين الهنود منذ القدم ، وقد كانت الهندوسية على رأس ديانات الهند ولازالت ، في أقدم ديانة وضعية على الأرض ، لا يُعرف مؤسسها ، ولا يعرف متى بدأت ولكنها تشكلت منذ آلاف السنين من أساطير وفلسفات .

اشتهرت الكتب الدينية الهندسية بما فيها من أساطير وحكم وأهم هذه الكتب كتب الفيدا والاوبينيشياد وهي كتب تراتيل دينية ، كما أن أساطير المهابهارتا والرامايانا لا تبتعد عن الدين بل أنها من كتبهم المقدسة .

لقد تمكنت الهندوسية من نفوس الهنود لدرجة أن الإسلام ببساطته ومبادئه السامية لم يستطع أن ينفذ في قلوب الهنود إلا قلة منهم ، وهذا الأمر يرجع إلى أن الديانة الهندوسية بما فيها من فلسفات معقدة وأساطير قد تمكنت من قلوب الدهماء تمكنا يصعب القضاء عليه .

والديانة الهندوسية قائمة على نظام الطبقات حيث يعلو هذه الطبقات طبقة البراهمة ثم الملوك والأمراء ثم القواد ثم التجار والزراع والعمال وأخيرا طبقة العبيد والمنبوذين ، وكل طبقة لا يمكنها أن ترقى أو تهبط إلى طبقة أخرى .

وإلى جانب الهندوسية ظهرت البوذية ومؤسسها هو جوتاما بوذا ، وكانت ديانة قائمة على الكارما ومعاقبة النفس أولا بأول لتحقيق الخلاص ، والكارما تعني العقاب ، ولكن الهندوسية كانت ومازالت الديانة الأولى المسيطرة على عقول الهنود ١ .

إن كثيرا من الثقافات الهندية لم تنتقل مباشرة إلى العرب بل نقلت إلى البهلوية - وهى اللغة المستخدمة في بلاط آل ساسان - ثم انتقلت إلى العربية بعد الفتح العربي الإسلامي مثل كليلة ودمنة .

كما أن كثيرا من معارف الهند لم يتم نقلها إلا بعد فتح بلاد الهند في عصور متأخرة ، وقد سجل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى في كتابه " تحقيق ما للهند من مقبولة أو مرذاولة " [1] كما أن البيروني قد سجل عادات وتقاليد وعلوم الهند في الفلك والنجوم والرياضيات والفلسفة والحكمة في كتابه " الآثار الباقية عن القرون الخالية " .

يقود البيرونى عن الهنود " إن خاصتهم يؤمنون بالله ، وأن أهم ركن في الديانة الهندية هو التناسخ بقوله : أن الأرواح لا تموت ولا تفنى وأنها أبدية الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ولا ماء يخصها ولا ريح تبيسها ، ولكنها تنتقل من بدن ، كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق ، فلا بد تنتقل النفس من بدن إلى بدن ، وفي كل بدن تستفيد تجارب جديدة ومعلومات جديدة وقد ربطوا الثواب والعقاب بعقيدة التناسخ فالأرواح الشريرة تتردد في خشاش الطير ومرذول الهوام إلى أن تستحق الثواب .

والعرب لم يعرفوا عن الهنود فقط فكرة التناسخ والحلول بل عرفوا عنهم الرياضيات حيث ترجموا كتاب السد هانتا المعروف في العربية بالسند هند في الرياضات ، وفي العربية بالسند هند في الرياضات ، وفي الفلك عرفوا كتاب أركند وكتاب أرجبهر .

واستفاد العرب من المعارف الهندية في مجال الطب حيث نبغ العديد منهم وقدموا إلى بغداد في عهد الرشيد والمأمون ومن أشهر أطبائهم صالح بن بهلة في عهد الرشيد ومنكه وبازبكر وقلبرقل وسندباد .

---

[1] تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة

كما عرف العرب عن الهنود الأرقام الهندية التي مازالت مستعملة عند العرب حتى الآن بينما استعمل الغرب الأرقام العربية ، وعرف العرب عن الهنود رقم " الصفر " ونقلوه إلى العالم ، وعرفوا عنهم أيضا الشطرنج .

ترجمت الكثير من القصص الهندي إلى العربية منها كليلة ودمنة والسندباد وملك الهند القتال والسباح .

لقد فتح العرب المسلمون الهند في عهد الوليد بن عبد الملك على يد محمد بن القاسم الثقفى ، وقد توالت الفتوحات الإسلامية على يد محمود الغزنوى ، واستقر الفاتحون في الهند بعد ذلك وأسسوا دولا منها آل تغلق وآل بلبن واللودية والخضر خانية ودولة المغول الإسلامية التي حكمت الهند أربعة قرون متتالية ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ازدهارا لا تقل عن حضارة المسلمين في بغداد والقاهرة .

خامسا : اليونان والحضارة الإسلامية

الحضارة الإنسانية هي سلسلة متصلة من الحضارات ، وكانت الحضارة الفرعونية أول حضارة إنسانية ، وقد انتقل تأثيرها إلى حضارة اليونان ثم إلى الرومان .

إن الحضارة اليونانية ليست إلا امتدادا للحضارة الفرعونية وليست إلا حلقة من حلقات الحضارة الإنسانية ، وليست هي أول حضارة في العالم ، وليس لها تأثير كبير على الحضارة الإسلامية كما يصور الغربيون ذلك وينساق وراءهم بعض أهل الشرق ، ولكنها أعطت بقدر ما أخذت أعطت الحضارة الإسلامية بقدر ما أخذت من الحضارة الفرعونية .

لقد امتزجت حضارة اليونان بحضارة الشرق بعد فتوحات الاسكندر الأكبر لبلاد الشرق كلها ونتج عن حضارة أطلق عليها الحضارة الهلينيستية .

لا يمكننا إنكار أثر الحضارة الإغريقية التي قامت في بلاد اليونان وامتدت حتى وصلت إلى حدود الهند ومصر ، وتأسست على أثر هذه [illegible]حات مدنا ثقافية مثل الإسكندرية .

[illegible] التراث الحضاري اليوناني إلى الرومان وإلى الإسكندرية وإلى بلاد [illegible]رس والشام .

كان الصراع محتدما بين الفرس والروم وخلال هذه الحروب أسر الفرس الكثير من المحاربين الرومان منهم المهندسين والأطباء والمعماريين فيما بين سنة ٢٥٩ - ٢٦٠ م وقد أوكل إلى هؤلاء بناء سد على نهر الدجيلة ويدعي شادروان ، وأقام هؤلاء الأسرى في مدن خاصة لهم مارسوا فيها عقيدتهم الدينية ، وكان من هذه الأماكن مدينة جند يسابور ، وقد حول الأسرى هذه المدينة - بسبب الحرية الدينية التي منحت لهم - إلى منتدى ثقافي وفكري وظلت هذه المدينة المفتوحة تحافظ على تراثها ولغتها السريانية وتقاليدها حتى قامت الدولة العباسية ، فاستعان خلفاء الدولة العباسية بعلماء جنديسايور، وقد سبق أن ذكرنا الطبيب العربي الحارث بن كلدة الذي تعلم في هذه المدرسة .

كما أقيمت مدرسة نصبين على الحدود بين الفرس والروم ، وقد أنشأها الأسقف يعقوب بنشر اللاهوت الإغريقي بين المسيحيين المتحدثين بالسريانية ، وقد عين الأسقف أحد رجال الكنيسة المستنيرين وهو إبراهيم الذي كان ينظم شعرا بالسريانية - لرئاسة هذه المدينة .

وفي سنة ٣٦٣ م سقطت المدينة في يد الفرس ففر إبراهيم هذا إلى الرها وأسس مدرسة أخرى وكانت امتداداً لمدرسة نصبين التي كانت محط رحال طلاب العلم .

كانت جند يسابور والرها ونصبين مراكز ثقافية يونانية تعد امتداداً للفكر اليوناني ، وكانت جند يسابور أكثر هذه المدارس نشاطا .

وبالإضافة إلى هذه المدارس نقل العرب كثيرا من الكتب اليونانية إلى العربية ، وكان خالد بن يزيد معاوية وعمر بن عبد العزيز قد طلبا ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى العربية .

وفي عهد الرشيد وبتشجيع من وزيره جعفر البرمكى ترجمت الكتب الطبية اليونانية إلى العربية ، وكان جبريل بن بختيشوع وأولاده من المترجمين من اليونانية إلى العربية ولهم دور بارز في نقل تراث اليونان .

وفي عهد المأمون تم إنشاء دار الحكمة أول معهد للترجمة ورأسه حنين بن اسحق وابنة اسحق وابن أخته حبيش الدمشقي وقد نقلوا النصوص اليونانية في الفلسفة إلى العربية .

وقد طلب المأمون من ملك الروم أن ينقل ما في خزائن بلاده من كتب يونانية ، وكون بعثه قامت بنقل هذه الكتب وترجمتها وكان من بينهم الحجاج بن مطر وابن البطريق ويوحنا بن ما سويه .

ومن أشهر المترجمين من اليونانية : حنين بن اسحق وحنين ابن صيدلي من الحيرة وهو عربي أراد تعلم الطب فتوجه إلى يوحنا ابن ما سويه لتعلم الطب ، وضاق يوحنا من كثرة أسئلته ، فقال له : ما لأهل الحيرة والطب ؟ وطرده فسافر حنين إلى بلاد الإغريق وأتقن اليونانية ، ثم صار مترجما في بلاط المأمون ، وكان المأمون يعطيه وزن ما يترجمه ذهبا، وترجم ما يزيد عن مائة كتاب، ومات سنة ٢٦٠ هـ .

وكانت ثابت بن قرة (٢٢١- ٢٨٨ هـ) أحد المترجمين من اليونانية والسريانية إلى العربية ؛ وكان ثابت صرافا في حران ، وهوى الفلسفة ودرس اللغات وأتقنها وترجم ما يقرب من خمسين كتابا في المنطق والرياضيات والفلك والطب . وكتب بالسريانية خمسة عشر كتابا ، وقد كان من المترجمين يوسف الخورى وقسطا ابن لوقا ومتى بن يونس ويحيى بن عدى وعيسى بن أسحق والحسين ابن إبراهيم بن الحسن الطبري .

ثانيا : القطوف الدانية للحضارة الإسلامية في اللغة التركية

الأتراك جنس من الأجناس الآرية ، وهذا الجنس تفرع منها العديد من الفروع في وسط آسيا ، وكان أول وجود لهم في الصحراء الشاسعة الواقعة غرب منغوليا الحالية وشرق ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي .

انتقلت بعض القبائل إلى الجنوب وأقامت في بلاد ما وراء النهر في منطقة شاسعة من منتصف بلاد الصين شرقا إلى بحر قزوين في منطقة تسمى بتركستان ، كما انتقلت فروع أخرى واستقرت في القوقاز وبعضها اتجه إلى آسيا الصغرى (تركيا الحالية) واستمرت فروع تركية أخرى في رحلتها عبر أوربا ومن هؤلاء البلغار والألبان والبوشناق .

ظهرت حكومات تركية ودول كبرى من الجنس التركي واشهر دولهم الدولة السامانية والسلاحقة والديالمة والخوارزمشاهية والايلخانية إلا أن هذه الدول كلها قد استخدمت اللغة الفارسية لغة رسمية لها .

على الرغم من أن الأتراك لهم تاريخ طويل إلا أنهم كانوا قبائل بدوية ، يغلب عليها طابع العنف والقسوة وقد ظهر من بينهم المغول المعروفون بقوتهم في التدمير والعنف والتقتيل .

استطاع الجنس التركي أن يسيطر على بلاد كثيرة في المشرق الإسلامي في إيران وبلاد ما وراء النهر وآسيا الصغرى والقوقاز والشام ، واستطاع الأتراك السلاجقة والبويهيون من فرض سلطانهم على الخلافة العباسية في بغداد .

والأتراك في الأصل جنس غير متحضر ولهذا استغرق وقتا طويلا ليتحول إلى شعب متحضر يحافظ على الحضارة ، وكذلك كان شعباً غير مثقف ، ليس لديه إرث ثقافي ، ولهذا ترك الأتراك أثرا سلبيا واضحا في

الحضارة الإسلامية في أواخر العصر العباسي ويمكن أن نميز بين الأجناس الثلاثة العربية والفارسية والتركية من خلال دراسة الخلفاء العباسيين الثلاثة الأمين والمأمون والمعتصم ، فكل خليفة استخدم جنساً من هذه الأجناس وكل جنس منهم قام بدوره الحضاري تبعا لدرجة تحضره .

تأخر دور الأتراك كثيراً في إسهامهم في الحضارة الإسلامية ولو وضعنا نسبا لدور كل أمة في الحضارة الإسلامية لقلنا أن دور العرب والفرس يبلغ ٨٠% مناصفة ودور الأتراك والهنود والأمم الأخرى ٢٠% من الإسهامات في بناء الحضارة الإسلامية .

كانت أول نقوش باللغة التركية تلك النقوش التي اكتشفها العالم الدانمركي طومسون ١٩٢٧ في منطقة أورخون وتعود لدولة الكوك تورك، وقد تحول الأتراك عن أبجدية أورخون إلى أبجدية الأويغور أو الصغدية .

ظلت التركية بحروفها الأويغورية تسير جنبا إلى مع الحروف العربية حتى القرن السادس الهجري .

استخدم الأتراك الحروف العربية من القرن السادس الهجري حتى مطلع هذا القرن حيث أحل كمال الدين أتاتورك الحروف اللاتينية محل الحروف العربية في توجهه نحو التغريب والأوربة .

والتركية التي تهمنا هي التركية الإسلامية المكتوبة بالحروف العربية ، والتي استمرت تسعة قرون وظلت لغة رسمية للدولة العثمانية ، بها نظم الشعراء وألف الكتاب والعلماء ، وظهرت المؤلفات العديدة في الحضارة والثقافة الإسلامية .

يلاحظ أن الفارسية الإسلامية قد ظهرت قبل التركية الإسلامية بستة قرون ، وقد ظل الأتراك يخضعون ثقافيا للصين من ناحية وللفرس من ناحية أخرى ، ولم يظهر أدب إسلامي تركي إلا في عصور متأخرة .

كان أول إنتاج ثقافي تركي " قوتاد غوبيليك " أي كتاب السعادة وهو نثر أدبي إسلامي عبارة عن منظومة إسلامية من ٦٦٥٤ بيتا على نفس وزن العروض العربي وهى نصائح سياسية موجهة للحاكم تأمره بالعدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخمر ولعب الميسر .

كما أن كتاب عتبة الحقائق أحد المنظومات الأخلاقية المتأثرة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر العربي وناظم هذا الكتاب هو أحمد ...انكى وقد أهداها للحاكم محمود داد حاكم الترك والعجم في النصف الثاني من القرن السادس الهجري .

لقد استمد الأدب التركي الإسلامي مكونات من القرآن والسيرة النبوية ... العربي .

... شعراء الأتراك الأوائل الشاعر أحمدى (٧٣٥- ٨١٦هـ) والقاضي برهان الدين (٧٤٥ - ٨١٦ هـ) وأحمد داعي .

التراث التركي الإسلامي

- خلف الأتراك عدة أعمال في الشعر والنثر وقد تعلموا السيرة النبوية الشريفة ، وتسمى " مولد " نظمها الشاعر سليمان جلبي الشاعر المتوفى ٨٢٥ هـ .
- ومن أشهر شعراء الأتراك فضولي البغدادي المتوفى ٩٦٤ هـ وذاتي (٨٧٦ - ٩٥٣ هـ) محمد عاكف (١٢٩٠ - ١٣٥٥ هـ) وناظم حكمت .
- ومن أشهر الكتاب الأتراك سنان باشا (٨٤٤ - ٨٩١ هـ) وابن كمال باشا (٨٧٣ - ٩٤١ هـ) قينالي زاده على أفندي (٩١٦ - ٩٧٩ هـ) مصطفي على الكليبولى (٩٤٨ - ١٠٠٩) وأحمد مدحت أفندي (١٨٤٤ - ١٠٦٧ هـ) .

- وفي أدب الرحلات كان منهم كاتب جلبي (١٠١٧ - ١٠٦٧ هـ) أولنيا جلبي (١٠٢٠ - ١٠٩٤ هـ) .

وفي التاريخ طوسون باشا المتوفى ٨٤٦ هـ صاحب تاريخ أبى الفتح وكتاب تواريخ آل عثمان لمؤلف مجهول يدور حول الفتوحات العثمانية ، وتاريخ جودت وقصص الأنبياء وترجمة مقدمة ابن خلدون .

إن إسهامات الأتراك في مجال الحضارة والثقافة الإسلامية قد تشكل بشكل واضح في العمارة الإسلامية والنظم السياسية أكثر من دورهم الثقافي والأدبي .

لم يكن للغة التركية من تأثير قوى على الشعوب الإسلامية كما كان للغة العربية أو الفارسية ، فقد قامت الخلافة العثمانية بالسيطرة على كثير من البلدان العربية وأوربا الشرقية ومع ذلك لم تخرج اللغة التركية عن موطنها الأصلي ولا من شعوبها التي تحدثت بها في الأصل ، فقد ظلت حبيسة آسيا الصغرى (تركيا) ولا يتحدث بها أو يستخدمها كلغة أدب سوى الأتراك أما الشعوب المفتوحة على يد الأتراك لم يتحولوا عن لغاتهم .

ومع كل هذا لا يمكن أن نتغاضى الأثر السلبي للغة التركية على اللغة العربية نفسها، إذ ساعد الوجود التركي على شيوع اللحن في اللغة العربية ودخول كثير من الألفاظ التركية في اللهجات العربية .

كما أثر الأتراك على الأدب العربي تأثيراً سلبيا حيث ظهرت أنماط أدبية ضعيفة ، وظهر شعر الحرفيين واصبح بين الشعراء الخياط والجزار والفحام ، وضعف الأدب ضعفا شديدا لعدم اهتمام الأتراك باللغة العربية ، وعدم معرفة الولاة والحكام ممن حكموا المنطقة العربية .

والأتراك كجنس لهم الفضل كل الفضل في نشر الإسلام في أوربا الشرقية والوقوف كسد منيع ضد الدولة الصفوية الشيعية المتعصبة .

ولا ننكر دور الأتراك في الحفاظ على الخلافة الإسلامية فترة طويلة من الزمن تزيد عن أي خلافة سابقة .

ثالثا: القطوف الدانية للحضارة الإسلامية في اللغة الأردية

عرف العرب الهند منذ القدم خلال ممارستهم للتجارة ولكن بعد مجيء الإسلام وحتى عهد عمر بن الخطاب ، كان حاكم عمان يقوم بإرسال قوات بحرية إلى سواحل الهند ، ولكن عمر ابن الخطاب نهاه عن ركوب البحر وشبه راكبي البحر بالدود على العود .

وبعث عثمان بن عفان أحد الصحابة إلى بلاد الهند ، ولكنه يبدو أنه يصل إليها وإنما وصل إلى حدود مكران وعد ليصف له أن ماءها أشل ولصها بطل ، فانصرف عثمان عن فتحها .

ولم تبدأ الفتوحات الإسلامية للهند إلا في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أرسل ابن أخيه محمد بن القاسم لفتح بلاد السند وتأديب حاكم السند الذي أستولي على قافلة للحجاج المسلمين القادمين من الهند .

فتح محمد بن القاسم السند ، وكان في السابعة عشرة من عمره وأخذ في التوغل في بلاد الهند لولا وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وتولى سليمان بن عبد الملك فأخذ ينكل بأتباع وقادة الحجاج بن يوسف - لمعارضة الأخير في توليه ولاية العهد - وكان نصيب ابن القاسم القتل في واسط بطريقة بشعة ، حيث وضع في جلد ثور طرى ، وترك حتى مات .

ظلت السند تحت حكم ولاة المسلمين العرب ، ووقعت خلافات بين زعماء القبائل كما في العادة في كثير من البلاد المفتوحة حديثا وحدث صراع قبلي وظلت بلاد السند مصدر قلق أكثر منها مصدر أمن ورخاء .

ولم يتهيأ للمسلمين الفرصة لاستكمال الفتح إلا في عهد الدولة الغزنوية، وفي عهد محمود الغزنوى فتحت الهند في القرن الرابع الهجري، وقاد أربع عشرة حملة لفتحها ونشر الإسلام فيها وترك واليا عليها •

وبعد فتوحات الدولة الغزنوية واستقرار مسعود بن محمود الغزنوى في لاهور إحدى المدن الهندية ، تتابع الفتح الإسلامي في العصور التالية ، واستقر الفاتحون المسلمون بها ، وأسسوا دولا مستقلة هي الدولة اللودية وآل تغلق وآل بلبن والبختيارية وشيرشاه سورى والخضر خانية والتيمورية والمغولية •

ويعتبر عهد شير شاه سوري في القرن التاسع الهجري من أفضل عصور ازدهار الدولة الإسلامية ، فقد فتح الهند وقسم البلاد إلى اثنتي عشرة ولاية ، ونظم البريد ، وأعاد تنظيم الجيش على نظم حديثة •

كما أن عهد الدولة المغولية التي بدأت من القرن التاسع الهجري وظلت تحكم الهند أربعة قرون وزيادة حتى دخول الإنجليز فهي أعظم دولة إسلامية عرفها المسلمون في بلاد الهند •

أسس ظهير الدين محمد بابر الدولة المغولية الإسلامية بعد عدة غزوات ناجحة ، وتبعه ابنه همايون ، ولكن الأخير هزم أمام شيرشا • سوري ، وطرد من الهند ، وعاد إليها بعد فترة طويلة ، وخلفه ابنه أكبر أعظم سلاطين المغول في الهند وحكم الهند خمسين سنة ، واستطاع خلالها فتح جميع بلاد الهند ونظم الولايات والنظم السياسية والاقتصادية والجيش والإدارة في البلاد •

أقام المغول حضارة زاهرة كانت اللغة الفارسية هي اللغة المستعملة في الأدب والثقافة والمناشير والمراسلات ، وقد ألف وصنف العديد من الكتب الفارسية في عهد دولة المغول .

كان الفاتحون من المسلمين يسكنون في معسكرات أثناء حربهم مع الهنود والمعسكر في لغة الفرس والترك هي " اردو " وكان المسلمون الفاتحون يتعاملون مع الهنود المقيمين على أطراف هذه المعسكرات .

كان الهنود يتحدثون لهجات محلية هندية بالإضافة إلى السنسكريتية - اللغة الأصلية بالهند - ولكن ولدت لغة إسلامية جديدة بسبب التعامل بين سكان المدن والقرى المجاورة لمعسكرات الفاتحين وأطلق عليها " اردو " نسبة إلى المعسكر .

ظهرت اللغة الأردية في العصر المغولي كلغة تفاهم وحديث كما أن هناك بعض الشعراء الذين نظموا قطعا صغيرة أو أوردوا أبياتا أوردية في شعر فارسي ، ولكن اللغة الأردية خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين لم ترق إلى مستوى اللغة الأدبية إلا في القرن الثاني عشر الهجري .

بدأت اللغة الأردية في جنوب الهند بالدكن وفي شمالها بدهلي ولاهور .

اللغة الأردية هي أقل اللغات الإسلامية تأثيراً في الحضارة والثقافة الإسلامية نظرا لقصر عمرها ، ولذلك فالإنتاج العلمي والثقافي الأردي أقل بكثير من الإنتاج بالفارسية والتركية .

كان علماء الهند يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية واللغة الفارسية ومن أشهر من كتبوا بالعربية من علماء وأدباء بالهند : قبلة الديبلى وأبو سالم الزطي وعبيد بن باب السندي والأمام أبو حنيفة النعماني وعالم سندى الرياض الفلكي ومكحول بن عبد الله السندي وأبو معشر نجيح السندى العالم اللغوى وحبيش بن السندى شيخ المعتزلة والسندى محمد بن شاهك

مونى المنصور والى بغداد وهناك ما يزيد عن خمسين عالما سنديا وهنديا خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام .

أما الشعراء والأدباء ورجال العلم الذين نظموا وألفوا بالفارسية في الهند فمنهم : أبو الفضل بن المبارك وفيضي وأبوهما المبارك ونظام الدين أحمد وعبد القادر بدوانى صاحب منتخب التواريخ ومحمد قاسم فرشته صاحب تاريخ فرشته والشاعر أمير خسرو دهلوى وعرفي الشيرازى وسلمان ساوجى وآخرون ممن يجهل العرب أسماءهم ، ويحفظهم التاريخ الإسلامي .

أما في اللغة الأردية فيكفي ظهور الشاعر محمد أقبال الذي ولد سنة ١٨٧٦ م في سيالكوت بالقرب من لاهور من أسرة تنتمي إلى أصول برهمية ، وهاجرت أسرته إلى كشمير ثم البنجات ، وتعلم في سيالكوت ولاهور وكمبردج ودرس العربية والفارسية والأردية وله مؤلفات وأشعار باللغات الثلاث .

من أهم مؤلفاته بالأردية : بال جبريل وضرب الكليم وديوان بانك وأرمغان حجاز والأخير نصفه بالفارسية والآخر بالأردية .

بدأ الأدب الأردي في الظهور مع وجود شعراء أثروا الحياة الثقافية أمثال أسد الدين خان غالب (١٧٩٧ - ١٨٦٩ م) الذي صنف كتابا في تاريخ التيموريين بأمر بهادر شاه ظفر آخر ملوك المغول ، وكان بهادر شاه ظفر نفسه (١٧٧٥ - ١٨٦٢ م) شاعرا وأديبا وكان يقيم الندوات الشعرية في القلعة الحمراء مقر حكمه .

ومن شعراء الأردية ميرزا داغ (١٨٣١ - ١٩٠٥ م) والشيخ محمد إبراهيم ذوق ابن الشيخ رمضاني (١٧٨٩ - ١٨٥٤ م) .

ومن أشهر شعراء الأردية خواجه الطـاف حسـين المتخلـص بحـالي المولود (١٨٣٧ م) وهو هندي ولد وعاش في البنجـات الهنديـة ومـن أشعاره حيا جاويد " الحياة الخالدة" ويادكار غالب " ذكرى غالب " وديـوان حالي .

ومن شعراء الأردية خواجه حيدر على آتش والشاعر أنيس ودبير وأكبر الله آبادي وفاني وشير حسين جوش وأمجد حسين آبادي .

وعندما استقلت دولة باكستان عن الهند سنة ١٩٤٩ م عملت على نشـو الأردية وتعليمها وجعلها لغة رسمية وأنشأت عدة جامعـات تـدرس فيـهم الأردية مثل جامعة لاهور وبيشاور وسيالكوت وكراتشى ، وفي الهند توجد جامعات تدرس فيها اللغة الأردية منها جامعة عليكَره وأحمد آباد ودهلي .

الفصل السادس

الخلافة الإسلامية

من أهم معالم الحضارة قيام نظام سياسي ونظام اقتصادي ثابت وقـادر على إقامة الدولة واستمرارها بالإضافة إلى هذه العلوم والآداب والمعـارف والتقاليد الأخلاقية ، وجميع هذه العناصر قادرة على إقامة حضارة علـى أي بقعة وفي أي زمان ٠

والدولة الإسلامية التي أسسها صلى الله عليه وسلم فـي المدينـة المنورة واستمرت في عهد الخلفاء الراشدين هي تلك الدولة التي وضعـت أساس البناء الحضاري للدولة الإسلامية ٠

وأول معالم للحضارة الإسلامية هو نظام الدولة السياسي والذي تمثل في الخلافة والوزارة ، وهذا الفصل نتعرض لموضوع الخلافة كما يطلق عليـها أهل السنة والإمامة كما يطلق عليها أهل الشيعة ٠

لقد استندت جميع نظريات الحكم عند المسلمين إلى فـترة حكـم النبـي صلى الله عليه وسلم ، واتفقت الفرقتان الأساسيتان عند المسلمين - السـنة والشيعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان رسولاً صـاحب رسـالة ، وقد ابلغ هذه الرسالة الشاملة الجامعة إلى الناس ، كما أنـه أيضـا كـان مؤسسا لدولة فقد كان محمد صلى الله عليه وسـلم يتصـرف فـي الديـن بمقتضى التكاليف الشرعية إلى أن أمره الحق سـبحانه وتعـالى بإبلاغـها للناس ، كما أنه كان يصرف سياسة الدنيـا بمقتضـى رعايتـه لمصـالح الناس ٠ ٠

ولا خلاف بين أهل السنة والشيعة في إعطاء الإسلام الصفة الجامعة للدنيا والآخرة ولا خلاف بينهما في أداء العبادات والالتزام بالعقائد ..

ولا يشغل بال أهل السنة والشيعة سوى الخلاف حول موضوع الخلافة بلسان أهل السنة والإمامة بلسان أهل التشيع .

فالرسالة المحمدية عند أهل السنة قد بلغت إلى أهل الأرض كافة على يد محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي المنزل الذي جاء في القرآن الكريم إجمالا وفي أقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلا وهو ما يعرف باسم السنة .

ويرى أهل الشيعة أنه لابد من وجود الإمام من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ليخلفه ويكون حجة الله على الأرض من بعده وجعلوا منصب الإمام قريباً من مكانة النبوة إلا أن النبوة اختيار من الله والإمامة اختيار من النبي صلى الله عليه وسلم فالإمامة منصب إلهي كالنبوة فكما أن الله سبحانه يختار من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزات فكذلك نختار للإمامة من يشاء وبأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إماما للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان يقوم بها ويرى الشيعة أنه لابد من إمام على الأرض ليكون حجة على الناس ، وأن الإمامة تنحصر في أولاد على بن أبى طالب من فاطمة الزهراء ، ولما كان الأئمة من على بن أبى طالب حتى محمد المهدى أثنى عشر إماما لذلك أطلق على أكبر فروع الشيعة والمعتمدون في الأئمة الاثنىعشر اسم الإمامية أو الاثنى عشرية .

وقد تفرغ الشيعة أكثر من سبعين فرعاً بين معتدل ومغال وهم يختلفون فيما بينهم في موضوعات شتى ، وعندما نتعرض هنا للشيعة إنما نقصد الشيعة الأمامية .

ولما كانت النظرية السياسية عند الشيعة والتي تجعل من الإمامة أرثـــا يتوارث فيه الأئمة الحكم ويخلفون النبي صلى الله عليه وسلم لذلك بـــرزت معالم نظرية الحق الإلهي المقدس وحاول بعض الباحثين الغربيين نســـبها إلى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ويتهمون فترة حكم النبي صلـــي الله عليه وسلم بأنه حكم مطلق (اتوقراطي تنتقل فيه السلطة إلى قبضة الخلفاء تأسيساً على المبدأ الديني القائل بأن الحكم هبة من الله) ويميل الشيعة إلـى ترديد مثل هذا الرأي في مؤلفاتهم .

ولما كان لهذه النظرية جذور تاريخية قديمة عند الفرس قبـــل الإســـلام وعند الأوربيين في العصور الوسطى ، ولما كانت هذه النظرية تتنافي مـــع نظرية الحكم عند المسلمين لذا فإننا نتعرض لإبراز ما يلي : -

أولاً : تعريف نظرية الحق الإلهي المقدس .

ثانياً : جذور نظرية الحق الإلهي المقدس .

ثالثاً : ضعف الرأي القائل بتطبيقها على فترة حكم النبـــي صلـــي الله عليه وسلم .

رابعاً : أسس النظرية السياسية الإسلامية .

أولاً : تعريف نظرية الحق الإلهي المقدس

تعرف هذه المذاهب باسم الثيوقراطية ، وهي المذاهب التي تجعل السلطة مصدرها الله وان الدولة إنما هي نظام إلهي أي نظام من صنع الله ، وهـــذه المذاهب تعمل على تبرير مظالم النظام السياسي وإعطاء تصور عن أن كـــل ما يجرى من قبل السلطة السياسية إنما هو عـــن طريـــق تدخـــل ســـلطة سماوية .

وهذه المذاهب على الرغم من أنها لها جذور تاريخية قديمة منذ عهد الفراعنة والرومان إلا أنها لم تتبلور كأسلوب من أساليب الحكم إلا في العصور الوسطى لتبرير حكم ملوك أوربا .

وتقوم المذاهب على أساس تأليه الحكام والملوك في صور مختلفة كما تعتمد على أن الملك فيها متوارث والحاكم ليس من طبيعة المحكومين كما أن الاعتقاد في أحقية الحاكم متواصلة في نسله .

وقد ظهرت نظرية الحق الإلهي المقدس عند الفراعنة عندما أدعى الحاكم صفة الألوهية أو أدعى مشاركة الإله في إلوهيته وهي صورة وجدت عند الفراعنة قديما وأباطرة اليابان حتى العصر الحديث .

وفي العصور الوسطي في أوربا ظهرت عند لويس الرابع عشر في فرنسا في القرن السابع عشر الميلادي كما انتقلت إلى ألمانيا وظلت حتى أوائل القرن العشرين حيث أعلن الإمبراطور غليوم الثاني في ألمانيا في عام ١٩١٠ إنه يستمد سلطته من الله ولذلك لا يحفل بالرأي العام أو بمشيئة البرلمان .

وفي شكل آخر للنظرية نجد أنها تطورت على شكل نظام إلهي غير مباشر يدعي فيه الحكام بأن الله قد هيأ لهم الظروف لحكم الناس فأصبحوا ظل الله في أرضه .

ويلاحظ أن هذه النظريات مرتبطة بالتعسف والاستبداد ، ونجد أن ملوك أوربا في العصور الوسطى – على الرغم من اتخاذهم من الكنيسة ملجأ وملاذاً لتبرير سلطانهم ولم تظهر هذه النظرية عند أو بعد انتشار المسيحية وإنما بعدها بقرون .

ومع أن مذاهب الحق الإلهي المقدس لا تستند إلى الدين المسيحي (الخالص) نظراً لأنه في الأصل كان المسيح رسولاً صاحب رسالة ولم يكن

حاكما رئيس دولة فالفصل بين الدين والدولة قائم وقد صاغه بولس عملا بقول المسيح " دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .

ثانيا : جذور نظرية الحق الإلهي المقدس

كان لهذه النظرية جذور قديمة منذ عهد الفراعنة والرومان وكان الفرعون يدعي الألوهية أو يتخذ نفسه إلها أو شريكا للإله .

أما الرومان فكانت الوثنية عقيدتهم قبل ظهور المسيحية وكان الأباطرة يعبدون آلهة تمثل قوى الطبيعة ، وكانت الحضارة المادية مسيطرة على المجتمع الروماني حتى ظهرت المسيحية بما تحمله من مبادئ سامية فحاربها القياصرة حتى قسطنطين سنة ٣٢٣ م حيث أصبحت المسيحية متساوية مع الوثنية في الحقوق والواجبات والمكانة وأخذت عناصر الصراع بين الوثنية والمسيحية ، وانتصرت المسيحية في النهاية وأصبحت الدين الرسمي للبلاد سنة ٣٨١ م .

والمسيحية لا تنظم شئون الحياة ولا تضع نظاماً للحكم فهي مبادئ روحية لا ترتبط بالحكم والملك والإمارة والسياسية ولما سئل المسيح عليه السلام في موضوع إرث قال ليس ملكي من هذا العالم ، كانت المسيحية تحرص على إصلاح حال الفرد وإحياء قواه الروحية وتزكية النفس بالفضائل ، ولم يكن هناك ارتباط بين الدين والسياسة .

حاولت الكنيسة بعد ذلك وضع أسس لنظام المجتمع ولكن بصفة عامة كان الدين في المجتمع الروماني منفصلا عن الدولة انفصالا تاما .

ونظر لأن الدين لم يكن مهيمنا على شئون الفرد والمجتمع ومنتظما للحياة السياسية لذا استغل بعض ملوك أوربا في العصور الوسطى حالة التخلف التي تعيش فيها مجتمعاتهم بالإضافة إلى سيطرة الكنيسة وتعاظم شأنها من أجل خدمة الملوك والحكام ولتبرير سلطتهم ومظالمهم أدعى

بعضهم أنهم يمنكون بأمر الهي وأن ما يجرى في عروقهم هي الدم المنكية ٠

أما عند الفرس فقد كان الأمر مختلفاً أشد الاختلاف فقد استطاع اردشير بن بابك أن يؤسس الدولة الساسانية آخر الدول القوية التي قامت في إيران قبل الإسلام ، وهنا تبرز ملامح نظرية الحق الإلهي المقدس حين أولي اهتمامه بالعلاقة بين الملك والدين في عهده ، يقول في ذلك : –

وأعلموا أن الملك والدين أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه لأن الدين أس الملك ثم صار الملك بعد حارس الدين فلا بد للملك من أس ولا بد للدين من حارسه لأن ما لا حارس له ضائع ومالا أس له مهدوم ، وأن رأس ما أخاف عليكم مبادرة الغفلة إياكم إلى دراسة الدين وتلاوته والتفقه فيه فتحكمكم الثقة بقوة السلطة على التهاون به وأعلموا أنه لن يجتمع رئيس في الدين ورئيس في الملك معاً في مملكه واحدة إلا انتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك لأن الدين أس والملك عماد ، صاحب الأسس أولى بجمع البنيان من صاحب العماد ٠

كان اردشير يعتقد أنه خليفة الله في حكم البشر وأن طاعته من طاعة الله فقد قال حين حضرت الوفود لتهنئته بالملك " قد انزل الله الرحمة وجمع الكلمة وأتم النعمة واستخلفني على عباده وبلاده لأتدارك أمر الدين والملك اللذين هما أخوان توأمان وأقيم رسول العدل والإحسان ٠

لقد ربط الاكاسرة بين الدين والدولة وجعلوا أنفسهم ملوكاً من قبل الله واحتضنوا رجال الدين الزرادشت ليكونوا مؤيدين لسلطانهم وحكمهم وملكهم ٠

ونجد أن نظرية الحق الإلهي المقدس تأخذ بعداً حقيقياً عند الفرس قبل الإسلام وبعده. فقبل الإسلام وجدنا ملوك الساسانيين يجعلون أنفسهم ملوكاً

على الناس من قبل الله وبعد الإسلام يتحول الإيرانيون إلى الإسلام ويعتنقون المذهب الشيعي الذي يتخذ من الإمام على بن أبى طالب وأبنائه من السيدة فاطمة أئمة لهم وهنا نرى أن الحق الإلهي المقدس قد تحقق لأولاد السيدة فاطمة الزهراء بانتسابهم إلى النبي ﷺ فهم أصحاب حق ديني في إرث الرسول (ص) على حد زعم الشيعة ، كما أن لهم حق دنيوي لأنهم أبناء يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس حيث تزوجت إحدى بناته من الإمام الحسين وأنجبت على زين العابدين الإمام الرابع للشيعة وبذلك يتحقق الحق الإلهي المقدس - الديني والدنيوي في نسل أولاد على بن أبى طالب .

ثالثا : ضعف الرأي القائل بتطبيق الحق الإلهي المقدس على فترة حكم النبي (ﷺ) .

إن هذا المذهب في حقيقته لا يستند إلى الدين المسيحي (الخالص) أيضا بل يصح أن يعد ضد هذا الدين فهل تنطبق هذه الظروف على عهد رسول ﷺ ؟ وهل تتفق ما في هؤلاء الملوك مع صفات النبي ﷺ ؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يظهر للباحث لأول وهلة أنه من التعسف تطبيق مذهب نشأ في ظروف مغايرة وعصر له ملامحه وشخصيات ومقومات وأحداث على عصر يختلف تماما من كافة النواحي .

ويزداد الرأي القائل بتطبيق مذهب الحق الإلهي على نظام الرسول ﷺ ضعفا إذا ما ناقشناه في ضوء الاعتبارات الآتية : -

أولا: ابتدعت نظرية الحق الإلهي المباشر كأسلوب من أساليب الحكم في زمن متأخر جدا ، أي ما يقرب من عشرة قرون بعد عصر الرسول ﷺ ، ويختلف كل الاختلاف كما قدمنا ، ونضيف بأنه يكفي لرفض هذه

النظرية من جذورها أن نقول بأنها نشأت لتبرير حكم ملوك مسيحيين في أوربا حتى يتبين لنا مدى التعارض الشديد بين وجهتي المطابقة .

ثانيا : تعارض فكرة الرفض فرض السلطة وتبريرها مع صفات الرسول صلي الله عليه وسلم كمؤسس دولة ، وفي صفات بعيدة عما عرف عن شخصيته وطبيعته ومثاليته التي انعقد الإجماع على الاعتراف بها بواسطة من لم يقر بنبوته ولمن أمن بها على السواء ، فمن رأى بتدلي أن الرسول ﷺ قد توافرت فيه الصفات الطيبة (كسرعة التأثر ولطف الطبيعة وبعد النظر وطيبة القلب ومعرفة طبيعة الناس وحسن السياسة والاستعداد التام للتضحية بمصالحة الشخصية بل روحه العزيزه في سبيل المصلحة العامة) .

ويذهب تولستوى إلى أن النبي صلي الله عليه وسلم هدى الوثنيين إلى معرفة الإله الواحد وأعلن تساوى جميع الناس أمام الله تعالى ، ومع هذا لم يدع النبوة وحده وإنما اعتقد أيضا بنبوة موسى والمسيح عليهما السلام ولم يكره اليهود والنصارى على ترك دينهم فهو إن لم يدع الانفراد بالنبوة فكيف يقال أنه فرض نفسه حاكما ؟ ولا يغيب عن ذهن الباحث في هذا الصدد أن من أغراض رسالة النبي ﷺ محاربة مثل نظام الحق الإلهي الذي يتمثل في تالية الأشخاص في صوره المختلفة - ملوكا كانوا أو أباطرة أو قساوسة وأحبارا ورهبانا ، وتخليص البشر من عبادة الأوثان وتوجيه العقول إلى كشف أسرار الوجود وحقائقه للاهتداء إلى وجود الله الواحد الأحد .

ثالثا : لم يرث الرسول ﷺ حكما أو أدعي لنفسه ملكا وإنما شق طريقة في سبيل نشر الرسالة بصعوبة بالغة وعانى من العذاب ألوانا ، لقد كان النظام الجاهلي العتيد والعبادات المتوارثة فى قبائل العرب جيلا عن

جيل والمراكز المرموقة لرؤساء القبائل من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، كل هذه الظروف تكاتفت لتجعل من أداء الرسول ﷺ لمهمته أمراً شاقاً عسيراً .

فالخطأ في القول بتطبيق مذهب الحق الإلهي على الحكم في عمره عليه السلام كالخطأ الذي وقع فيه أصحاب السلطة من رؤساء القبائل حيث عرضوا عليه صلوات الله عليه الملك فأطلق قوله الشهير (والله لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري فلن أترك هذا الأمر حتى أهلك دونه) ، ولدينا من الوثائق أيضا ما يؤيد رفضه ﷺ لهذه الفكرة ، فقد كتب إليه مسيلمة الكذاب يدعي الاشتراك معه في الأمر على أن ينتصفا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض الثاني فرد عليه بقوله صلى الله عليه وسلم (السلام على من اتبع الهدي ، أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) .

رابعا: يبدو أن إطلاق مذهب الحق الإلهي جزافا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم جاء نتيجة الخلط بين فكرة الحق الإلهي المطلق - هذه النظرية التي وضعها فلاسفة السياسة - وبين الوحي الإلهي ، وهو مجرد رسالة من الله للبشر عن طريق الأنبياء والرسل .

خامساً : إننا لا نعثر فيما أيدينا من مصادر سيرة الرسول ﷺ مع كثرتها ودقتها على قول واحد للرسول صلى الله عليه وسلم يدل على ادعاء الملك بل العكس هو الصحيح ، أنه كان يؤكد في مناسبات شتى صفته كإنسان وعبد الله إلى جانب كونه نبيا ، فمن أقواله الدالة على أنه ليس ملكا له أبهة الملك وخيلاؤه وكبرياؤه ما طمأن به رجلا أصابته رعدة حين رآه فقال له ليطمننه (هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . كما عرف عنه أنه لم يكن يغضب لأذى يلحق

بشخصه ، فمن طبيعته التسامح والعفو والحلم لأنه ليس ملكا يدافع عن عرش متوارث يفرض سلطانه على الناس بالقوة وإنما ينفذ أمر ربه القائل له (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) ٠

سادساً : هناك عامل جوهري على من يطابق بين نظام الحكم أيام النبي صلي الله عليه وسلم ونظام الحق الإلهي وهو أن رسالته لم تنقض بموته بل مازالت واجبه الطاعة شأنها أثناء حياته ، فالشريعة الإسلامية واجبة التطبيق في كل زمان ومكان وهى قائمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وبهذه العقيدة التي يعتنقها أهل السنة عارضوا الشيعة الذين يذهبون إلى ضرورة وجود الإمام لأنه حجة على الخلق وأن الزمن لا يخلو منه (وذلك ارتكب بعضهم عند هذا الإلزام القول بإبطال التواتر ، وارتكب بعضهم إبطال الإجماع وقد تنبه ابن تيمية (٧٢٨ هـ - ١٣٢٧م) إلى هذا ، وذهب إلى أن النبي صلي الله عليه وسلم لم تجب طاعته لكونه إماما بل لأنه رسول الله إلى الناس فإن هذا المعني ثابت له حيا وميتا ، وهو في إصداره الأحكام في أحيان معينة لم يخصها بل أنها ثابتة في النظائر والأمثال حتى يوم القيامة ، وهو السبب الذي من أجله كان يقول (ليبلغ الشاهد الغائب) فالاختلاف بينه وبين الإمام فالإمام له أعوان وشوكة أو تلقي العهد ممن سبقه أو غيرها من الأسباب التي توجب طاعته ، ولكن النبي ﷺ تختلف عن كل هذا فطاعته واجبة ولو كذبه الناس جميعا ولا تقضي رسالته بموته كما تنقضي حكم الأئمة بموتهم ٠

إنه إذا نظام نبوة تفرد بأركانه وطبيعته الخاصة عما سواه من أنظمة للحكم ومن الخطأ إخضاعه للتعريفات والمقاييس السياسية التي أسبغها فلاسفة السياسة لمد الملوك بسلاح السيطرة على شعوب لا تملك حق الشكوى فشتان بين هذا وذاك .

رابعا: أسس النظرية السياسية للحكم عند المسلمين .

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى دون أن يحدد من يخلفه لحكمة يعلمها الله ، ولعل الهدف من ذلك ، ألا يحدد أسلوبا واحداً لنظام الحكم يكون ملزما دائما فهو الرسول الخاتم ، ورسالته خاتم الرسالات والفكر البشري في تطور مستمر .

لذا نرى الجماعة الإسلامية ، تمر بفترة قصيرة من الاضطراب الفكري ، حسمت باختيار الخليفة الأول أبي بكر ويبدأ عصر الخلفاء الراشدين ، الذين جعلوا القرآن دستورهم ، وقامت الحكومة الدينية وهي الهدف الاجتماعي الأسمى من وجهة نظر الفقه الإسلامي .

وهنا نري القرآن الكريم في سورتين من سوره إحداهما مكية في سورة الشورى والأخرى مدنية وهي آل عمران يؤكد أصل الشورى في كل مكان وفي كل أمر من أمور الدولة الإسلامية بقوله جل شأنه " وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون" وقوله سبحانه فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر .

فإذا طبقنا هذا الأصل على الحاكم أو الخليفة أو الأمام بأية تسمية شئنا نرى أنه لا يمكن أن يكون مفروضا على الجماعة الإسلامية ، بل لابد وأن يتم اختياره بتطبيق أصل الشورى بطرق متعددة تفرضها اعتبارات كثيرة ، ويكون القول بتعينه وتحديده من قبل النبي ﷺ قولا يحتاج إلى وقفه متأنية وإلى إثبات قاطع وهو ما حاولته الشيعة مستدلة عليه بأحاديث منسوبة إلى

النبي ﷺ ، منها ما ذكر اسم سيدنا علي صراحة ومنها ما أشـــارت إليـه تلميحا : فقد رووا عن النبي ﷺ أنه قال: هذا أخي وحبيبي وخليفتي وقـــد روى ذلك الحديث الطبري في تاريخه وتفسيره واليعقوبي والثعـــالبي فـــي تفسيره والنسائي في الخصائص ، ومحمد بن علي بـــن الحسـين القمـــي والشيخ المفيد في الإرشاد وغيرهم وقد أورد الطبري القصة في تاريخه كما يلي : لما نزلت الآية الكريمة: وأنذر عشيرتك الأقربين دعا رســـول الله ﷺ قومه إلى طعام وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فقـــال : إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالي أن أدعوكـــم فـــأيكم يؤازرني علي هذا الأمر على أن يكون أخي ووصى وخليفتي فيكـم فـــأحجم القوم جميعا إلا عليا فإنه قال (أنا يارسول الله) فقال النبي ﷺ (هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأسمعوا له وأطيعوا) فقاموا يضحكـــون ويقولـــون لأبي طالب أمرك أن تستمع لابنك وتطيع .

ومن ذلك أيضا ما روى أن النبي صلي الله عليه وسلم أوصي بالخلافـــة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في غدير خم عندما وقف وهو عائد مـــن حجة الوداع في مكان يدعي غدير خم وأخذ عليا مـــن يـــده وقـــال : أيـــها الناس، يوشك أن ادعي فأجيب وأني مسئول وأنتم مسـئولون فمـــاذا أنتـــم قائلون ؟ ، فقالوا نشهد بأنك بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيرا فقال: ألستم تشهدون أن لا اله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حـــق وأن ناره حق ، وأن الموت حق وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريـــب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور قالوا بلي نشهد بذلك قال :

اللهم أشهد . . اللهم أشهد . . اللهم أشـــهد . . إن الله مولـــي وأنـــا مولاي المؤمنين وأنا أولي بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه ، فهذا علـــى مولاه اللهم وال من ولاه ، وعاد من عاداه وانصر من نصره ، وأخذل مـــن

خذله ، وأدر الحق معه حيث دار . وقالوا لم تطرد هذه للولاية إلا في علـــى ونهذا قال لعلي أصبحت مولي كل مؤمن ومؤمنه . .

وذكروا أيضاً أن النبي ﷺ بعث عليا رضي الله عنه لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت وأن النبي بعث بها أولا أبا بكر (رضي الله عنـــه) ثم أوحي إليه ليبلغه رجل منك أو من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلـغ قالوا هذا يدل على تقديم عليّ وأيضاً فإنه لم يعرف أنه قدم أحدا عليّ وأمـــا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقدم عليهما أسامة بن يزيـــد فـــي إحـدى الغزوات مرة وعمرو بن العاص مرة أخري وهذه كلها أدلة شاهدة بتعييـــن علي الخلافة وقول النبي ﷺ أقضاكم علي ولا معني للإمامـــة إلا القضـــاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم .

وغير ذلك كثير ما نمتلئ به كتب الشيعة وبعض كتب أهل السنة بصـورة جلية أو خفية فإنه وقف أمام هذا كله وقفة متأنية فاحصة غير متأثرين بأية عاطفة أو أهواء فهل نعتبر ذلك وصية يجب أن يعمل بها كدستور المسلمين بعد وفاة النبيﷺ ؟.

حقا إن النبي كان يؤثر على كافة أقربائه بل على كافة المســلمين فـــهو أول من آمن من الفتيان وهو المجاهد الأول في سبيل رسالة الإسلام وهـــو صهره وابن عمه وهو أبلغ العرب وأشجعهم وأكرمهم وأفقهـــهم ، ولعلـــي رضى الله عنه المكانة السامية في نفوس المسلمين ولكن هل ما ورد علـــى لسان النبى ﷺ في غدير خم يعتبر نصا على خلافة علي للنبي ﷺ ؟ يخيل إلى أن النبى لم يذكر أي شئ يتعلق بالخلافة وأن ما قاله كان دعاء روحيـــا لعلي واعترافا بأفضليته وأسبقيته وبما له من خدمـــات فـــي ســـبيل نشـــر الإسلام والتفقه فيه . ولكن هذا ليس كافيا لإثبات تعيين النبى لعلى في مقام الخليفة من بعده ويقول عارف تامر " أن النبى ﷺ لم يوص بالخلافة لعلـــى

وندى ما يثبت أنه لو فعل وجاهر بالقول لانقسم المسلمون إلى فرق متعادية متنابذة ولخرج عن الإسلام الكثيرون ، وإن النبي ﷺ كان علي علم بما تنطوي عليه بعض الأقارب والأباعد من المسلمين فآثر أن يبقي كل شئ علىٰ حاله ، وأن تظل قضية الخلافة رهينة الظروف خوفا من فتح ثغرات بالدعوة الجديدة وإثارة الجماهير الراقدة وفيهم الكثير من الناقمين والساخطين على علي بن أبى طالب الذي قتل بسيفه عدداً كبيراً من أقطاب العرب في المعارك والغزوات التي خاضها من أجل الإسلام وبينهم من كان يتولى الزعامة وله المكانة العظمى .

ويضيف ويغامرنى الشك بأن محمداً كان يعلم بأن كل وصيته لعلىّ بالخلافة ، أو أي إصرار منه بالمحافظة على عشرته ستذهب أدراج الرياح وربما أدى ذلك إلى خضخضة رسالة الإسلام وارتداد الكثيرين إلى الوثنية فعلي كان يعتبر المعول الأول في هدم أركان العقائد الوثنية وزعزعة ركائز العشائرية والقضاء على العائلات الكبيرة ، وإننا نري هؤلاء قد وجدوا بعد النبي الفرصة سانحة لأخذ الثأر والانتقام فكانت السقيفة وكانت فدك وكانت إهانة فاطمة الزهراء فأعطى الشعب الناقم الدليل على أنه لم ينس الماضي، وأن في نفوسه حنين إلى دين الأباء والأجداد وأن كل وصية أو إشارة بالوصية من النبي لا قيمة لها .

لاشك أن الإسلام أحدث تغييرا جذريا في شتى مناحي الحياة عند العرب، فكان العرب في جاهليتهم الثانية أو الأخيرة السابقة على الإسلام مباشرة والتي تقدر بمائة وخمسين سنة أو مائتين يعيشون في جهل مقيم وانحراف ظاهر عن قواعد الخير والفضيلة والإنسانية وفي الموضوع الذي نتحدث عنه هو أن الحياة القبلية ، أو بلغة أدق الحياة العنصرية كانت هي المسيطرة على هذا المجتمع البدائي سيطرة تفرض عليه الخضوع لفوضى

اجتماعية عاتية حيث الأصنام تصول وتجول في المعابد والساحات العامة ولم تستطع المسيحية واليهودية من قبل السيطرة أو إحداث أي تغيير وبعبارة أخرى كانت الحياة الروحية ضئيلة التأثير عكسية الهدف .

أما الرومان فكانت الوثنية عقيدتهم قبل ظهور المسيحية وكان الأباطرة والقياصرة يعبدون آلهة تمثل عندهم القوي الطبيعية وكان المجتمع يمثل نوعاً من الحضارة المادية المغرقة أشد الإغراق في ماديتها ، بعيدة عن الجانب الروحي وهو الجانب الأسمى في آية حضارة وظهرت المسيحية بما تحمله من مبادئ روحية سامية وتصحيح لمسار العبادة والعقيدة فحاربها الأباطرة والقياصرة حتى جاء عهد قسطنطين سنة ٣٢٣م حيث أصبحت المسيحية متساوية مع الوثنية في الحقوق والواجبات والمكانة ويخلفه جوليانوس فيعيد للوثنية مكانتها الأولي ولكن المسيحية ظفرت في النهاية حين أعلن الإمبراطور تيردرسيوس سنة ٣٨١ اعترافة بالمسيحية دينا رسميا للدولة .

ولكن المسيحية لا تنظم شئون الحياة فلم تضع أسسا عامة لنظام الحكم، وليس أدل على ذلك ما أجاب به السيد المسيح عليه السلام حين سئل في موضوع ارث وقال ليس ملكي من هذا العالم وكان حرص المسيحية الأكبر منصبا على إصلاح حال الإنسان بأحياء قــواه الروحية وتزكية وعيه وتصفية نفسه وتطهير قلبه وتحلية الإنسان بالفضائل الروحية ثم حاولت الكنيسة بعد ذلك وضع أسس لنظام المجتمع ولكن يمكن القول بصفة عامة أن الدين في المجتمع الروماني كان منفصلا عن الدولة انفصالا طبيعيا .

ولا شك أن المدنية الحديثة الرومانية المندثرة أو هي نفسها مع قليل من التغيير والتبديل . أما عند الفرس فكان الأمر مختلفا أشد الاختلاف ، متباينا أعمق التباين . ولن أتحدث عن ماضي الفرس السحيق ، بل سأكتفي

بإلقاء الضوء على ما كان عليه الحال عند الدولة أو الإمبراطورية الساسانية التي ظهرت إلى الوجود في الربع الأول من القرن الثالث الميلادي ، على يد اردشير بن بابك الذي استطاع بعد أثنى عشر عاما من الحرب المتتالية أن يؤسس دولة إمبراطورية واضحة الحدود والمعالم ونراه يولي العلاقة بين الملك والدين في عهده الذي كتبه عناية خاصة به وتعتبر هذه العلاقة من أهم القضايا التي تناولها في عهده : فيقول :

وأعلموا أن الملك والدين أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه ، لأن الدين أس الملك (عماده) ثم صار الملك بعد حارس الدين فلا بد للملك من أس ، ولا بد للدين من حارسه لأن ما لا حارس له ضائع ، وما لا أس له مهدوم ، وأن رأس ما أخاف عليكم مبادرة الغفلة ، أياكم إلى دراسة الدين وتلاوته والتفقه فيه ، فتحملكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به ، وأعلموا أنه لن يجتمع رئيس في الدين ورئيس في الملك معاً في مملكة واحدة إلا أنتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك ، لأن الدين أس والملك عماد ، وصاحب الأس أولي بجميع البنيان من صاحب العماد وكان أردشير يعتقد أنه خليفة الله في حكم البشر وأن طاعته من طاعتة فقال حين حضرت الوفود لتهنئته بالملك قد أنزل الله الرحمة وجمع الكلمة ، وأتم واستخلفني على عباده وبلاده ، لأتدارك أمر الدين والملك اللذين هما أخوان توأمان وأقيم رسوم العدل والإحسان .

فنرى اردشير يعيد للزرادشتيه مكانتها التي فقدتها ويجمع ما تفرق وبقى من كتابها المقدس الذي أحرقه الاسكندر الأكبر ومن معه ويطلب من الموابذة أعداد شرح لهذا الكتاب ثم تقربوا لهذا الشرح حتى يفهمه الناس ويسيرون على نهجه وكانت الزرادشتيه قد وضعت ضمن ما وضعته تنظيما

للمجتمع ، ولكنه كان تنظيما لا يساير تطور العصور، وزادت سلطة رجال الدين ففقد الدين تأثيره وظهرت ديانات أخري .

هذا هو الحال عند الفرس والرومان والعرب ، أي في البيئات التى ظهر فيها الإسلام والتي دخلها بعد ذلك ، وإذا كان تأثير الفرس في البيئة العربية والإسلامية كبيرا فأنه كان قليلا في الفكر الغربي ولذا لم يكن عجبا أن يكون الفصل التام بين الدين والدولة مبدأ يسيطر على فكر المستشرقين والباحثين في الشرق والغرب على حد سواء .

وأخذ أولئك وهؤلاء بخليفتهم الفكرية تلك ينظرون إلى الإسلام ومبادئه في الحكم والدين بتلك العقلية التي ورثوها ولكن الإسلام يختلف عن ذلك كلية فلا كهانه ولا رهبنه في الإسلام ، والدين والدولة شئ واحد ، فليس هناك حاكم ديني وآخر دنيوي أو روحي وزمني أو كهنوتي وعلماني ، فلم تكن تلك الثنائية موجودة في الإسلام وبخاصة في عصر الخلفاء الراشدين ، الذين كان كل واحد منهم يعتبر نفسه خليفة رسول الله ، يوضح للمسلمين ما رآه وسمعه عن رسول الله ﷺ ويحمى الدين وينشره ، ويدعمه ويهيئ الظروف التي ما من شأنها أن تمكن الناس من العيش حياة إسلامية .

أشرت إلى أن الإسلام لم يضع قواعد صارمة للنظام السياسي في الدولة وإنما ذكر المبدأ الذي يجب أن تقوم عليه حياة المسلمين وهو نظام الشورى ، ولم يو ـح القرآن أية صورة ينبغي عليها الدو ـة الإسلامية في هيأتها الحاكمة ، لذا حدث الاختلاف والاضطراب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأينا المستشرقين منهم بطروشوفسكى يقول :

إن منصب الخليفة ظهر نتيجة لاحتياج كبار رجالات الدولة العربية الوليدة لسلطة إدارية وقيادية ، حتى تتركز السلطة في يدها ، وأنه لم يكن هناك تصور واضح منذ البداية لوظيفة الخليفة ، وأن حدود تلك الوظيفة قد

تحددت وظهرت تدريجيا بالقدر الذي تكاملت به الدولة في مراحلها التالية ، كما لم يكن هناك أسلوب معين لاختيار الخليفة، الذي كان يتمتع منذ البداية بسلطة دينية (الإمامة) ونفوذ وسلطة سياسية (الإمارة) .

ويرى ابن خلدون أن بعض الفقهاء أجازوا استخدام هذا اللقب اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى : " إني جاعل في الأرض خليفة " . وقوله جل شأنه : " جعلكم خلائف الأرض " ، ومنع الجمهور عنه لأن الآية ليس عليه ، وقد نهي الخليفة أبو بكر رضى الله عنه استخدامه لما دعي به وقال لست خليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله لأن الاستخلاف إنما هو حق الغائب وأما الحاضر فلا ، على أية حال فقد شاع استخدام هذا اللقب لدى خلفاء الثلث الأخير من العصر الأموي ولم يكن شائعا في صدر الدولة الأموية أو في العصر العباسي ، وعارضه الفقهاء معارضة شديدة استناداً لرأى أبي بكر الصديق .

ولقب الخليفة بألقاب أخرى : فهو الإمام أو إمام المسلمين باعتباره الرئيس الديني وهو الذي يجب أن يؤمهم في الصلاة ، ولم يظهر هذا اللقب في عصر الخلفاء الراشدين بل ظهر في أواسط وأواخر العصر الأموي وأول من استخدمه الشيعة ، لإظهار الزعامة الدينية ، وكان علي بن أبي طالب أول من أطلقوا عليه هذا اللقب وعلي سلالته منذ الإمام محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق .

كما أطلق كذلك على إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباسي (أخو أبي العباس والمنصور) رأس الدعوة العباسية بعد أبيه محمد ، كما استعمله المنصور والرشيد ، والمأمون أثناء نزاعه وحربه مع أخيه الأمين (الخليفة) ثم درج استعماله لدى فقهاء أهل السنة لقباً للخلفاء العباسيين

واستعمله الخلفاء الفاطميون ، ولا تزال الشيعة الاثني عشريه تستعمله حتى الآن .

وهو أمير المؤمنين باعتباره رئيس الدولة وقد شاع هذا اللقب منذ عصر الخلفاء الراشدين وكان هذا هو اللقب المستخدم في المعاملات الرسمية إذا أنه يدل على السلطة السياسية والعسكرية هذا هو الحاكم سواء سمى بالخليفة أو الإمام أو أمير المؤمنين ، طاعته واجبه على كل مسلم ، فهو أمر ديني - فهل من المحتمل أن يكون للدولة الإسلامية حاكم واحد أو خليفة واحد أم من الممكن أن يتعدد الخلفاء .

هنا نرى اجتهادات وآراء كثيرة فبينما يرى كثير من الفقهاء إمكانية تعدد الخلفاء أو الأئمة شريطة أن يعملوا جميعاً وفق الشريعة الإسلامية بقوله ، جل شأنه : " يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلي الله وإلي الرسول " ويقولون أنه من الممكن أن يكون ذكر أولي الأمر بصيغة الجمع دليلا على تعددهم أو تعاقبهم وبعض فرق الشيعة تخير ذلك مثل الزيدية وتصنعه بعضها مثل الفاطمية ، وقد وضع فقهاء صدر الإسلام شروطا لمن تتوافر فيه الخلافة أو الإمامة وهي : العلم ، العدل ، الكفاية ، سلامة الأعضاء والحواس ، وخامس هذه الشروط هو النسب القرشي .

وهنا نجد اختلافا بين المسلمين فبينما كان أهل السنة والشيعة متفقين في بداية الأمر على النسب القرشي ، نجد الشيعة يرفضون ويقولون أنه يجب أن يكون من نسب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وبهذا أخرجوا الأمويين من أحقية الخلافة .

وحين تولى بنو العباس الحكم وقامت دولتهم ، وبدأوا في التنكيل بخصومهم ، ثم بمن ساعدوهم . وكان منهم الشيعة رأينا تطوراً في فكر

الشيعة لجعل الشرط الخامس من شروط الخلافة قاصراً على ذرية النبي من فاطمة ابنة النبي ﷺ أما الخوارج فقد خالفوا السنة والشيعة في الشرط الخامس ، وقالوا إن كل مسلم يحق له أن يكون خليفة أو إماماً للمسلمين ولو كان عبداً حبشيا .

وفيما يتعلق برأي السنة حول النسب القرشي ، فإن غالبيتهم كان يرى أن الأئمة يجب أن يكونوا من قريش ، لأنه لأسباب تتصل بالدين بل العصبية القريشية التي كان لها الفضل في قيام الإسلام فالإمامة القريشية كفيلة بأن تجمع الكلمة ، دون أن يكون القرشي صاحب ملكات للحكم فعلا فهو أقرب إلىَ الرمز إلا أن بعض أقطاب أهل السنة مثل الباقلاني لا يشترطون القرشية وهنا نري ابن خلدون يقول :

أن الأعم من المعتزلة ، وبعض الخوارج وغيرهم ، يرون أنه لا وجوب عقلاً ولا شرعا لهذا المنصب أي الخلافة أو الإمامة ، والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرعي ، فإذا تواطأت الأمة علي العدل وتنفيذ أحكام الله تعالي لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوبون بالإجماع والذي حملهم علي هذا المذهب إنما هو الفرار من الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا ، ولما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ، وأعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه كالقهر والظلم والتمتع باللذات ، كما اثني علي العدل والنصفه وإقامة مراسم الدين .

أما النسب القرشي فلاجماع الصحابة علي ذلك يوم سقيفة بني ساعده فقد احتجت قريش علي الأنصار حين داهموا يومئذ بتقديم سعد بن عباد .

ورووا عن الرسول قوله الأئمة من قريش وأن النبي أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ، ونتجاوز عن سيئكم ، ولو كانت الإمارة فيكم ما كانت

الوصية ثم ضعفت قريش بما نالهم من الترف والنعيم وعجزوا بذلك عن حمل الخلافة ، وتغلبت الأعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على المحققين حتى ذهبوا إلى القول بنفي اشتراط القرشية ، وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله ﷺ :

" أسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي " هذا لا تقوم به حجة ، فإنه خرج مخرج التمثيل .

أما سبب الحكمة في اشتراط العصبية فهي أن الأحكام الشرعية كلها لابد من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع من أجلها فإذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلي الله عليه وسلم كما هو في المشهور لأنه وإن كان في اعتبار النسب القرشي فليس إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب إليه الملة وأهلها .

وكانت قريش عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والترف ، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبتهم، فلو جعل الأمر في سواهم لحدث افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر ان يردهم عن الخلاف فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك ، فأشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية .

ويستفاد من ذلك أن تكون الخلافة أو الإمامة في قوم أولي عصبية قوية غالبة ، وعلى ذلك فشرط العصبية ، ليتمكن الحاكم من تنفيذ أحكامه أو أحكام الله في الشريعة والأمة الإسلامية ، واعتقد شخصيا أنه لا ضرورة لذلك وإذا اعتنق المسلمون ما أمر به الإسلام اعتقاداً صحيحاً عندئذ يكون

الوازع الديني لهم من أنفسهم وهذا الشرط إنما هو تأثير لما كان عليه العرب من عصبية في الجاهلية كانت لا تزال نابضة فيهم .

علي أية حال فإن تلك المسألة السياسية (مسألة الخلافة أو الولاية) شغلت اهتمام المفكرين المسلمين في القرنين الأول والثاني الهجريين ، وقد عكست هذه القضية الصراعات التي كانت قائمة بين أهل السنة والخوارج والشيعة بالإضافة إلى الخلافات التي بين المعتزلة وغيرهم من أصحاب المذاهب وكان النزاع بين على ومعاوية بداية فترة من الاضطراب السياسي الفكري وهو ما نسميه بالفتنة وقد رأينا الاختلافات بين الفرق في مفهوم الحكم وطريقة اختيار الحاكم ، ورأينا أن الخوارج لا يقصرون أمر الخليفة علي قريش وإنما أصروا على أن واجب الجماعة اختيار أو انتخاب إمام لها كما لا يتمسكون بوجوب إمام واحد للمسلمين ، وقالوا أن المسلمين جميعاً بما فيهم الإمام مرتدون عن الإسلام إذا اقترفوا إحدى الكبائر وأنهم رجال العصر الأموي .

بدأت التأثيرات الهليتستية والفارسية والتقاليد العربية الجاهلية تعمل علي تشكيل النظم خلال العصر الأموي وهي التي تعمل بها عامة الإسلام ، ورغم هذا فلم يشهد هذا العصر ظهور أي نظرية لحكومة شورية تطبق مبدأ الشورى الذي نادي به الإسلام .

ولكن إرهاصات تكوين مثل هذه النظرية أو نظرية سياسية إسلامية في الحكم قد بدأت تظهر ويشير لامبتون إلى أن رسالة الحسن البصري ت (١١٠ هـ) القصيرة إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وهو من هو في سلسلة حكام الدولة الأموية ، أو بعبارة أخري المؤسس الثاني لتلك الأسرة الحاكمة توضح ذلك بجلاء ، ففي تلك الرسالة يحاول الحسن البصري أن يبين أن حكم القدر لا يتحدى الميدان الميتافيزيقي " الغيبي

وأنكر تعارض القدر مع حرية الإنسان الدينية والخليفة ، أي أن الإنسان يختار الهدي إذا أراد وأنه مسئول خلقيا عن أعماله .

ويضيف قائلا ، ويبدو أن من أسباب كتابة هذه الرسالة الرد على الذين تعرضوا لرأيه في القدر واعتبروه بدعة كما كان من أسباب كتابتها الاحتجاج علي فساد الولاة وظلمهم وكان هؤلاء يبررون أعمالهم بالقدر .

وبصورة عامة فإن العصر الأموي كان فترة مخاض لما يمكن أن يولد في شتي مناحي الحياة الإسلامية فيما بعد ويكفي هذا العصر أنه كان فترة الفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام في مناطق لم يصلها أبان عصر الخلفاء الراشدين ، ومن الطبيعي أن يتأخر النتاج الفكري لما بعد الحملات العسكرية .

وقامت الدولة العباسية ،واستتبع ذلك تحولا في الإدارة والمجتمع بتأثير من التقاليد الفارسية الساسانية حيث أحكم الفرس قبضتهم على الخليفة الحاكم ، ويبدو أن أنصار العباسيين قد استخدموا خلال دعوتهم السرية النظريات المتعلقة بحق الملوك الالهي كما بنوا أفكارا أخري بعيدة عن جوهر الدين ، وكان ابن المقفع ت (١٤٢هـ - ٧٥٩ م) وسط تلك الظروف قد اعتنق الإسلام وترك الزرادشتية ، وعمل كاتبا في ديوان عامل بنى أمية على العراق وبلاد المشرق ثم أصبح كاتباً لعيسى بن علي عم الخليفتين الأولين السفاح والمنصور فرأى ما يحدث وأدرك خطورة الوضع، فكتب رسالة أهداها إلى الخليفة المنصور (عام ١٤٠ - ١٤١ هـ ٧٥٧ - ٧٥٨ م) .

لقد اسمي ابن خلدون الرسالة باسم " رسالة الصحابة " أي صحابة الخلفاء والملوك ضمنها برنامجا سياسيا من بين ما ظلله فلو أن أمير المؤمنين كتب كتابا معروفا بليغا وجيزا محيطا بكل شئ يجب أن يعملوا به

أو يكفوا عنه بالغا في الحجة ، قاصراً عن الغلو يحفظ رؤساءهم ، حتى يقودوا به دماءهم ،ويتعبدوا به منهم من دونهم من عرض الناس ، فكان ذلك أن شاء الله لرأيهم صلاحاً ، وعلي من سواهم حجة ، وعند الله عذرا .

ولما كان العباسيون قد وصلوا إلى الحكم بمساعدة كبيرة من جند خراسان ، واندلعت ثورتهم ضد الأمويين من بلادهم ، فقد جعل ابن المقفع الجند الموضوع الرئيسي لرسالته واقترح على المنصور أن يوجه كتابا موجزا يحدد العقائد التي ينبغي أن يؤمن الجند بها ..

وتحدث ابن المقفع في تلك الرسالة بعد ذلك عن سلطة الخليفة ،واتخذ موقفا وسطا بين رأى الخوارج القائل بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق المبني على حديث نبوي بهذا اللفظ والمعني ورأي أهل السلطان الذي يقول بأن طاعة الخليفة واجبة ، حتى إذا جاءت أوامره مخالفة لأحكام الشريعة ويذكر ابن المقفع أن أصحاب هذا الرأي كانوا يقولون بل نطع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ومعصيته ولا يكون أحد منا عليهم حسيبا .

دعامتا حكم الرسول ﷺ

ولكي نتقدم خطوة أخرى في البحث ينبغي أن نشق طريقا أخرا ، فنتعرف على الطريقة التي بها تم الحكم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لنستكمل البرهان على خطأ تطبيق مذهب الحق الالهي ، فإن الملوك الذين حكموا وفق الحق الالهي لم يلجأوا إلى شعوبهم لتلقي البيعة ، وهم أيضا لم يطالبوا المشورة من أحد ليدحضوا بأنفسهم دعواهم في الحكم بالتفويض من السلطة الالهية التي لا معقب لحكمها ولا راد لأوامرها ، فهم في غني بها عن مشورة رعاياهم .

أما المنهج الذي انتهجه رسول الله ﷺ فإنه يجعل الباحث يقف طويلا أمام ركنيين بارزين ودعامتين أساسيتين كانا لهما النصيب الأوفر في طريقته في الدعوة الإسلامية وهما : طلبه البيعة ممن اعتنقوا الدين الجديد، ومشورته للصحابة خاصة وللمسلمين عامة في المسائل التي لم ينزل بها الوحي .

وسنعرض لهذين الركنين ، وهما مرتبطان بشخصية الرسول ﷺ السياسية بصورة بارزة في شخصيته كصاحب دعوة ورسالة ، لنتبين أيضا مدى حرص الخلفاء الراشدين من بعده على اقتفاء أثره ﷺ، ثم محاولة مفكرى أهل السنة إقامة نظرياتهم السياسية قياسا على أساليب الحكم التي سار عليها الأوائل ، وخاصة فيما يتعلق منها بموضوع الإمامة .

البيعة :

يعرف ابن خلدون البيعة بأنها العهد على الطاعة ويشرح مضمونها بأن المبايع يفوض الأمير بالنظر في أمره وأمور المسلمين ويعاهده على الطاعة فيما يكلفه به في المنشط والمكره . ويشبه البيعة بعملية البيع

والشراء حيث تتلاقى رغبة الطرفين ، فيقول وكانوا إذا بايعو وعقدوا عهدا جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتر فسمى بيعة .

ويرى السير أرنولد أن البيعة تعد عقداً أيضا ولكنه يتضمن أطرافا الخليفة نفسه في طرف والقائمون بالبيعة في الطرف الثاني ثم الطرف الثالث أو الركن الثالث وهو تعهد الخليفة بتقيده بحدود الشريعة .

وقد تلقي رسول الله ﷺ بيعتي العقبة بعد الإقناع بالحسنى والموعظة الحسنة للدخول في الإسلام ، فلما قبل المسلمون وأعلنوا الشهادة أخذ منهم البيعة وفق مبادئ محددة وهي ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ببهتان نفتريه من بين أيدينا ولا أرجلنا ولا نعصيه في معروف .

ويستحق الأمر وقفه عند معنى " لا نعصيه في معروف فإنه ﷺ لم يشترط في البيعة عدم العصيان على الإطلاق بل حدده فقط في المعروف .

ونضيف إلى هذا أن البيعة لم تتم لشخصه ﷺ وإنما كان يدعوهم إلى الله ويؤكد لهم أنه ليس بمكافئهم شيئا على بيعتهم وإنما أمرهم إلى الله ، فإنه يقول لهم " فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له وان سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم ومع هذا، فلم تتم المبايعة كتفويض من المسلمين لرسول الله ﷺ وإنما كان في الطرف الآخر المقابل تعهده بالوقوف في صفهم فهي أشبه برباط يوثق به طرفان ينشئ حقوقا وواجبات لكلا الطرفين .

نستنتج هذا الرباط الوثيق من رد النبي ﷺ عندما سأله أبو الهيثم مالك بن النبهان عن موقفه ﷺ إذا ما قامت الحرب بين قومه من الخزرج وبين

اليهود بالمدينة مستفسراً عما سيبقى معهم أم تاركهم فرد الرسول ﷺ بقوله : " بل الدم الدم ، الهدم ، الهدم أنتم مني وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ويشبه الدكتور الريس بيعتي العقبة بالعقود الاجتماعية التي افترض بعض فلاسفة السياسة في العصور الحديثة حدوثها بل أنه يرى أن " العقد الاجتماعي " لروسو لم يكن إلا مجرد وهم فيقول : أما العقد الذي حدث مرتين عند العقبة وقامت على أساسه الدولة الإسلامية فهو عقد تاريخي تم فيه الاتفاق بين ارادات إنسانية حرة وأفكار واعية ناضجة من أجل تحقيق رسالة سامية ، فالحقيقة أن فكرة العقد الاجتماعي لروسو كانت تبريرا - ميتا فيزيقيا - لا نصيب له من الواقع ، لجأ أصحابها إليها لمحاربة سلطة الحاكم الفرد .

ولم يقتصر مبدأ البيعة على الرجال وحدهم ، بل شمل النساء الزاغبات في الإسلام أيضا ، وهن اللاتي فررن من الوثنيين بعد صلح الحديبية ، وهى نفس الأسس التي تقوم عليها بيعة الرجال مع اختلاف طفيف يتمثل في أن البيعة للرجال تتم بالمصافحة وبيعة النساء بالكلام .

الشورى :

أمر الله الرسول ﷺ بمشاورة المسلمين لقوله تعالي" وشاورهم في الأمر " كما تضمن الكتاب آيات كثيرة للدلالة على ما لقاعدة الشورى في الحكم من ضرورة وأهمية، ولهذا تنبه أهل السنة إلى الحض على الشورى، فكان الأمر باعثا لتقليب هذا الركن من كافة وجوهه للتوصل إلى أسبابه ومغزاه لقد وضع الماوردى ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م شرط الشورى كأحد الشروط الواجب توافرها فى الإمام ، فينبغي عليه أن يشاور ذوى الرأي والحزم فى المشاكل والصعوبات التي تعترضه ليقترب من الصواب فى كل

خطواته ، كما تعرض الماوردي لما أختلف فيه المفسرون عن الحكمة من أمر الله لنبيه ﷺ بالمشاورة : مع ما أمده من التوثيق والتأييد فأجمل أوجه الاختلاف في أربعة أولها الأمر بالمشاورة في الحرب للاهتداء إلى الرأي الصحيح ليعمل به وهو تفسير الحسن البصري بقوله : ما شاور قط قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم " ويفسر قتادة هذا الأمر بأن الله أمره بالمشاورة لتأليفهم وتطيب نفوسهم ، والوجه الثالث الذي قال به الضحاك للمنافع التي تعود من اتباع المشاورة يرجع إلى حض المسلمين على إتباع هذه الوسيلة لأن النبي ﷺ كان في غني عن المشورة .

وقد ردد ابن الطقطقى " ٧٠١ هـ - ١٣٠١م " نفس هذه الحجج ويبدو أنه نقلها عن الماوردى فيقول " واختلف المتكلمون في كون الله تعالى أمر رسوله بالاستشارة مع أنه أيده ووفقه ثم أورد التفسيرات الآنف ذكرها .

أما بدر الدين بن جماعة " ٨١٩ - ١٤١٠ م " فقد أعطي لموضوع الشورى إيضاحات أخري غير النفع والاهتداء إلى الصواب اجتماع الكلمة ، فأضاف إليها بأن الشورى كانت أيضا من عادة الأنبياء وضرب مثلا لذلك بإبراهيم الخليل عليه السلام حيث طلب الشورى من أبنه عندما أمره الله تعالي بذبحه .

وقد تمسك المسلمون بهذا المبدأ بعد الرسول ﷺ في المواقف الحاسمة، فعندما قتل عثمان بن عفان طلب أهل البصرة والكوفه من وجوه الصحابة بالمدينة اختيار من يصلح للخلافة بقولهم " أنتم أهل الشورى وحكمكم جائز على الامة فاعقدوا الإمامة ونحن لكم تبع " ولم يخرج المسلمون بهذا المنهج عن سالف عهدهم أيام الرسول ﷺ لأنهم في ذلك الوقت كانوا يراجعونه ﷺ في الاجتهاد في الأمور الدينية التي تتصل بمصالحهم . وربما سألوه للتثبيت ومعرفة العلة .

فمن الوقائع التي استشار فيها رسول الله ﷺ ، موقعة بدر ، وهــي أول حرب يخوضها المؤمنون إذ سأل حباب بن المنذر الرسول ﷺ بقوله " يــا رسول الله أرأيت هذا المنزل الذي نزله أهو منزل أنزلكه الله فليس لنـــا أن نتعداه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه النبي ﷺ بالإيجـاب ، أشار عليه بتغيير المكان فقبل صلي الله عليه وسلم وتحول إلى غيره .

كذلك لما عزم الرسول ﷺ " مصالحة قبيلة غطفان عام الخنــدق علـى نصف تمر المدينة ، فسأله سعد بن معاذ بصحبه طائفة من الأنصــار " يــا رسول الله " بأبي أنت وأمي ، هذا الذي تعطيهم أشيء من الله أمرك فســمع وطاعة لله ولرسوله أم شئ من قبل رأيك ؟ فلما أجاب ﷺ بتوضيح رأيــه في المسألة ، قدم سعد حججه التي وافقه عليــها ﷺ فمزقــت صحيفــة الاتفاق .

ويستدل ابن تيمية من هاتين الواقعتين على أن مراجعة المسلمين للنبـي ﷺ لم تكن تعدو وجهين ، أحدهما الأمور السياسية التــي يستســاغ فيـها الاجتهاد كما ظهر في هاتين الحادثتين ، أما الوجه الثاني ، فهو ما كان مـن قبيل الرأي والظن في الدنيا كقوله ﷺ عندما سئل عن تلقيح النخل ما أظـن يغني ذلك شيئاً إنما ظننت فلا تؤاخذني بالظن ولكــن إذا حدثتكـم عــن الله بشيء فخذوا به ، فإني لو أكذب عني الله أو حديث آخر أنتم أعلــم بــأمر دنياكم فما كان من أمر دينكم فإليّ .

من كل هذا يتضح لنا أن مبدأي البيعة والشورى كانا حجر الزاوية فـــي عهد رسول الله ﷺ ، وهما في الوقت عينه يدلان دلالـــة واضحــة علـى تعارضهما مع طبيعة حكم الملوك والأباطرة الذين يرفضــون مبـدأ البيعـة لأنهم يدعون أنهم يستمدون حقهم في الحكم من الله ، فلا ضرورة والأمـــر كذلك من وجهة نظرهم إلى طلب البيعة من الخاضعين لحكمهم ، كذلـــك لـم

يطلبوا الشورى في أمر من أمورهم ، وإنما هو الحكم النافذ الذي لا شورى فيه ولا مشاورة .

ولئن كانت دعوى الحق الألهي لا تتفق مع واقع الحكم وطبيعته أيام رسول الله ﷺ ، فإن الفكرة المضادة التي نادي بها الشيخ على عبد الرازق قد جنحت به إلى الشطط والتعسف في الرأي إذا يقول أنه " ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا إلى ملك .

أما النظرة الشاملة التي أصابت الحقيقة وتمثل رأي أهل السنة في طورها الأخير ، فتلك التي دلنا عليها الدكتور الريس إذ يري أن عصر النبوة كان الفترة المثالية التي تحققت فيها المثل العليا للإسلام بأكمل معانيها ، وهي كذلك مرحلة (تأسيس) لأن الجماعة اعتنقت فيها مبادئ الإسلام - وتحققت بها الوحدة .

ثم يقرر بعد ذلك بأن عصر الرسول انقضى بين الوحدة والعمل والتأسيس وأوجد الروح التي تسيطر على الحياة السياسية وأقام النموذج للقدوة والقياس .

الفصل السابع

الوزارة

الوزارة لفظا من الوزر [illegible] من الوزر وهو الملجأ والمعتصم واصطلاحاً هي من وزير الفارسية الأصل وتعنى المنصب الذي يقوم به أحد الرجال لتصريف شئون الدوله .

يقول ابن خلدون " إن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه ، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه ، فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده ،

والوزارة من المناصب التي لم يعرفها العرب قبل الإسلام ، وليست من مستحدثات الإسلام وإنما هي نتيجة طبيعية لاختلاط الأمم والشعوب ، ونتيجة حتمية لقيام نظام الدولة ،

كان منصب الوزارة قائما قبل العصر العباسي ، لأنه كان منصبا سياسيا وإداريا من ضرورات تطور الدولة ولكن لم يكن الاصطلاح قائما إلا في عهد الدولة العباسية وبالتحديد عندما تولي الوزير يعقوب بن داود هذا المنصب سنة ١٦٣ هـ ولكن أبا سلمة الخلال كان أول وزير في الإسلام وقبله في عهد الدولة الأموية كان له مسمى آخر ،

ويقول ابن خلدون " فكانت الوزارة أرفع رتبهم ، هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلة وغير ذلك ،

فلما جاءت دولة بنى العباس ، واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنقاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة .. فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معالي الوزارة والمعاونة .

الوزارة عند العرب قبل الإسلام وصدر الإسلام :

كانت الكلمة تطلق على المجربين من ذوى الحكمة والرأي الحسن الذين يعينون بالمشورة في الأزمات ثم وردت الكلمة في القرآن الكريم في موضعين :

قال تعالي : " وأجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزرى ، وأشركه في أمري " (طه ٢٩ - ٣٢) .

وفي قوله تعالي " ولقد آتينا موسى الكتاب ، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً (الفرقان ٣٥) .

وكلمة وزير هنا مشتقة من الأزر وليست الوزر أو الوزر ، وهي تدل علي المشاركة في المسئلية والمؤازرة في العمل .

وجاء عن الطبري أن اصطلاح وزير استعمل في عهد النبي ﷺ عندما قال زيد بن ثابت لأحد خطباء بني تميم " نحن أنصار الله ووزراء رسوله " وهذا يعنى أن صحابة النبي ﷺ كانوا بمثابة مستشارين للنبي ﷺ (تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١١٦).

وفي يوم السقيفة قال أبو بكر الصديق للأنصار " نحن الأمراء ، وأنتم الوزراء " . وأن عثمان بن عفان قد استقدم جمعاً من الأمراء والولاة وقال لهم " لكل أمير وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونصائحي وأهل ثقتي " .

وفي نهج البلاغة قال الإمام على كرم الله وجهه عندما عرضوا عليه الخلافة بعد مقتل عثمان " التمسوا غيري فأنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً" .

والروايات السابقة توضح أن لفظ وزير كان قائماً وموجودا ومستعملا بين العرب في وقت مبكر إلا أنه لم يكن يتعدى معنى المشورة والموازرة والمشاركة في الحكم إذا لزم الأمر .

الوزارة في العصر الأموي

استخدم اصطلاح وزير في العصر الأموي ، وأطلق على شخصيات تشارك في السياسة والحرب والإدارة ، ولكنه لم يكن كمنصب رسمي أو درجة يرقي إليها صاحبها، ويتولى شئون الدولة بناء على تكليف الخليفة وبصورة لها معايير أخري غير المشورة.

استخدم لفظ وزير عندما جاء بعض مستشارى هشام بن عبد الملك من مصر ، وأطلق علي بعض أعضاء الأسرة الأموية ، وقال الجهشيارى في كتابه الوزراء والكتاب: [illegible] ونفذت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع ، ودفعوها إلى الوزراء [illegible] هذه أسماؤنا وأنسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه " .

وورد أيضا لفظ الوزير على لسان المختار بن أبي عبيد الله الثقفي عندما قال أنه " وزير محمد بن الحنفية وظهيره " وقال محمد بن الحنفية ابن على بن أبي طالب عن المختار " أما بعد فإني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني ونجيي الذي ارتضيه لنفسي، وقد أمرته بقتال عدوي .

وكان رجاء حيوه وزيراً ومستشاراً وقيماً على عمالهم وأولاده ، وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه .

إن استعمال اصطلاح وزير في العصر الأموي كان مرناً لدرجة أنه أطلق علي أعوان الولاة وأمراء الأقاليم ، فقد كان موسى بن نصير وزيراً ومشيراً لعبد العزيز بن مروان أمير مصر ، وكذلك كان لوالي العراق وخراسان وزراء .

إن الوزارة لم تمهد قواعدها ، وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس كما قال ابن طباطبا في كتابه الفخري ، وقال : إن الوزير وسيط بين الملك ورعيته " ، وقال ابن المقفع " لا يستطاع السلطان إلا بالوزراء والأعوان".

ومع ذلك فإنه حتى في صدر الدولة العباسية لم تختلف الوزارة عما كانت عليه في عهد الدولة الأموية ، ولم يكن أبو سلمة الخلال وزيراً لدولة بني العباس إنما كان وزيراً للدعوة العباسية كما كان المختار الثقفي وزيراً لدعوة ابن الحنفية .

ظل اصطلاح وزير مستخدماً في بدايات العصر العباسي بمعنى مستشار ومساعد ومعاون في السياسة العامة .

ولم يصبح هناك أي وزير بمرسوم من الخليفة إلا يعقوب بن داود الذي نال لقب الوزراء من الخليفة العباسي المهدي .

يقول ابن عبد ربه عندما تمردت خراسان ، وكسرت الخراج ، وطردت العمال " فلما انتهي ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلاته ، وبعث إلى نفر لحمته ووزرائه فأعلمهم الحال ، واستنصحهم الرعية " ويتضح في هذه الرواية عدم التفريق بين المستشارين والوزراء والأقرباء ، ولم يكن الوزير يتميز بمنصب محدد المعالم وإنما كانت تتداخل اختصاصات الوزير مع الخليفة دون تعارض .

والوزير بهذا المفهوم يعني اصطلاح أطلق على النخبة أو الصفوة التي يستشيرها الخليفة أو يستعين بها في تدبير أمور السياسة والإدارة ، وكانت هذه المجموعة تسمي وزراء أو صحابة أو خاصة .

وإذا كانت الوزارة في العصر الإسلامي والأموي وأوائل العصر العباسي تعني المؤازرة والمعاونة فإنها كانت في عهد النبي ﷺ لأن النبي كان يشاور أصحابه في مهماته ، وخص أبا بكر ببعضها وكذلك الحال بعمر في عهد أبي بكر عندما تولي الخلافة كان عمر بمثابة وزير لأبي بكر وكذلك عثمان وعلي ، ولكن لم يستخدم هذا الاسم لبعُد الإسلام عن مظاهر الملك .

وفي العصر الأموي وعندما استحالت الدولة إلى وراثية ، وشعر الخلفاء بحاجتهم لمن يستعينون به ، اختاروا البارزين من ذوى الرأي ليقوموا بهذه المهمة وقربهم منهم، وأحسنوا إليهم فكانوا يقومون بمهام الوزراء دون أن يطلق عليهم ذلك وكذلك مع اختلاف في المهام حيث كانت المهام لا تزيد عن التعاون والاستشارة .

الوزارة في العصر العباسي

انتهي عهد الدولة الأموية بما فيه من إدارة إقطاعية متعصبة ، وجاء عهد التنظيم البيروقراطي أصبح منصب الوزير في عهد بني العباس منصباً رئيسياً في جهاز الدولة ، فقد كانت الوزارة في عهد بني أمية " غير مقننة القواعد ولا مقررة القوانين " وكان المستشارون يقومون بدور الوزراء ، ويدعي الواحد منهم كاتباً أو مشيراً (الفخري لابن طباطبا ص ١٨٠) .

قامت عدة وزارات شي عهد بني العباس ، وربما لقب أحد القائمين وأحيانا يتخوف الآخر ، ولكن المنصب لم يصبح مقرراً بشكل رسمي إلا في عهد المهدي العباسي الذي سمي " يعقوب بن داود " وزيراً .

ومن وزراء الدولة العباسية

١-أبو سلمة الخلال — هو أبو سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال مولي قبيلة سبيع أو الحارث بن كعب من العراق والخلال هو لقب يرجع إلى بيعه جفون السيف (الخلل أو أنه كان يسكن مخلة الخلاليين بالكوفة ، وكان يعمل بالصرافة ، وكان صهراً لكبير الدعاة بكر بن ماهان والذي قدمه للعباسيين ، وصار الخلال مموّلاً للدعوة بسبب غناه الفاحش .

سهل أبو سلمة الخلال لنقل الخلافة من الدولة الأموية إلى العباسية حيث جاءت جيوش خراسان إلى الكوفة سنة ١٣٢ هـ وسلم قائد جيوشها لواء الرئاسة إلى أبي سلمة الخلال ، وخاطبه بعبارة " وزير آل محمد " حيث أن الأمام لم يكن معروفا ، وكان أبو سلمة يدير أمور الدعوة لآل البيت . وقد أخذ أبو سلمة البيعة من الناس للرضا من آل البيت دون ذكر لاسم وشخص الإمام ، فقبل الناس دعوته سواء من المؤيدين للعباسين أو العلويين ، وكان أغلبهم من العلويين .

أراد الخلال أن ينقل الراية إلى أحد العلويين عندما عرف بمقتل الإمام إبراهيم بن محمد العباسي ، فأرسل إلى جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن الحض وعمر بن علي ابن الحسن ، ورفض اثنان ، وقبل الثالث ، ولكن الأمر انكشف ، وأسرع الدعاة العباسيون إلى أبي العباس ، وبايعوه وأسرع الخلال وسلم اللواء واعتذر لأنه أراد إقرار الأمور أولاً ، وقبل أبو العباس السفاح اعتذاره ، وظل يعمل على تصريف الأمور .

كان أبو سلمة الخلال قد نال منصباً كبيراً ونفوذا سياسياً واسعاً ، وأراد أن يحافظ على هذا المنصب باختيار إمام له الفضل عليه ، ويكون بذلك قد أقام الإمام والدولة على يديه . وفشلت خطة أبي سلمة لعدة أسباب : -

١ - شك العلويين وحذرهم من الخديعة .

٢ - تردد العلويين في قبول المغامرة .

٣ - قوة الدعاة العباسيين وسرعة عثورهم على الإمام الجديد أبي العباس .

وأرسل أبو مسلم الخراساني رجلاً إلى الكوفة فقتل أبا سلمة الخلال لأنه نكث ،وغير، وبدل .

كان أبو سلمة الخلال ينفذ الأمور من غير مؤامرة ، وكان يظهر الأدلال والقدرة على أمير المؤمنين ، وتلقب وزير آل محمد قبل تأسيس الدولة العباسية وقيل أنه كان وزير الإمام أى وزير الإمام إبراهيم .

وأبو سلمه هو أيضاً الداعية وأمين الدعوة وداعيه الهاشميين ووزيرهم لم يستمر الخلال في منصبه أكثر من أربعة أشهر بعد قيام الدولة العباسية، ولم تتحدد صلاحياته بعد ، ولكن قبل قيام الدولة كان مسئولاً عن الدعاه الذين يرسلهم إلى الولايات والإمارات .

أن تسميته بالوزير لا يدل على منصب رسمي ، وإنما هو بمثابة معاون ومساعد للإمام .

ولاشك أن أبا سلمة الخلال الهمذانى الفارسي الأصل لا يعني أن مفهوم الوزارة قد أكتمل بسبب وجود رجل فارسي ولكون الاصطلاح فارسي كان معروفاً عند الفرس قبل الإسلام ، وكان لديهم الوزراء أمثال بزرجمهر المعروف في عهد الملك أنوشيروان والبعض يذكر أن ، رك هي المقطع الأول من اسم الوزير، وتعني العظيم هي أيضاً من وذرك أي الوزير .

١ -الوزراة بعد أبي سلمة الخلال

كل من جاء بعد أبي سلمة الخلال كان يخشي أن يلقب وزير بعد أن عاد هذا المنصب شؤماً على صاحبه بعد اغتيال الخلال ،ولذلك يقول ابن طباطبا

" إن كل من استوزر بعد أبي سلمة كان يتجنب أن يسمي وزيراً نظــراً لمــا جري لأبي سلمة .

ومن تلقب بلقب وزير بعد أبي سلمة هو أبو الجهم بن عطيــه البــاهلى مولي باهلة وهو أيضاً فارسي كان أحد الدعاة فى خوارزم ، وأصبح كاتبــاً فى الجيش العباسي ثم وزيراً ، إلا أنه قتل بالسم علـــي يــد أبــي جعفــر المنصور كما قتل صاحبه أبو مسلم الخراساني .

٢- وزارة المورياني

وهو فارسي الأصل – يقول الجهشياري " كانت له بأبي حعفـــر حرمــة ...اها له فخف على قلبه فلم يزل أمر أبي أيوب ومحله من رأي أبي جعفــر يريد حتى قلده وزارته وفوض إليه أمه كله .

كان الموريانى ذو مقدرة مالية وإدارية كبيرة ، ولعب دوراً هامــاً فــي بعض الأحداث ، فكان له دور اجتذاب أبي مســلم الخرســاني ألــد أعــداء ...نصور حتي يأتي إليه ، كما شارك في إخماد تمرد والي خراسان وتمــرد ...حمد بن النفس الذ...ية في الحجاز وشارك في قتل عبد الله بن المقفع .

لا يعني ذلك أن نشاطه السياسي كان كبيراً نظراً لقوة شخصية المنصــور ومع ذلك تختلف المصادر حول منحه لقب الوزير فالطبري لا يعطيــه ذلــك والبلاذري يذكر لقب كاتب وأحياناً وزير ما عدا الجهشياري الــذي يذكــره كوزير .. مع ذلك لم يكن لقب وزير واضحاً في أذهان هؤلاء جمعيــاً كــان الموريانى المعين الأول للخليفة دون أن يحمل لقب وزير بصورة رسمية .

وسقط الموريانى بسبب ثرائه الفاحش واستغلاله لسلطانه واحتكار بعض المواد الغذائية قال الجهشياري . ورخصت الأسعار في أيــام أبــي جعفــر المنصور فسولت لأبي أيوب نفسه أن يشتري طعام سواء الكوفــة وســواء البصرة وطمع في الربح .

اقتنع الخليفة بسوء تصرف الموريانى فسجنه ، وسجن أقرباءه ، وأعدم بعض معاونيه وصادر أملاكه وأملاك أخيه ، وظل بالسجن حتى مات سنة ١٥٤ هـ .

٣ – وزارة الربيع بن يونس

من الموالي ، كان ذكياً فطناً .ويقول الجهشياري أن المنصور قد قال للربيع عندما أراد تقليده الوزارة أجلس في بيتك حتى يأتيك رسولي ، فصار اليه الرسول بدراعه وطليسان وشاشية فقال له ألبس هذا ، وأركب بهذا الزي فركب ، وعندما جاء إلي المنصور قال له : قد وليتك الوزارة والعرض .

وقد أيد المسعودى والخطيب البغدادي رأي الجهشياري ولم يسم الطبري الربيع وزيراً . واستمر الربيع في عهد المهدي وابنه حتى قتل سنة ١٧٠ هـ .

٤ – وزارة أبي عبيد الله معاوية

كان لقب وزير حتى عصر المهدي مستخدماً ومتداولاً ، ولكن يرتبط بالدرجة الأولى بكاتب الخليفة ومدير أمره أو بالشخصية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالخليفة ، والتي تقوم بخدمة الخليفة وإدارة أعماله ، وهذا ينسحب كذلك على الشخصية المرتبطة بولي العهد.

ومعني ذلك أن اصطلاح الوزير إلى هذا الوقت لم يكن له معني مستقلاً أو صلاحيات محددة بوضوح ، ولم تكن الوزارة منصباً واضحاً في الدولة .

عمل أبو عبيد الله في خدمة المهدي ، وكان غالباً علي أمور المهدي لا يعصى له قولا ، وقد فوض المهدي إليه تدبير المملكة، وسلم إليه الدواوين وكان له يد فى مسألة ولاية العهد للمهدي وهو الذي أخذا البيعة العامة من الناس فى بغداد للمهدي بعد سماعه نبأ وفاة المنصور .

٥ – وزارة يعقوب بن داود

كان يعقوب بن داود من الموالي أول شخصية سياسية تتقلد منصب الوزير رسمياً ، ويقول الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب " سمي المهدي يعقوب أخا في الله وزيراً " ويقول الطبري " ولم يزل أمر يعقوب يرتفع عند المهدي ، ويعلو حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة " .

أخذت الوزارة مفهوماً جديداً حيث صارت منصباً رسمياً بعد أن كانت لا تحمل صفة الرسمية ، وكانت أسباب تولي يعقوب الوزارة هي :

١ – أنه أي يعقوب كان أكمل الناس عقلاً واستخلصه المهدي لنفسه .

٢ –التقارب بين المهدي والحسن بن إبراهيم العلوي .

٣– أن المجال قد خلا بصراع الربيع بين يونس وأبي عبيد الله معاوية ليعقوب .

كان يعقوب بن داود ذا مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة مما حدا بالشاعر بشار بن برد أن يقول : –

بني أمية هبوا طال نومكم　　　إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا　　　خليفة الله بين الزق والعود

وقد استغل أقرباء يعقوب مكانته فتولي أخوه صالح البصرة وقد هجاه بشار أيضاً بقوله :

هم حملوا فوق المنابر صالحاً　　　أخاك فضجت من أخيك المنابر

ومع ذلك لم يستمر يعقوب طويلاً بعد أن تولاها فقط ثلاث سنوات ونكب بعدها بسبب:–

١-فشله في تحقيق المصالحة مع العلويين وتجميد حركة المعارضة العلوية .

٢-حسد الموالي نفوذ يعقوب ومنزلته لدي الخليفة فسعوا ضده وقد قال شاعر .

لله درك يامهدى من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود
فدع عنك ابن داود جانباً وأقبل علي صهباء طيبة النشر

٣- ويقال أن سبب نكبته إطلاق سراح أحد العلويين .

٤- وقيل أنه بسبب اتصاله باسحق بن الفضل الهاشمى الذي كان يدعو إلى أن الخلافة قد تجوز في صالح بني هاشم جميعاً .

وأخيرا سجن المهدي الوزير يعقوب ،وطرد عماله وولاته ، وسجن الكثير من أهل بيته .

رثاه الشعراء فقال أبو الشيص الخزاعي

ابلغ أمام الهدي أن لست مصطنعا للنائبات كيعقوب بن داود
لو تبتغي مثله في الناس كلهم طلبت ما ليس في الدنيا بموجود

ورثاه الشاعر أبو حنش

يعقوب لا تبعد ،وجنبت الردي فلا بكين زمانك الرطب الثري
وأري رجالاً ينهشونك بعدما أغنيتم من فاقة كل الغني
لو أن خيرك كان شراً كله عند الذين عدوا عليك ما عدا

وقد مات سنة ١٨٧ هـ بعد سجن دام خمس عشر عاماً .

٦-وزارة الفيض بن أبي صالح شيرويه

من المولي وقد نازعه في الوزراء عدد آخر من المناوئين له أمثال الربيع بن يونس وإبراهيم بن زكوان وعمر بن بزيع .

إن الوزارة حتى نهاية عهد الخليفة العباسي الهادي لم تكن نظاماً معترفا به أو صلاحيات محددة ،ولكنها كانت درجة أو مركزاً رسمياً حسب الظروف وشخصية الخليفة وقابليات واستعداد الوزير .

لم يكن هناك منصب وزاري حتى نهاية عهد الهادي ، ولكن كان هناك شخصيات لقبت بلقب وزير، وتمتعت بنفوذ معين اختلف من وزير لآخر .

ويبدو خلال هذه الفترة من أول الدولة العباسية إلى نهاية عهد الهادي كان هناك اتجاهان : -

١- ظهور الكتاب من أصحاب القلم الذين تولوا مناصب الاشراف مثل المورياني وأبي عبيد الله .

٢- ظهور شخصيات من بين خاصة الخليفة مثل الحاجب أو مدبر أمور القصر أو مساعد ، ولكن غير محترف لأمور الإدارة وهم مستشارو الخليفة مثل الربيع ويعقوب .

٣- ومع مرور الأيام وانتقال الوزارة إلى البرامكة صار منصب الوزارة منصباً سياسياً له صلاحيات محددة .

وزارة البرامكة

لم تشهد الدولة الإسلامية ازدهاراً كما شهدته في عهد وزارة البرامكة ، ولم تكن الدولة العباسية أكثر قوة ونفوذاً إلا في عهد البرامكة .. ولهذا الازدهار والتفوق والتميز أسبابه .

لعب البرامكة دوراً بارزاً في إدارة الدولة العباسية وسياستها فكانت إدارتهم فذه وسياستهم رشيدة حتي وصف نفوذهم بأنه "دولة البرامكة" داخل الدولة العباسية .

إن دور البرامكة السياسي والإداري والحضاري في بناء الدولة العباسية قد أعطي للوزارة مفهومها الحقيقي ومدلولها الصحيح الذي لم يكن موجوداً من قبل في اصطلاح السياسة .

ولا نريد أن نساير مبالغات المؤرخين من العرب أو الفرس في دور البرامكة أو الروايات التي سطرتها أقلام المؤرخين من العرب أو الفرس وإنما يعنينا من ذلك دور الوزراة في عهدهم .

والبرامكة أسرة فارسية الأصل من مدينة بلخ في خرسان كان جدهم الأكبر برمك رئيسا لسدنة أكبر المعابد المجوسية المعروف بمعبد النوبهار ، وأول من أسلم من البرامكة جدهم خالد برمك ، وتبعه أخوه الحسن وسليمان وأصبحا من موالي قبيلة الأزد في البصرة .

ولقد لعب خالد البرمكى دوراً إدارياً في خدمة الخلافة العباسية في عهد السفاح والمنصور ، وشارك مع إبنه يحيى البرمكى في كثير من المهمات في عهد المهدي إلى جانب الأمير هارون حتى توفي خالد سنة ١٦٣ هـ .

كان يحيى بن خالد البرمكى مربياً لهارون الرشيد ، ومشرفاً على شئونه ومرافقاً له في حملاته ، ووقف إلى جواره للتمسك بحقه في ولاية العهد .

كان هارون الرشيد شخصية لا تقل شهرة عن البرامكة في الأساطير الشعبية ، وقد سجل المؤرخون روايات كثيرة تغني بها الأدباء الشعبيون عن حياة هارون الرشيد والبرامكة ولعل ألف ليلة وليلة هي تفسير لما يحدث في بغداد في عهد هارون الرشيد .

كان هارون الرشيد ابن الخيزران الجارية المشهورة الابن الثالث من أبناء الخليفة المهدى وثاني أبنائه من الخيزران ، وكان الهادى يريد ازاحته من ولاية العهد لولا يحيى البرمكى والخيزران .

كاد يحيى البرمكى أن يفقد حياته بسبب تأييده لهارون الرشيد وفي صباح اليوم الذي كان مفروضا أن يعدم فيه يحيى البرمكى فوجئ الجميع بالموت المفاجئ للخليفة الهادي، فأستدعت الخيزرات يحيى البرمكى بعد الإفراج عنه وطلبت منه إبلاغ الخليفة الجديد هارون الرشيد بالأمر .

كان هارون الرشيد في الثالثة والعشرين من عمره حين تولي الخلافة ففوض أمر الخلافة ليحيى البرمكي وقال له "أحكم بما ترى وأستعمل من شئت واسقط من رأيت فإنني غير ناظر معك في شئ ".

تقلد يحيى منصب الوزارة – بل قل رئاسة الوزارة إذا جاز هذا التعبير في ذلك الحين – وعين أفراد عائلته وخاصة أبناءه .

كانت الخيزران تشارك يحيى في قراراته وكان يعرض عليها الأمور ، فقد كان من الذكاء لدرجة لا يمكن أن يتناسى فيها دور الخيزران حتى ماتت الخيزران سنة ١٧٣هـ .

كانت الدواوين تحت إشراف يحيى البرمكي بعد سنة ١٧١ هـ حيث تمتع بمنصب وزير ، ولكن هل كانت الوزارة على النمط السابق ام أنها كانت على نمط آخر ؟ !

كان يحيى يرأس الديوان وضم إليه ديوان الخاتم سنة ١٧٣ هـ ونقل الأخير إلى ولديه الفضل وجعفر ما بين سنة ١٧٣ – ١٨٠ هـ ولما كان الخاتم خاتم الخليفة هو رمز السلطة والنفوذ فإن منحه للبرامكة قد دل على تمتعهم بمكانة رفيعة .

بدأ يحيى البرمكي يستقل برأيه تدريجيا عن الخليفة ، فقد أخذ في اختيار معاونيه بنفسه لإدارة شئون البلاد ، وسيطر على الدواوين وراقب أعمالها .

وعين ولاة الأقاليم ونعب أبناء يحيى البرمكى دوراً هاماً في وزارة أبيهم ، وقد تقلدوا مناصب هامة وكان الفضل وجعفر صاحبا حظوة ومراكز حساسة أما محمد وموسى فقد تقلدوا مناصب إدارية وعسكرية إلا أنها لم تكن بارزة .

كان الفضل الساعد الأيمن لأبيه في الشئون الإدارية والسياسية ، كان ينوب عنه أحيانا ، قاد الفضل البرمكى الحملات العسكرية وتولي مسئولية ولاية الأقاليم الشرقية ، وحارب يحيى بن عبد الله الحسنى في جبال الديلم وانتصر عليه وتولى الفضل ولاية خراسان سنة ١٧٧ هـ .

كان الفضل مربيا للأمين ولي العهد ، وقد لعب دوراً مهما في إعطاء البيعة للأمين سنة ١٧٨ هـ ، ونال البيعة للأمين في الولايات الشرقية وضرب النقود باسم ولي العهد الجديد .

أما جعفر البرمكى فقد غلب على الرشيد حتى صار لا يقدم عليه أحداً ، وعندما أرسله الرشيد إلى مصر لتهدئة الحالة . عزل واليها وعين آخر وأرسله الرشيد إلى الشام لقمع الاضطرابات فقام بها ، وتولي ولاية خراسان ، وعين رئيسا لحرس الخليفة ومستشاره الخاص .

لعب جعفر دوراً في الإدارة السياسية العباسية ، وأشركه الرشيد في النظر في المظالم وإدارة البريد ودور السكة ، وكان المنصب الأخير من مهام الخليفة وقد منح لأول مرة لجعفر ، وقد ظهرت قطع نقدية عليها اسم جعفر البرمكى .

عهد الرشيد إلى جعفر تأديب ابنه عبد الله المأمون الذي عين واليا للعهد بعد الأمين وقد حث الرشيد على كتابة عهده المشهور الذي اثبت فيه أحقية المأمون في خراسان خلال فترة حكم الأمين وتعليقه في الكعبة ، ويبدو من خلال هذه الأمور أن الخلافة العباسية قد أصبحت ثلاثة أقسام : -

١- القسم الشرقي ويحكمه الفضل .

٢- والقسم الغربي ويحكمه جعفر .

٣- والعراق ويحكمه الخليفة .

استمر سلطان البرامكة سبع عشرة سنة وهى أول فترة تولي فيها وزراء وزارة في عهد الدولة العباسية .

وفي سنة ١٨٧ هـ قتل هارون الرشيد جعفر البرمكى وسجن الفضل وحدد إقامة يحيى البرمكى ولم يترك من البرامكة حرا سوى محمد بن خالد البرمكى . وأسباب سقوط وزارة البرامكة كثيرة منها ما هو مختلق ومنها ما هو صحيح ومن تلك الأسباب :-

١- أن نفوذ البرامكة قد نما بصورة تدريجية حتى جمع البرامكة في يدهم كل النفوذ والسلطان ، جمع يحيى في يده وزارة الدواوين والخاتم وتصرف الفضل في بعض الأمور وكأنه الخليفة وكان يسمونه بالوزير الصغير وقد قال الرشيد عن يحيى " استبد بالأمور دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما أحبه دون محبتي " .

وقال الاصفهانى : إن في دولة الرشيد دولة أخرى ملوكها البرامكة . وأشار ابن الطقطقي : -

" إن جعفراً والفضل ابنى يحيى ظهر منهما من الادلال ما لا تحتمله نفوس الملوك "

وقال ابن خلدون : -

" إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة " إذن كان الخلاف السياسي قائما بين الرشيد وبين البرامكة .

٢- الثراء الفاحش وجمع البرامكة للأموال ، وكان الشعراء يتوجهون إلى أبوابهم ويمدحونهم بما لم يمدحوا به الخليفة ، واتهمهم الخليفة بنهب الأموال ، كما كانت أملاكهم الواسعة تملأ البلاد ، وكان الرشيد كلما مر بالبساتين قالوا له هذه أملاك البرامكة ، وكانت قصورهم تضارع قصور

الخليفة .. ووصل بهم الأمر إلى أن قال جعفر " إن الرشيد أعجز من أن يقوم بما يسئ إلينا وأنه والله ما أكل الخير إلا بنا وأن دولته لم تقم إلا على أكتافنا" .

٣- عدم تحرج البرامكة من الخوض في مناقشات تتصل بكافة العقائد والمذاهب الدينية والسياسية والكلامية ، وأن مجالسهم كانت تزخر بالشعراء والكتاب والأدباء وأصحاب الفرق والمتكلمين ومن هذا الباب اتهموا بالميل للعلويين أو المعتزلة أو بالشعوبية أو الزندقة .. وفي الوقت الذي كان فيه الرشيد مشغولاً بالتصدي للتيارات الدينية والسياسية المعارضة للخلافة العباسية كان البرامكة يفسحون المجال في مجالسهم لهذه القيادات المختلفة بالتعبير عن نفسها بمختلف الوسائل .

ويرتبط هذا الأمر بالثقافة الفارسية التي كانت ثقافتهم وأنهم كانوا ميالين إلى تطبيق القيم والتقاليد والمراسيم الفارسية في الدولة العباسية .

كانت ثقافة البرامكة متنوعة وسبق أن اتهم المنصور جدهم خالداً بالميل إلى العجم في مناقشة حول إيوان كسري .

ادخل البرامكة التقاليد والعادات الارستقراطية الفارسية في مجالسهم وحفلات سمرهم، كما قربوا الشعراء والكتاب الفرس واعتمدوا عليهم أمثال الرقاشى وأبى نواس وسهل بن هارون وكذلك قربوا المغنى إبراهيم الموصلي الفارسي الأصل ، وقدموا الفضل بن سهل الفارسي الأصل ليصبح بعد ذلك وزيراً ، وكان ذلك قبل اعتناقه للإسلام .

أما بالنسبة للنظم الإدارية العباسية فقد أدخل البرامكة منصب قاضى القضاة وهو منصب غير معروف عند العرب ، وإنما كان من التقاليد الفارسية وهو " موبدان موبد " وكان البرامكة يسيرون في نهجهم على النمط الفارسى فى الحكم وإظهار الأبهة والعظمة.

٤- والسبب الرابع لسقوط البرامكة كان ظهور تكتل معارض للبرامكة مكون من الفضل بن الربيع الذي عينه هارون على ديوان النفقات العام والخاص واستمر نجمه في الظهور حتى أصبح صاحب الخليفة بعد عزل الرشيد للبرامكة من هذا المنصب ، ثم أخذ الخليفة الخاتم من جعفر البرمكي وأعطاه لابن الربيع وبذلك وصل ابن الربيع إلى درجة عالية عند هارون الرشيد .

كان الفضل بن الربيع تسانده زبيده أم الأمين ، وزوجة الخليفة العربية ، المعارضة القوية لنفوذ البرامكة ، كما كان هرثمة بن أعين وعيسى بن موسى بن ما هان ومحمد بن الليث وغيرهم من القادة ضد البرامكة .

استطاع التكتل المعارض للبرامكة أن يظهر مساوئ حكمهم واستبدادهم .

وهناك أسباب أخرى غير مؤكدة منها : -

٥- أنها نزوة من نزوات الخليفة التى تعتمد على العاطفة وانه أتخذ هذا الموقف بناء على مكيدة لهم .

٦- اتهامهم بالميل إلى العلويين .

٧- اتهامهم بالعمل لإعادة الملك للفرس وإخراجه من يد العرب .

٨- بقاؤهم مدة طويلة في الحكم .

٩- الأخطاء التى جمعها الرشيد ضد جعفر والفضل .

١٠- قصة زواج العباسة أخت هارون الرشيد من جعفر البرمكى زواجاً سرياً وإنجابها منه وهى رواية لا سند لها على الرغم من شهرتها - فقصة العباسة قصة شعبية خيالية ليس لها أساس من الصحة لأن العباسة قد تزوجت من محمد بن سليمان العباسي والى البصرة فمات فتزوجت من إبراهيم بن صالح الهاشمي فتوفي فتزوجت من ثالث ولم تكن بلا زواج أبدا وقد تندر أبو نواس في شعره بالعباسة فقال " من أراد الموت فليتزوج من العباسة " .

" البيوتات الوزارية "

لما انتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد واتخذ العباسيون الكثير من نظم الحكم الفارسية – بعد دراستها واستيعابها – انتقل نظام الوزارة ، وكان الوزير في عهدهم ساعد الخليفة الأيمن ، وكما ذكرنا من قبل أن الوزارة لم يستقر حالها إلا عندما جاء البرامكة إلى الوزارة وقبلها كانت الوزارة لا رسم لها واسم الوزير قائم ولكن بلا وزارة، وعندما جاء البرامكة صار الوزير وزيراً على وزارة لها أسس وقواعد .

كان الوزير له الحق في تنصيب العمال وصرفهم والقيام على موارد الدولة ومصروفاتها ، عليه القيام بالرقابة على الموظفين وتوجيه سياسة الدولة ، كان ينوب عن الخليفة في حكم البلاد قال بن خلدون " ولما جاءت دولة العباس عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد وتصنيف مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيفت إليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الضياع والشياع ودفع له فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى دعي جعفر بن يحيى البرمكى بالسلطان أمام الرشيد إشارة إلى عموم نظرة وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة " .

كان الوزراء في الغالب يختارون من بين أعضاء أسرة واحدة ، وكان أشهر البيوتات الوزارية بيوتات البرامكة وبيوتات بنى سهل وكل هذه البيوتات من أصل فارسي ومن الملاحظ أن جميع البيوتات الوزارية في عهد الخلافة العباسية كانت فارسية الأصل باستثناء وزارات قليلة جداً .

أنواع الوزارات :

انقسمت الوزارات في عهد العباسيين إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض

١- وزارة التنفيذ :

وهى التى تكون فيها مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة ، وعدم التصـوف في شئون الدولة من تلقاء نفسه بل كان يعرض أمور الدولة على الخليفـة ويتلقى أوامره فيها ، ولم يكن الوزير إلا واسطة بن الخليفة والرعية .

٢- وزارة تفويض :

وهى أن يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل يفوض إليه النظر فـي شـئون الدولة دون الرجوع إليه ، ولم يبق للخليفة بعد ذلـك إلا ولايـة العـهد ، وسلطة عزل من يوليهم من الوزراء ، ويقـول المـاوردى : فأمـا وزارة التفويض فهو أن يستوزر الإمام من يفوض إليـه تدبـير الأمـور برأيـه وأمضاها على اجتهاده وليس يمتنع جواز هذه الوزارة وأضاف أنه يجـوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه ،وأن يقلد الحكام كما يجوز ذلـك لأن شـروط الحكم معتبرة ، ويجوز أن ينظر في المظالم ويستنيب فيـها ، لأن شـروط المظالم فيه معتبرة ، ويجوز أن يتولى الجهاد بنفسه وأن يقلد من يتـولاه ، لأن شروط الرأي والتدبير فيه معتبرة .

الوزارة بعد البرامكة :

تولى الفضل بن الربيع بن يونس منصب الوزارة بعـد القضـاء علـى البرامكة وكان من قبل متولياً حجابة هارون الرشيد ، فلما نكـب البرامكـة استوزره الرشيد وظل كذلك حتى مات الرشيد بطوس .

والفضل من الشخصيات القوية المقربة من البيت العباسي ، وأنـه ذات نفس عربي على الرغم من عدم وجود نسب له ، ولم يكن يحب البرامكة أو الخيزران .

كانت المنافسة حادة بين الفضل بن الربيع ويحيى البرمكى ، وواصل الفضل تدابيره حتى أسقط البرامكة ولكنه لم يحظ بمنصب وزير ولكنه أخذ الخاتم من جعفر البرمكى، ولم يذكر المؤرخون لقب الوزير على الفضل بن الربيع .

ويلاحظ أن اختصاصات الوزير قد عادت إلى حالها السابق قبل عهد البرامكة وأصبحت مقتصرة على العرض والمشورة ولقد وزع الرشيد المناصب على عدد من الموظفين ولم يكن الفضل بن الربيع إلا واحدا منهم مما أدى إلى الاضطراب الإداري في أواخر عهد الرشيد .

مات الرشيد فجأة في طوس سنة ١٩٠ هـ وكان معه الفضل بن الربيع فأرسل الأمين إليه للعودة إلى بغداد .

تقلد الفضل بن الربيع الوزارة في عهد الأمين وكان له تأثير كبير في الأحداث التى وقعت بين الأمين والمأمون ، وكان الفضل أكثر تأثيراً على الأمين أثناء هذه المحنة وهو الذي دفع الخليفة لانتهاك الإجراءات التى اتخذها الرشيد بخصوص حقوق وامتيازات المأمون .

عمل الفضل على التخلص من المأمون وبطانته أمثال الفضل بن سهل ، فقد عزل القاسم بن الرشيد عن الجزيرة والثغور ، وطلب من الأمين أن يستدعي المأمون إلى بغداد للرأي ، ورفض المأمون خشية الخديعة ، ومنع عن المأمون مائه آلاف دينار كان أبوه قد أوصى له بها من بيت المال .. وخلع الأمين المأمون وولي أبنه في ولاية العهد .

قامت الحرب بين الأمين والمأمون وانتهت بإرسال طاهر بن الحسين وهرثمه بن أعين ودخل جيش خراسان بغداد وقتل الأمين واختفي الفضل بن الربيع .

وعندما عاد المأمون إلى بغداد عفا عن الفضل ورد عليه داره فظل بها حتى مات .

" وزارة آل سهل "

الفضل والحسن ابنا سهل من أصل فارسي ، كان أبوهما زرد شنيا من قرية بنواحي الكوفة ، أسلم في عهد الرشيد واتصل بالبرامكة وعمل وكيلا ليحيى البرمكى ثم قدم ولديه الفضل والحسن إلى البرامكة .

كان الفضل بن سهل طموحاً يتقن الفارسية والعربية ، أثار انتباه يحيى البرمكى حين ترجم كتابا عن الفارسية إلى العربية فأعجب بعقله وأسلوبه ودعاه لدخول الإسلام ، فقبل ، وأدخله على المأمون فأسلم على يديه ولازم آل سهل البرامكة وكان الفضل مع جعفر البرمكى والحسن في خدمة الفضل ، وقد ورثا أفكار وآراء البرامكة ، وورثا طموحات البرامكة وتقاليدهم وبراعتهم في إدارة شئون البلاد وقد قال يحيى البرمكى للفضل بن سهل : -

في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت عندي منهم . كان الفضل بعيد النظر وعندما أراد هارون الرشيد الخروج لقمع تمرد رافع بن الليث خرج معه المأمون بناء على طلب الفضل بن سهل وقد حذر الفضل المأمون من بقائه في بغداد إلى جانب المأمون وانه سيحرمه عاجلا أم آجلا من ولاية العهد .

وعندما مات الرشيد وانقسم القواد . بشأن عودة المأمون إلى بغداد نصحه الفضل قائلا : وكيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم ، وتعهد له الفضل بأن أصبر وأنا أضمن لك الخلافة .

والمأمون من أم فارسية هي مراجل ونذا تعلق به الفرس وأيدوه وكان وزيره الفضل ابن سهل أيضا فارسيا .. وكان في خراسان حيث موطن أخواله .

ظل الفضل بن سهل يحرك الأمور من وراء ستار قبل وصول المأمون إلى بغداد ، وطلب من المأمون تقسيم المهام الإدارية بين عدد من الرجال

البارزين ، ولكنهم رفضوا خوفا من التدخل بين الأخوين الأمين والمأمون ، فآلت السلطات إلى الفضل بن سهل .

ولقد رسم الفضل بن سهل الخطوط العريضة والمنهج العام لسياسة المأمون في خراسان ونصحه بالتودد والتقرب بين القادة العسكريين وإتباع سياسة مرنة مع ملوك المقاطعات من الفرس والترك في بلاد ما وراء النهر .

وكتب الفضل للمأمون وصية بها عدد من النصائح السياسية أعلنها المأمون على الناس في مرو بخراسان قال : -

" أيها الناس أنى جعلت الله على نفسي أن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمدا لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ولا آخذ مالاً ولا أثاثا ولا نحلة تحرم على ."

ويعتبر الفضل بن سهل والحسن بن سهل المسئولين عن الإجراءات الحربية التى وجهها المأمون إلى محمد الأمين في بغداد ، فقد عارضا قبول أي شرط من شروط الأمين، ونظم الفضل الجيش وأرسل أعوانه عيونا إلى بغداد تراقب تحركات جيش الخليفة، وكلف طاهر بن الحسين الفارسي بقيادة الجيش الخراسانى لملاقاة على بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين وانتصر جيش المأمون وقلد الفضل بن سهل الإدارة المدنية والعسكرية ولقب بذى الرئاستين رئاسة التدبير ورئاسة الحرب ، وصار الفضل بن سهل منذ ١٩٦ هـ وزيراً رسميا للخليفة المأمون .

ضرب الفضل السكة باسمه في الأقاليم الشرقية وعندما سقطت بغداد في يد طاهر بن الحسين ولي أخاه الحسن ولاية بغداد ، وقد ظهر اسمه إلى جوار اسم الخليفة على السكة مما يعنى أن وزارة آل سهل كانت امتدادا لوزارة البرامكة .

تولي الفضل بن سهل رئاسة حرس الخليفة وصـــاحب دولتـه وتمتـع بسلطات واسعة من أجل القيام بصلاح الدولة ٠

وقام الفضل بفتوحات عسكرية في الأقاليم الشرقية في الصغـد وأشـرو سنة وفرغانة أى في بلاد ما وراء النهر وأرسل هدايا كثيرة إلـى الخليفـة وإلى مكة لعرضها على الكعبة للدلالة على انتصار الفضل ٠

كان الصراع بين المأمون والأمين هو صراع بين الفضل بن سهل وبيـن الفضل بن الربيع وهو صراع بين الفرس والعرب ٠

استطاع الفضل بن سهل أن يقضى على الأمين ويسيطر علـى المـأمون سيطرة تامة حتى حجب عنه صحابته وأهل بيته وقطع عنه الأخبـار وبـدأ يستبد بالرأي دونه وإبقائه في مرو دون أن يحثه على الرجوع إلى بغـداد وعين أخاه واليا على بغداد مما أثار حفيظة الهاشـميين واشـتعلت عـدة ثورات ضد تسلط الفرس ٠

أبعد الفضل طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين عن بغداد وهـم القـادة العسكريون ٠

سار الفضل بن سهل سيرة تماثل البرامكة وتلتزم بقواعد الوزارة علـى النمط الفارسي إذ كان يجلس على كرسي مجنح يُحمل عليه إذا دخل علـى المأمون – يقول الجهشيارى :

واتخذ المأمون مرو مقرا له ولو مؤقتا مما دلل على ميولـه الفارسـية ومن ثم اندلعت ثورة في بغداد ٠

أراد الفضل بن سهل أن يجعل الخلافة كسروية فقد قال أحد المعـارضين لبيعة على الرضا أن الفضل بن سهل يختال " ليصير الملك كسـرويا " وأن الفضل كان راغبا في إعادة سلطة الفرس لأن نقل الخلافة إلى علوي معنـاه إبقاء مركزها في مرو لعدم رغبة أهل بغداد لمبايعة علوي ٠

الوزارة في عهد الفضل بن سهل صارت على شكل ونمط آخر غير ما كانت عليه قبل ذلك أراد الفضل الانفراد بالسلطة وأراد إحياء الوازرة على النمط الفارسي الساسانى حيث كان يجلس على كرسي خاص به يحمله شخصان من ذوى المراتب الكبيرة ، وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الأكاسرة ، وهذا يدل على إدخاله التقاليد الفارسية إلى البلاد ونزعته إلى التشبه بالفرس ونال الفضل شرف الوزارة والإمارة مما حيث جعله المأمون أميرا .. وقد عمل الفضل على أن ينسج مجد الفرس لا مجد العرب .

وفي سنة ٢٠٢ هـ قُتل الفضل بن سهل في مدينة سرخس أثناء عودته إلى بغداد في حمام شارك في قتله عدد من خدم المأمون ، وقد قتل المأمون كل من أشتبه به بالاشتراك في القتل .

ويرى البعض أن المأمون قتل الفضل بن سهل وعمل على وقف المد الفارسي في الإدارة والبلاط إلا أن هذا القول غير صحيح بالمرة حيث أنه استوزر الحسن بن سهل وتزوج من ابنته بوران .

الحديث حول الفضل بن سهل لا ينتهي ولكن المأمون لم يكن عدوا للفضل ولم يسع لقتله وإنما قتله أعداؤه ممن أبعدهم وقتل ذويهم .

وظلت الوزارة في آل سهل حيث نالها الحسن بن سهل أخو الفضل ويقول الجهشيارى:

وكانت دولتهم (بنو سهل) في جبهة الدهر غرة وفي مفرق العصو درة وكانت مختصرة الدولة البرمكية وهم من صنائع البرامكة .

ومن قراءة ملفات التاريخ نرى أن وزارة البرامكة وآل سهل كانتا أهم المعالم الوزارية التى تركت بصمة في التاريخ الإسلامي .

الوزارة بعد آل سهل :

وزر المأمون عدة وزراء كان أهمهم أحمد بن أبى خالد والذى رفض أن يسمى وزيراً .. ثم انتقلت الخلافة إلى سامراء في عهد المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، ثم عادت إلى بغداد . وكانت الوزارة تابعة للخلافة .

ضعف الخلفاء وأصبح الوزير صاحب نفوذ يعادل نفوذ الخليفة وتزيد وأصبح المنصب يشترى بالمال من الخليفة نفسه وكان من وزراء العصر العباسي الثاني عصر سيطرة الأتراك السلاجقة وبنى بويه : الوزير بن خاقان وعلى بن عيسى وحامد بن العباس وابن مقله .. وبعد ابن مقله لم يصبح للوزير شأن وحل محله لقب أمير الأمراء ، وكان أمير الأمراء يعين الوزراء ويعزلهم ومن هؤلاء الأمراء ابن رائق .

ضاعت هيبة الوزارة لدرجة أن الأمير معز الدولة البويهى ضرب وزيره أبا محمد المهلبى وهو من آل المهلب بن أبى صفرة - مائه وخمسين مقرعة ، ووكل به في داره ، ولكن لم يعزله من وزارته .

وفي عهد السلاجقة ظهر بعض الوزراء منهم أبو شجاع وكان يجلس للمظالم بعد صلاة الظهر في عهد المقتدى ، وقد اعتزل وزهد وأقام بالمدينة بالمسجد النبوي ، وكذلك ابن صدقه في عهد المسترشد .

خصائص الوزارة :

كان الوزير مقدماً على جميع القواد مع أنه ليس إلا رئيسا للكتاب ومع أن الدولة كانت تقوم على نظام ملكي إسلامي يشكل فيها الخليفة رأس الدولة ، وقد توفر في عهد الدولة العباسية النظام الهرمي المتدرج بالمناصب وهو نفس النظام القوي القائم في الشرق القديم .

وكان الوزير يرتدي ملابس خاصة أهمها دراعة وقميص ومبطنة وخف وأحيانا يلبس شاشيه وسيف بحائل ، وكان الخليفة يخلع عليه هذه الثياب والتي هي رسم الوزراء عند تقلده للمنصب ، فكان يركب الوزير من داره إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ثم يعود إلى داره وهم معه .

وكان من عادة بعض الوزراء أن يتبع نظاما يوميا فقد كان صاعدين مخلد وزير الموفق سنة ٢٧٥ هـ يصلي الفجر ثم يأذن للناس للسلام عليه ثم يركب إلى دار الخليفة فيمكث معه أربع ساعات ثم ينصرف إلى منزله ويجلس للنظر ف حوائج الناس حتى الظهر ثم يتغذى وينام وبعد العشاء ينظر في الأعمال السلطانية لا يبرح مكانه حتى يخطي جميع الأموال ما حمل منها وما انفق وما بقى ثم ينظر أمر ضياعه وأسبابه ويتقدم إلى وكلائه وخاصته بما يحتاج إليه ثم ينام ، كما كان ابن العميد ونظام الملك يسيران على برنامج خاص .

كان الوزير يحتفظ بصورة من الوثائق المهمة ويضعها في سجلاته وكانت تنقل إلى دار من يخلفه في الوزارة ، وكانت بعض الرقاع المهمة السرية تحتفظ في سقط خيزران يكتب عليه بخط الوزير : ما يحتفظ به من المهمات .

كان بباب الوزير رجال كثيرون لحراسته وحراسة داره كما كان بمجلسه غلمان مسلمون يسيرون بين يدي الوجوه من الناس ويخرجون بين يدي الوزير دائما يجرون سيوفهم والناس يشاهدونهم .

وكان للوزير بدار الخلافة دار يجلس فيها بمفرده بها خواصه وحواشيه حتى يستدعيه الخليفة ، وكان الوزير يجلس إلى الخليفة مواليا له يوجهه وهى عادة المرءوس بالنسبة لرئيسه .

لقد أدي هذا الوضع إلى ظهور طوائف من أصحاب المناصب وكان أبناء الوزراء هم الطبقة العليا ، كما كانت المناصب وراثية فقد تولى يحيى البرمكي ، وولداه جعفر والفضل وتولي الحسن بن سهل والفضل بن سهل وتولاها ابن مقله وولده وتولاها ابن العميد بعد ابنه وتولي من آل خاقان أربعة وزراء وكذلك من بنى الفرات أربعة وزراء كما تولى ابن العميد وولده وحفيده ، ومن بنى وهب تقلد عشرة منهم مناصب عليا وأربعة وزارات .

كان هناك وزراء للخليفة وآخرون للأمراء والولاة في الأقاليم والممالك التي ظهرت بعد ذلك في المشرق الإسلامي .

الدواوين

أولا : النظم السياسية والإدارية :

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذانا بغلبة الطابع الفارسي على نظم الحكم والإدارة للدولة العباسية ، فقد قامت في المجال الفارسي وعاشت وتنفست فيه ، وقد بلغ الفرس قبل الفتوحات الإسلامية مرتبة عالية في تنظيم الحكم وحين ترك العرب بعد الفتح ديارهم سارعوا في التأثر بهم في هذا التنظيم فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند مقتديا فيه بصنيع الساسانيين يقول ابن الطقطقى " لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة وهى خلافة عمر رضى الله عنه رأى أن الفتوح وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتباعد فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يضع وكيف يضبط ذلك وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له : -

" يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديوانا جمع دخلهم وخرجهم فيه لا يشذ منه شئ ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خَلل ، فتنبه عمر رضى الله عنه وقال :-

صفه فوصفه المرزبان . ففطن عمر لذلك ودون الدواوين وفرض العطاء وكان هذا الديوان الأصل الذي تأسست عليه الإدارة الحكومية للخلافة الإسلامية وارتضى عمر لولاته في الشرق أن يتعينوا في جمع الخراج بنفس عمال الفرس الذين كان يستعين بهم - الساسانيون في جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبرتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع وخاصة من حيث تقدير الخراج .

وبذلك استمرت في أيدي هؤلاء الدهاقين سجلات الخراج الإسلامي وظلوا يكتبونها بالفارسية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها في العراق كما أمر بتعريب الدواوين الرومية في مصر والشام ، وصدع الحجاج واليه على العراق بأمره فعربها ، غير أنها ظلت لا تعرب في خراسان حتى سنة ١٢٤ هـ وهى السنة التى أمر فيها نصر بن سيار بتعريبها هناك .

لم يتوسع عمر في الاقتباس من نظام الحكم الساسانى ولم يتعد اقتباسه ديوان العطاء، أما نظام الحكم الوراثي الذي كان متبعاً عند الروم فإنه لم يخطر بباله ، إذ بقيت الخلافة على أساس شورى إنتخابى تؤخذ فيه البيعة للخليفة حتى إذا كان عهد معاوية رأيناه يتأثر بهذا النظام الوراثي فيجعل الخلافة في بيته وتبعه مروان بن الحكم وأبناءه وتوسع معاوية بجانب ذلك في التأثر بنظام الدواوين الفارسية فأخذ ديواناً للخاتم وديوانا للرسائل محاكيا بذلك الدواوين الساسانية .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا النظم الفارسية تنتقل جميعها في كل شئون الحكم وكأنما أصبح الخليفة العباسي ملكا ساسانيا فهو يحكم حكما مطلقا وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما يطبع الحكم الساسانى ، إذا كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحماة له وحرسا عليه فقد كان العباسيون من بيت النبوة ، وكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سندا لهم فيما يزعمون، وهو باطل لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث ، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده ، ولم يرثها أبو بكر الصديق ، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث ، لما صح في الحديث النبوي من قوله عليه السلام " أنا معشر الأنبياء لا تورث وما تركناه فهو صدقة وإذا كان هذا الإرث ممنوعاً في الأعيان والأموال فمنعه على ولاية الأمة ألزم وأوجب إذ ينبغي أن يتولاها الكفء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر".

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بارث الرسول ، وأمضوا يحفظون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر في خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد ونعجب أن نرى بعض الفقهاء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم رؤساء غير شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية يساندونهم .

أخذ العباسيون يلقون في وعى الناس أنهم أصحاب حق ألهى في الحكم فهم سلطان الله في أرضه ، وأحاطوا أنفسهم على شاكلة الساسانيين – بنظام تشريفات معقد فمختفين عن أعين الناس وراء أستار ، ومتخذين كثيرا من الحجاب أو رؤساء التشريفات ، وبذلك لم يعد العرب يدخلون على الخلفاء كلما أرادوا كما كان الشأن في عصر بنى أمية بل لا بد لهم قبل الدخول عليهم من استئذان هؤلاء الحجاب ، وكان أكثر الحجاب من الأعلجم الذين احتكروا لأنفسهم أكثر شئون الحكم ، وكان الخليفة يستقبل من يدخل عليه وكبير حجابه في جانب ، وفي جانب آخر كبير حراسه المعروف بالجلاد والنطع دائما أمامه فمن غضب عليه أطاح برأسه توا .

أصبح الحكم العباسي حكما استبداديا ، لا يُحسب فيه للرعية حساب ، فهي أدوات مسخرة للحاكم ،وليس لها من الأمر أي شئ ففي يده كل الأمر وكل السلطان ، يولى الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق ويعزلهم جميعا حسب مشيئته وهواه وكان يختار الوالي غالباً من أهل بيته أو من أكفاء حاشيته وخاصة الأعاجم وكان أيضا يختار قواده من البيوت العربية التى لمعت في العصر العباسي بيت آل مهلب ومعن بن زائدة الشيباني .

اتسع الخلفاء في محاكاة الدواوين الساسانية ، وكان في كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية ويرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية " ديوانه الخاص به ، ويسمى

مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام أو بيت المال ، وقد ولي السفاح خالد بن برمك ديوان الجند الذي يعنى برواتبهم كما ولاه ديوان الزمام وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها . ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذي لعب دوراً خطيراً في نهضة النشر العربي وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء ، وكان بجواره ديوان الخاتم الذي تختم فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها ، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر في المظالم ورقاع أصحاب الشكوى ، وكانوا يسمونها باسم القصص وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة ، فجاراهم خلفاء بنى العباس على هذا الصنيع .

وكان هناك ديوان الخبر ، وتأتيه الأخبار بواسطة موظفين مهمتهم أن يوافوه بكل ما يجرى في الولايات من أحداث وأسعار وهم أشبه بمراسلة الصحف في عصرنا هذا ، وكانوا يحصون كل كبيرة وصغيرة للوالي ومن ورائه من قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم وهو بدوره يبلغها إلى الخليفة، وقد أحكم هذا النظام البريد أحكاما دقيقا ، فكان هناك رسل موقوفون على حمل تلك الأخبار في سرعة شديدة على خيل توجد في عدة أماكن على الطريق الممتدة من الولايات إلى بغداد ، وقد ألفت من أجلها كتب المسالك والممالك المشهورة لابن خرداذبه وغيره ، وهى كتب تفيض بوصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية لولايات الدولة وبلدانها شرقا وغرباً ليس هذا فقط ما أخذه العباسيون عن ملوك بنى ساسان من النظم الإدارية والسياسية ، فقد أخذوا عنهم أيضا نظام الوزارة وكلمة وزير عربية بمعنى الموازرة غير أنها أخذت شكلا جديداً منذ فاتحة العصر العباسي وصار بمعنى المستشار الأول للخليفة في إدارة شئون دولة ، وهى وظيفة كانت معروفة في الدولة الساسانية من أشهر وزراء الساسانيين بزرجمهر وزير كسري أنوشيروان .

وكان الوزير في الدولة الساسانية هو الوسيط بين الملك والرعية لاحتجاب الملك عن الرعية .

كذلك بفضل العباسيين يقول ابن الطقطقى " الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طباعه شطر يناسب طباع الملوك وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة .. والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في عهد دولة بنى العباس فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشية فإذا حدث أمراً استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى الوزير فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا وقلما نجد للعباسيين وزيرا غير فارسى وهو شئ طبيعى إذا كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينهم الساسانية ، وأول من اتخذه العباسيون وزيراً منهم أبو سلمة الخلال حتى إذا اقضي نحبه اتخذ السفاح بعده خالد بن برمك وكان قد حارب تحت لواء أبى مسلم في حروبه ضد بنى أمية وأظهر بسالة وحنكة حربية وهو ينحدر من أسرة كانت تقوم على سدنة معبد النوبهار البوذي في بلخ ، واتصلت وزارته في عهد المنصور وولديه في حكم الولايات وقيادة بعض الجيوش فأظهر كفاءة نادرة، وولى ابنه يحيى أذربيجان فنهض بولايتها خير نهوض ، وولى المهدى بعد أبيه المنصور فاستدعى يحيى إلى بغداد ، ووصله بابنه هارون كاتبا له ومستشارا ، وتوفي المهدى وولي بعده ابنه الهادي فحاول أن يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد غير أن يحيى البرمكى عرف بسعة حيلته كيف يصرفه عن فكرته وكان لذلك وقع حسن في نفس الرشيد ، حتى إذا آلت الخلافة إليه خاطبه بالأبوة وقال " ياأبت أنت اجلستنى هذا المجلس ببركة

رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فأحكم بما ترى واستعمل من شئت وأعزل من رأيت وأفرض لمن رأيت وأسقط عمن رأيت فأنى غير ناظر معك في شئ "ودفع إليه بخاتم الخلافة فصار بيده الحل والعقد فقلد إبنه الفضل المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك، وقلد أبنه جعفرا المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية ، وشخص الفضل إلى عمله فأزال ما وقع على الناس من ظلم ، وبنى المساجد وزاد في عطاء القواد والجند أما جعفر فأقام بحاضرة الرشيد وأرسل نوابا عنه إلى إقليم ولايته إذ إن الرشيد كان لا يطيق صبرا على بعده عنه.

ظل يحيى البرمكى وولده جعفر والفضل على شئون الدولة سبعة عشر عاما ، كانوا هم المتصرفين أثناءها بجميع شئون البلاد وأتاح ذلك لهم أن يصبغوها بصبغة فارسية خالصة حتى إذا كانت سنة سبع وثمانين ومائة نكب الرشيد نكبة المشهورة ، إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخوته ما عدا محمدا، ومات يحيى والفضل وابنه محبوس ، وسبب النكبة يختلف حوله المؤرخون منهم من أرجعه إلى أسباب شخصية وردها آخرون إلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان وكل أمر ونهى ، وردها آخرون إلى أن الرشيد وقف على ما كانوا يبطنونه من الزندقة ، ويبدو أن السبب الحقيقي هو إطلاق جعفر لأحد العلويين الثائرين من محبسه وهو يحيى بن عبد الله الذي كان الرشيد قد أمنه منه عليه فلم يوف أمانته .

وفي عهد المأمون نجد أسرة بنى سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة له، وتمكن بدورها التقاليد الفارسية في الحكم ، وأول من ولى الوزارة منهم الفضل بن سهل الملقب بذى الرياسين رياسة السيف والقلم ، وكان الفضل يعمل لدى يحيى بن خالد البرمكى ، وكان أبوه مجوسيا وأسلم وقد وقف بجوار المأمون حتى تولى الخلافة فاستوزره .

ولقد حاكى الفضل بن سهل وزراء الساسانيين فقد ذكر الجهشيارى أنه كان يجلس على كرسي مجنح ويحمل فيه فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذ وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ثم يسلم ويعود فيقعد على الكرسي ، وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسرة فإن وزيرا من وزرائهم كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين يدي الملك .

وكان من عادة ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة من في خدمتهم لبسه لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة فإذا جاء الرجل إلى الملك عرف بلبسته صناعته التى هو فيها ، وطبق العباسيون هذا الرسم على موظفيهم تطبيقا دقيقا حكى الجاحظ إذ يقول " ولكل قوم زي فللقضاة زي ولأصحاب القضاة زي وللشرطة زي وللكتاب زي وللجند زي وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب فمنهم من يلبس المبطنة ومنهم من يلبس الدراعة ومنهم من يلبس القباء ومنهم من يلبس البازكند ويعلق الخنجر ، ويأخذ الجرز ، ويتخذ الحمة ، وكان الفقهاء يلبسون المبطنة والطيلسان والقلانس .

والألفاظ الواردة في عبارة الجاحظ كلها فارسية فالدراعة جبة فارسية والقباء ثوب فارسي والبازكند كساء يلقى على الكتف والجرز آلة حربية والطيلسان ثوب فارسي والقلانس جمع قلنسوة غطاء فارسى للرأس .

فتقاليد الساسانيين حكيت حتى في أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقتهم ، وقد ترجم ابن المقفع الكتب والرسائل المتصلة بالحكم منها كتاب " آئين نامه " أي كتاب النظم ، ونقل وصايا الفرس في السياسة والحكم وأوردها في الأدب الصغير " والأدب الكبير " ورسالة الصحابة والصحابة المقصود بهم صحابة السلطان وحاشيته .

وقد نقل الطبري في تاريخه والجهشيارى في تاريخ الوزراء وابن قتيبة في عيون الأخبار هذه النصوص والوصايا التى جاءت عن الفرس في الحكم .

ولا نغلو إن قلنا أن النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية قد طُبعت بطوابع فارسية قوية ، تحولت في إثنائها الخلافة ملكا كسرويا يقوم على الإرث .

وفي أواخر الدولة العباسية حدث تحول خطير وهو الاعتماد على العنصر التركي والتخلص من العنصر الفارسي الذي قدم للحضارة الإسلامية كثيرا من الأفكار الفارسية في الحكم والإدارة ، وقد كان الفرس أصحاب حضارة ومدنية بنوها في الحياة العربية ، وأعدوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة اليونانية والفارسية .

إما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة إذ كانوا عشائر لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسية إنما هم " أصحاب عمد (خيام) وسكان خيام وأرباب مواشي وهم أعراب العجم فلم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا شق انهار ولا جباية ولم يكن همهم غير الغزو والإغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان .

لهذا لم يكن الترك أصحاب حضارة بل كانوا موغلين في البداوة ليس لديهم لا ثقافة ولا معرفة لهم بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا سلطان ولا سياسة وقد انعكس هذا كله على الحكم الإسلامي فأصابه بضربة قاسمة أرجعته مئات السنين ، وضيعت ما قام به المسلمون من دور في نظام السياسة والإدارة .

كانت دولة الخلفاء أشبه باتحاد [1] يتألف من ولايات كثيرة ، ولم تكن علاقة السلطة المركزية بهذه الولايات تشرف عليها دواوين إقليمية ، وإنما كان لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شئونها وكان كل من هذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الأصل ، وهو يختص بوضع الضرائب وحملها إلى بيت المال [2] ، وبمراقبة الضرائب وتقوية مواردها ، أي أن هذا القسم يختص بالإدارة ، وثانيهما الزمام [3] أو ديوان المال ، ولما جاء الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢م) ، وهو أقدر حكام القرن الثالث [4] ، ضم دواوين الولايات كلها ،وألف منها ديوانا سماه ديوان الدار [5] ، له ثلاثة فروع : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (أي العراق) . وكذلك وضع هذا الخليفة أزمة هذه الدواوين كلها في يد رئيس واحد [6] ، ثم جعل الأصول كلها في يد رئيس واحد في سنة ٣٠٠ هـ - ٩١٢م [7] بحيث جاء القرن الرابع الهجري ، وإدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين إحداهما للداخلية وهى ديوان الأصول والآخرى للمالية الأزمة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساما كثيرة تسمى دواوين أيضا ، لأنه كان لكل ناحية ديوانها . ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذي

---

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم متز من ١١١ -١١٩ .

(2) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (المتوفي عام ٢٣٧ هـ - ٩٤٨م) ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٩ ب - ١٠ أ . وكلمة أصل التي وردت في كتاب الوزراء (ص ١١) لها هذا المعنى .

(3) أنظر في هذا Amedroz. JRAS . 1913 . S . 829 ff وأيضا مسكوية ج٦ ص ٣٢٨ ، وكان يعين على الزمام عادة رجل من أصحاب المال . وكذلك كانت الدواوين الصغيرة التي تتولى إدارة ضياع نساء الخلفاء تنقسم إلى الفرعين المتقدمين ، وكان يتقلد كل واحد منهما رئيس .

(4) جاء في كتاب الوزارة للصابي (ص ١٨٩) أنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد وأبي القاسم عبد الله بن سليمان وأبي العباس ابن الفرات وبدر .

(5) كتاب الوزراء ص ١٣١ ، ويسمى أيضا ديوان الدار الكبير ، نفس المصدر ص ٢٦٣ .

(6) كتاب الوزراء ص ٧٧ .

(7) نفس المصدر ص ٢٧١ ، ١٢٤ .

يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه ، فإن كثيرا من دواوين الولايـات ببغـداد كانت تقوم مقام دواوين للدولة . ولم تصل الإدارة في الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة . وأستطيع أن أذكر منها : -

١- ديوان الجيش ، وله مجلسان : أحدهما مجلس التقرير والثاني مجلـس المقابلة . ويجرى في الأول أمر استحقاقات الرجال ، ومعرفـة أوقـات أعطياتهم ، وتقدير أرزاقهم، فأما الثاني فيختص بالنظر في السـجلات وتصفح الأسماء ، ونحو ذلك . وينقسم كل من المجلسين إلـى أقسـام خاصة بالعساكر ، مثل العسكر المنسـوب إلـى الخاصـة ، والعسـكر المنسوب إلى الخدمة ، وما في النواحي من البعوث [1] .

٢- ديوان النفقات في بغداد ، واكبر مهمامه حاجات دار الخلافة . وكـان أكثر أرض العراق مضمنا ، فكان على المتضمنين أن يقومـوا بالوفـاء بالنفقات . وهذا الديوان ينقسم إلى المجالس الآتية :

أ) مجلس الجاري ، ويختص بأمر استحقاقات الحشم .

ب) مجلس الإنزال ، وهو الذي يقوم بمحاسبة التجـار الذيـن يقيمـون الوظائف من الخبز واللحم والحيوان ، والحلوى والفاكهة ، وغير ذلك من سائر صنوف الاقامات والانزال .

ج) مجلس الكراع ، ويجري فيه أمر علوفة الكراع وغيره ، مثل الخيـل والشهارى والبراذين والبغال والحمير والإبل وغيره مما يعتلـف مـن الطير والوحش ، ويجرى فيه أمر سياسة الكـراع وعلاجـه ، وأرزاق القوام والراضة ونحو ذلك .

د) مجلس البناء والمرمة ، وهو مجلس يكبر ويصغر على حسب الخلفاء في الإغراق في البناء والاكتفاء بيسيرة ، ويجرى فيه محاسبة الـذراع

---

[1] كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ١٢ أ - ب .

والمهندسين وباعة الجص والآجر والنورة والأسفيداج وأصحاب الساج والنجارين والمزوقين والمذهبين وسائر الصناع .

هـ) مجلس الحوادث ، ويجرى فيه أمر النفقات الحادثة (أى غير العادية) في كل وجه من وجوهها .

و) مجلس الإنشاء والتحرير .

ز) مجلس النسخ [1] .

٣- ديوان بيت المال ، وهو في بغداد يشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال ، وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والاطلاقات ، ويجب أن تمر به الكتب التى فيها حمل مال ، قبل انتهائها إلى دواوينها ، لتثبت فيه ، وكذلك سائر الكتب النافذة إلى صاحب بيت المال من جميع الدواوين بالمطالبة بالأموال . ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك والاطلاقات يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها [2].

وفي عام ٣١٤ هـ - ٩٢٦ م صدر أمر بمطالبة صاحب بيت المال ببغداد بتقديم الروزنامجات في أسبوع للوزير ، ليستطيع معرفة ما حل وما قبض وما بقى ، وكان الرسم إذا علمت الختمة لم ترفع إلى الديوان عن الشهر الأول إلا في النصف من الثانى[3].

٤- ديوان المصادرين [4] ، وكانت الوثائق التى يدفع بمقتضاها في هذا الديوان تكتب على نسختين ، أحدهما للديوان والأخرى للوزير [5] .

---

[1] قدامة : نفس المصدر ص ٨أ - ٩ ب .

[2] نفس المصدر ص ٩ ب - ١٠ أ .

[3] ابن مسكويه جـ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

[4] كتاب الوزراء ص ٣٠٣، ٣٠٦ .

[5] ابن مسكويه جـ٥ ص ٢٦١ مثلا .

٥- ديوان الرسائل ، وكان يسمى في مصر على عهد الفـــاطميين ديـوان الإنشاء [1] . وكان صاحب هذا الديوان بمصر في أوائل القرن الخـــامس الهجري يتقاضى في كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، عدا ما كل يكتبه مـــن السجلات والعهودات وكتـــب التقليـدات ، فقـد كـان علـى رسـوم يستوفيها[2] .

٦- ديوان البريد ، وتأتى لصاحبه الكتب من جميع النواحي وهو المنفذ لـها إلى مواضعها، وهو يتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة ، أو يعمل جوامع لها ، وله النظر في أمر المرتبين في السكك ، ولا غنى له ، بعد أن يكون ثقة عند الخليفة ، عـن معرفـة الطرق والمسالك إلى جميع النواحي ، بحيث يجد عنـده الخليفـة مـن المعرفة ما يحتاج إليه عند إنفاذ جيش أو غـيره [3] . وكـانت معرفـة الأخبار وإبلاغها قد بلغت درجة عظيمة من الرقى في الدولة الإسلامية ، فقد حكى أن الخليفة الموفق أراد أن يشغل قلب أحمد بن طولون فـدس من سرق نعله من بيت حظية له لا يدخله إلا ثقاته ، ثم بعثها إليه ، فقال له الرسول : من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الـذي نعرفـه ، أليس هو بقادر على أخذ روحك ؟ [4] ، وكان صاحب البريد هو صـاحب الأخبار الرسمي ، وكان له " عيون " يوافونه بكل جديد ، وهذا مـيراث أخذه العرب عن البيزنطيين ، ففي عهد قسطنطين الأكبر كـان لصـاحب

---

(1) كانت لفظة الانشاء في المشرق من الألفاظ المستعملة في ديوان الرسائل ، وهو عمل نسخة يعملها الكاتب، فتعرض على صاحب الديوان ليزيد فيها أو ينقص منها أو ينفذها على حالها (أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبعة فان فلوتن ص ٧٨ ، وكتاب الوزراء ص ١٥١) .

(2) الارشاد لياقوت ج١ ص ٢٤٢ .

(3) كتاب الخراج لقدامة طبعة دى غوى ص ١٨٤ - ١٨٥، وقد كتبه قدامة حوالي عام ٣١٥ هـ - ٩٢٧م .

(4) الخطط للمقريزى ج٢ ص ١٨٠ .

البريد أعوان يسمونه باسم Veredarii (وهم نقلة الأخبار الذين يركبون الخيل) ، وكانوا يمدونه بالأخبار [1] . وكان بعض المتعلمين في ذلك الوقت يعيشون من نقل الأخبار كما هو الحال اليوم بالنسبة لمراسلي الصحف ومندوبيها [2]. وجاء في عهد بولاية بريد منا يوجب على صاحب البريد وأن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليه أمرهم ، ويتتبع ذلك تتبعا شافيا ، ويستشفه استشفافا بليغا ، وينهيه على حقة وصدقة . . وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري في أمور الرعية ، فيما يعاملون به ، من الإنصاف والجور والرفق والتعسف ، فيكتب به مشروحا . . وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ، وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه . . وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئا يثق بصحته . . وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله ، ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم ، وعدد السكك في جميع عمله واميالها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم ، وإلى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها

---

[1] وكان أحد أصحاب البريد بمصر في القرن الأول من الحكم الإسلامي يقوم رسميا بتبليغ أحوال رجال الشرطة .

[2] في القرن الثالث الهجري قطع لسان ابن بسام الشاعر لأن ولي البريد بجند قنسرين (مروج الذهب ج٨ ص ٢٧١ ، وإرشاد لياقوت ج٥ ص ٣٢٢ وما يليها) ، وكذلك كوفئ أحد الشعراء المجيدين بأن جعل في أعمال البريد ببلاد خراسان (يتيمة الدهر ج٤ ص ١١٢) ، وكان صاحب بريد نيسابور يملك من الكتب ما لا يملكه أحد في هذه المدينة ، مع كثرة نفاستها ، ويعتبر ابن خلدون المغربي أن صاحب البريد من بين [illegible] (المقدمة ج١ ص [illegible]) .

حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات الذي سبيله أن يرد السكة فيها ، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتبا بأعيانها ، فيفرد لأخبار القضاة وعمال المعاون والأحداث .. والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتبا ، ليجرى كل كتاب في موضعه "[1]، ولم يكن صاحب البريد يعنى فقط بالأخبار التى تتلق بمهام سياسة الدولة ، بل كان عليه أن يبلغ كل ما عدا ذلك من طرائف الأخبار ، فقد حدث في عام ٣٠٠ هـ ٩١٢م أن ورد كتاب من صاحب البريد من بلدة الدينور يذكر فيه أن الموكل بخبر التطواف رفع إليه يذكر أن بغلة لرجل وضعت فلوة، ويصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم لما عاينوا منه ويقول : " فوجهت من أحضر لى البغلة والفلوة ، فوجدت البغلة كمتاء خلوقية ، والفلوة سوية الخلق ، تامة الأعضاء ، منسدلة الذنب ، سبحان الملك القدوس لا معقب لحكمة ، وهو سريع الحساب " [2] .

٧- ديوان التوقيع ، وإليه تنتهي رقاع من يسأل شيئا عند الخليفة ، بعد أن يراها صاحب ديوان الدار ، ويقتص المسألة والرقعة ، ويشرح حالها ، وما لعله يكون قد جرى فيها ، وبعد أن يستطلع صاحب ديوان التوقيع رأى الخليفة فيها ، ويوقع عليها بخطة في ديوان التوقيع يرسل إلى صاحب ديوان الدار بنسخها أو اقتصاص ما تضمنت ، ومن ديوان الدار ترسل إلى صاحب الديوان الذي تجرى فيه المسألة (كالخراج أو المال أو النفقات .. الخ) [3] . وكان الفضل في أمر الرقعة يكتب على الرقعة نفسها توقيعا من الخليفة أو كتبه ، وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما

---

(١) كتاب الخراج لقامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٨ ب - ١٩ ب ، ويرجع تاريخ هذا العهد إلى عام ٣١٥ هـ .

(٢) عريب ص ٣٩ - ٤٠ .

(٣) كتاب الخراج لقدامة ص ١٩ ب - ٢٠ أ .

يمكن أن تبلغه من الاختصار • والبلاغة ، وإظهار ذكاء موقعها وقدرته على حسن الفصل وإصابة الغرض ، وكان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحيى البرمكى ، الذي كان يلي ديوان التوقيع للرشيد ، ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل أنها كانت تباع كل توقيع بدينار [1] •

٨- ديوان الخاتم ، وبه تمر وتثبت فيه الكتب التى يحتاج إلى ختمها بخاتم أمير المؤمنين، وذلك بعد أن يمر الكتاب على دواوين عدة وبعد المقابلة[2] •

٩- ديوان الفض ، ومنزلة هذا الديوان من الخليفة منزلة مجلس الإسكدار في ديوان الخراج من المتولي له ، لأن سبيل الكتب التى ترد من العمال في النواحي إلى أمير المؤمنين أن يكون ابتداؤها به وخروجها إلى الدواوين منه ، بعد فضها وأخذ جوامعها ليقرأها الخليفة ويوقع فيها بما تراه • وكان هذا الرسم جاريا في أول الأمر ، لما كان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في الكتب بأنفسهم ، ثم آل ذلك إلى الوزير ، فصار هو المتولي لفض الكتب وإخراجها إلى الدواوين ، وانتقل عمل ديوان الفض إلى حضرة الوزير ، وصار المتولي له كاتبا برسمه في دار الوزير [3]•

وفي حوالي عام ٣٠٠ هـ – ٩١٢ م قلد ديوان الفض وديوان الخاتم لرجل واحد ، وكان جاريهما أربعمائة دينار ودينار [4] •

١٠- ديوان الجهبذة ، ويجري فيه من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية ، وما يجري مجرى ذلك من توابع أصول الأموال ثم ما يزيده

---

(1) كتاب العمر ج ١ ص ٢٠٦ من طبعة بولاق •

(2) قدامة ص ٢٠ ب •

(3) نفس المصدر ص ٢١ب - ٢٢ أ •

(4) كتاب الوزراء ص ١٧٨ •

شرار الجهابذة من الفضول على هذه التوابع بسبب إعنات من عليه مال من أهل الخراج ومن يجرى مجراهم في النقود والصرف ، وما يرتفقون به من التقديم والتأخير عمن يتعذر عليه الأداء في وقت الطالبة .. فأن بعضهم لما وجد ذلك في بعض النواحي زاد في ضمان الجهبذة بتلك الناحية على من هو ضامن لها ، ووقع التزايد في هذه الوجوه بالظلم والعدوان على الرغبة وسائر من يقام لهم الجاري ، وتطلق لهم النفقة ، حتى توافى مال الجهبذة إلى جملة وافرة أصل أكثرها عدوان[1].

١١- ديوان البر والصدقات [2] .

وكان أصحاب الدواوين في أوائل القرن الرابع الهجرى على ثلاث طبقات[3]. وكان صاحب ديوان السواد يقبض أعلى مرتب بين أصحاب الدواوين ، وهو خمسمائة دينار في كل شهر ، وكان لصاحب ديوان المشرق أو ديوان الخاصة مثلا مائة دينار في كل شهر[4]. وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م) بلغت أرزاق أصحاب الدواوين كلها من أكابر الكتاب إلى الخزان والبوابين والأعوان ، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد أربعة آلاف وسبعمائة دينار في الشهر ، وذلك عدا ما كان يقبضه الوزراء ، وعدا أرزاق كتاب دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجلس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخزان بيت المال ، فإن هؤلاء يأخذون أرزاقهم مما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم [5] . فكانت المرتبات التى تقاضاها هؤلاء تتوقف على مقدار

---

(١) قدامة ص ١٢٣أ - ب .

(٢) ابن مكسويه ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٥٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٣١٤ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٠ - ٢١ .

يقظتهم وعنايتهم . على أن الأرزاق كانت تطلق في الأسبوع الأول من الشهر[1] ، وفي أوائل القرن الرابع ظهر رسم جديد ، ثم صار رسما كثيرا ما لجأ إليه الحكام ، وهو ألا يعطى أصحاب الأرزاق أعطياتهم عن السنة كاملة، ففي عام ٣١٤ هـ - ٩٢٦ م اقتصر في أرزاق معظم العمال على عشرة أشهر في كل سنة ، وكان صغار أصحاب الأرزاق أكثرهم عرضة للغبن ، فمثلا اقتصر في أرزاق أصحاب البرد والمنفقين على جاري ثمانية أشهر[2]. وكان يستعاض عما يفقده بعض أصحاب الدواوين بتقليده دواوين أخرى ، فمثلا في حوالي عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ م كل يتولى ديوان الأزمة والتوقيع وبيت المال رجل واحد [3] .

الخلاصة :

الديوان كلمة فارسية تعنى السجل أو الدفتر وله أصول أدق وأشمل حيث أنها تعنى مقر موظفي الحكومة ، فقد دخل كسري أنوشيروان على موظفيه ووجدهم يتحدثون بلغة لم يفهمها فقال " ديوان " أي شياطين أو ديوانه في رواية أخرى أى مجنون نظرا لعدم معرفة الرموز التى يتحدث بها الموظفون، ومن ثم أطلق اللفظ على مكان تجمع موظفي الحكومة .

يقول الماوردى : " والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال " وقال ابن الأثيرانه الدفتر الذي يكتب به أسماء الجيش وأهل العطاء .

كان عمر بن الخطاب أول من دون الديوان فعندما كثر المال واتسعت البلاد ووردت إلى المدينة أموال وفيرة لم يجد مكانا لوضعها فيه فاستشار

---

(1) نفس المصدر ص ٨١ .

(2) نفس المصدر ص ٣١٤ ، ومسكويه ج٥ ص ٢٥٧ .

(3) كتاب الوزراء ص ٧٧ .

أصاحبه فأشار إليه الهرمزان أحد قادة الفرس الذين أسلموا بأن الفرس لهم ديوان يسجل فيه أسماء الجند وأهل العطاء، فأنشأ عمر بن الخطاب الدواوين وقلد الفرس في هذا النظام وكان في عهده ديوانان هما : ديوان الجند وديوان العطاء وفي عهد بنى أمية تعددت الدواوين إلى خمسة وهى :

١- ديوان الجند .

٢- ديوان الخراج .

٣- ديوان الرسائل .

٤- ديوان الخاتم .

٥- ديوان البريد .

بالإضافة إلى عدة دواوين فرعية وفي عهد عبد الملك بن مروان ثم تعريب الدواوين باستثناء ديوان خراسان حيث ظل باللغة الفارسية حتى سنة ١٢٤ هـ .

وفي عهد العباسيين تعددت الدواوين وكثرت بسبب اتساع الدولة ومحاولة تقليد الدواوين الفارسية ومن الدواوين القائمة في عهد العباسيين:

١- ديوان الخراج : وهو يقوم بمراجعة حساب الدولة من الإيرادات والمصروفات .

٢- ديوان الزمام : دخل في عهد المهدى العباسى ويهتم بالمحاسبات والرقابة .

٣- ديوان الجند : يقوم بحصر الجند والعطايا المقدمة لهم .

٤- ديوان الموالى والغلمان : يسجل أسماء موالى الخليفة وعبيده .

٥- ديوان الرسائل : منه تصدر الرسائل إلى الأمراء والعمال .

٦- ديوان المظالم : ويهتم بالنظر في الشكاوى .

٧- ديوان الشرطة والأحداث . ويهتم بالأحداث التى تقع في البلاد وواجب الشرطة نحوها .

٨- ديوان الأكرية : يشرف على القنوات والـــترع والجســـور وشـــئون الرى .

٩- ديوان البريد : يهتم بإرسال البريد إلى الأمصار والولايات حتـــى أن البريد كان يصل في يومه إلى أقصى البلاد .

وعندما ضعفت الخلافة العباسية وسيطر بنوبوية والســـلاجقة انكمشـــت الدواوين إلى ثلاث هي : -

١ - ديوان المشرق .

٢ - ديوان المغرب .

٣ - ديوان السواد أي العراق .

الكتابـــة

كان الوزير في حاجة إلى من يقومون بمساعدته ومعاونته في الأعمال الموكولة إليه، وكان هؤلاء الموظفون من الكتاب والحجاب وأصحاب الدواوين ٠

من المعروف أن السواد الأعظم من العرب كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة ، والذين عرفوها في صدر الإسلام لم يكن إلا قلة نالوا مكانة رفيعة في المجتمع والدولة الإسلامية وهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وزيد ابن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وعثمان بن عفان وسعيد بن العاصي والمغيرة ابن شعبة ويلاحظ أن أربعة منهم صاروا خلفاء ومن تبقى تقلد مناصب القيادة والإدارة والولاية ٠

وعندما جاء الإسلام أتخذ النبي عدداً من المسلمين لكتابة الوحي وهم المعروفون بكتاب الوحي ممن عرفوا القراءة والكتابة ، وفي عهد أبي بكر الصديق كان عثمان بن عفان كاتبه واتخذ عمر بن الخطاب زيد بن ثابت وآخرين كُتابا له واتخذ عثمان مروان بن الحكم واتخذ علي بن أبي طالب عبد الله بن أبى رافع ٠

وحتى ذلك الحين كان الكاتب أكثر علما وثقافة ومعرفة بفنون الكتابة وبالمعارف ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية تعددت مصالح الدولة وتعدد الكُتاب فصار هناك عدة كُتاب :

١ – كاتب الرسائل الذي يتولى كتابة الرسائل إلى الولاة والعمال والملوك والأمراء ٠

٢ – كاتب الشرطة ويكتب تقارير الأمن وأحوال القوم وما يجرى في البلاد فيما يتعلق باستقرار الأمن ٠

٣- كاتب الجند : يقيد أسماء الجند وأعطياتهم ونفقات كل واحد ودرجتهم وأسلحتهم .

٤- كاتب الخراج : يدون الخراج - وما يرد إلى خزانه الدولة .

٥- كاتب القاضى : يكتب الشروط والأحكام .

وفي زمن الخلافة العباسية ، نال الكاتب منزلة رفيعة وكان ديوان الرسائل من أهم الدواوين بل يصل إلى مرتبة الوزير عند الخلفاء ، لقد كان منوطا به إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل وختمها بخاتم الخليفة بعد اعتمادها منه وكان عادة من رجال الأدب أصحاب المعرفة الواسعة والأسلوب الجيد ، ومن مشاهير الكتاب : يحيى بن خالد والربيع بن يونس والفضل وجعفر ولدا يحيى البرمكى والفضل بن الربيع والحسن بن سهل ومحمد بن عبد الملك وكلهم تقريبا من الوزراء المبرزين .

اتخذ الأمراء والولاة في الأقاليم كتابا لهم ، وكان لسلاطين بنى بويه وعمال الأقاليم من يعاونهم في الإدارة ، وكان هؤلاء الكتاب بمثابة وزراء لهم .

الحجابـــــة

الحاجب هو الذي يقف بباب الخليفة فينقل إذنه للناس بالدخول عليـــه ، ولم يكن في عهد الراشدين حجابه ، لأن الحاجب مـــن الحجـــب والخلفـــاء الراشدون لم يحجبهم حاجب عن الناس .

وفي عهد الخلافة الأموية اتخذ الخلفاء حجابا تلافياً لازدحام الناس علــى أبوابهم ، والحاجب منصب عظيم في الدولة ، يتم اختياره من بين أخلـــص المعاونين .. ففي وصيته لعبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيـــز والـــى مصر قال له : -

وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولســـانك ، ولا يقفــن ببابك إلا أعلمك مكانة لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده .

عندما تلقى العباسيون الخلافة تطورت وتعقدت كل شئون حياتهم ، فاتخذ العباسيون حجابا وأصبح للخليفة حاجبان وزادوا ثلاثة فـــي أواخـــر عـــهد الدولة العباسية .

والحاجب في عهد العباسيين كان منصبا خطيرا ربما يؤدى بصاحبه إلـــى الوزارة كما فعل بالفضل بن الربيع الذي وصل إلى الـــوزارة بعـــد الإيقـــاع بالبرامكة .

واتخذ ولاة الأقاليم حجابا لهم من أهل البلاد ومن ذوى المكانة فيها فكان لوالى مصر أو خراسان حاجب يقف ببابهما .

والحاجب يعلم أسرار الدولة ودقائقها وهو كاتم لها ومحافظ عليها طالمـــا كان من مؤيدي الخليفة أو الوالي .

الفصل الثامن

معالم الحضارة الإسلامية

في

العلوم التطبيقية والبحتة

أسهم المسلمون في بناء الحضارة الإنسانية بما قدموه لها في مجالات العلوم التطبيقية والبحتة في مجالات الطب والفلك والهندسة والرياضيات والكيمياء وعلوم الطبيعية والأحياء .

كانت أوربا في القرون الوسطى تعيش حالة من التأخر ، حيث كان الجهل يخيم على أهلها ، حتى دق المسلمون أبوابهم في اشبيليه وقرطبة وغرناطة ومالطة وقبرص ، وبدأ الرحالة المسلمون يجوبون تلك البلاد ويحملون لأوربا أخبار المسلمين .

ففي الوقت الذي كان فيه علماء الإسلام يتحدثون ويتباحثون في مدارسهم العلمية قضايا كروية الأرض ودورانها والأجرام السماوية والكواكب العلوية والجاذبية الأرضية ، كانت عقول الأوربيين تمتلئ بالخرافات وتعيش حالة من التخلف وتعشش فيها الجهالات والخرافات .

كانت الكنيسة تهمين على الحياة ، وكانت تقتل علماءها بحجة مخالفة تعاليم الكنيسة ، وكانت محاكم التفتيش في أوربا تطارد رجال الفكر والفلسفة والعلم ، ولقد أحرقت بعضهم وهم أحياء أمثال جون هس وجيروم البراجي وجان دارك وبروتو وسجنت بيكون وجاليلو ولم تكتف الكنيسة بمطاردة رجال الفكر والعلم والإصلاح في أجسادهم وأرزاقهم بل صادرت مؤلفاتهم وكتبهم وآراءهم وأحرقت كتبهم حتى لا يطلع عليها الناس . ومن

الآراء التى عوقب أصحابها القول بدوران الأرض وتحريم الصور وحرية الإنسان في فهم الكتاب المقدس دون وساطة القس .

وفي المقابل كانت حلقات العلم والمناظرة ومدارس الفكر تملأ المدن الإسلامية ، وكان الخلفاء يجعلون قصورهم مكانا لعقد حلقات العلم والمعرفة فظهر العلماء الأفذاذ في كل العلوم والفنون والآداب .

ففي مجال العلوم التطبيقية والبحتة نجدهم قد حققوا مكانة عالية نرصدها في الصفحات التالية .

١- في مجال الطب

كان الطب من العلوم التى استرعت انتباه علماء المسلمين ، فعكفوا يؤلفون ويصنفون الكتب التى جاءت لتعبر عن الحياة العلمية الطبية لهم وخلاصة تجاربهم .

قبل الإسلام لم يكن العرب يهتمون بتطبيب أنفسهم بقدر اهتمامهم بالعناية بحيواناتهم ومن ثم كان الطبيب العربي الشاعر الحارث بن كلده واحدا من أشهر الأطباء الذين تعلموا في مدرسة جند يسابور ببلاد فارس وعاد ليطبب العربي وحيواناته .

لقد أوصى الحارث بن كلده بحفظ الصحة بالحجامة والحقن وعدم الاستحمام بعد تناول الطعام وفي ذلك يقول ردا على كسرى انوشيروان عندما سأله : ما الجمرة التى تصطلم فيها الادواء ؟ قال هى التخمة ، إن بقيت في الجوف ثقلت وان تحللت اسقمت ، فسأله عن دخول الحمام فقال له: لا تدخله شبعانا ، ولا تغش أهلك سكرانا ، ولا تقم بالليل عريانا ، ولا تقعد على الطعام غضبانا فسأله عن الدواء ، فقال : مالزمتك الصحة فاجتنبه فإن هاج داء فأحسمه بما يردعه قبل استحكامه فان البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت وأن تركتها خربت ، فسأله أى اللحمات أفضل ؟ فقال الضأن الفتى والقديد المالح مهلك للآكل واجتنب لحم الجذور والبقر .

فسأله عن الفواكه ؟ فقل : كلها في اقبالها وحين أوانها واتركها إذا ادبرت وولت . .

كان هذا الإعرابي قبل الإسلام على الرغم من أن الاهتمام بالطب كان ضعيفا لعدم إحتياجهم له .

وبعد الإسلام نال الطب الاهتمام والعناية واشتهر الجراحون والكحالون وأصبح أطباء العرب أصحاب شهرة عالية ونقلت مؤلفاتهم إلى اللاتينية .

كان الطبيب العربي كلما وصف ذلك في مؤلفاته يجس النبض ويحلل البول ويتتبع تاريخ المريض والعلل التى انتابته في حياته ويهتم بمعرفة الأصول الصحية للأسرة وعادات وطرق المعيشة ومناخ البلد ويفحص لون الجلد والتنفس والعينين ولهذا برعوا في التشخيص .

ومن أشهر أطباء المسلمين الرازي وابن سينا وابن زهر وأبو القاسم الزهراوى وابن رشد وابن النفيس .

أبو بكر محمد بن زكريا الرازى من مدينة الري من أعمال فارس عرف بجالينوس العرب ، كان مؤسسا لمستشفى الري ثم بغداد ، اشتهر بأنه أول من خاط الجروح الباطنية بأوتار العود وقد ألف كتبا ظلت تدرس في أوربا زمنا طويلا ، أهمها كتاب الحاوي وهو أوسع دوائر المعارف الطبية . . وقد تحدث فيه عن أمراض الرأس (السكتة والفالج وأمراض العصب والصرع والتشنج والكزاز) وقد وصف أعراض كل مرض وعلاجه . .

وله كتاب عن الجدري والحصبة استفاد منه كل من جاء من بعده فهو أول مكتشف لتلك الأمراض .

وقد شخص الرازى تجاوب العين (بؤبؤ العين) مع الضوء ، ضيقا واتساعا ، وعالج الحمى الناشئة عن الالتهابات بكمدات الماء البارد .

اعترف بفضله الأوربيون والأمريكيون فخصصت جامعة برنستون الأمريكية أفخم ناحية من ابنيتها باسم الرازى .

والرازى ليس طبيبا فحسب بل كان كيميائيا وصيدلانيا وهو أول من ربط بين النظرية والتطبيق وأظهر أثر التفاعل الكيماوي على الجسم ..

وقد قسم المواد الكيماوية إلى أربعة أقسام :

١-مواد معدنية .

٢- مواد نباتية .

٣-مواد حيوانية .

٤-مواد مشتقة .

أما ابن سينا أبو علي الحسن بن عبد الله ابن سينا من قرية افشنه من قرى بخاري فقد كان حكيما فيلسوفا ورياضيا وطبيبا ، وكتابه القانون من اشهر الكتب التى وضعت قواعد الطب وقد استخدم للتدريس في جامعات فرنسا وإيطاليا لمدة ستة قرون .

الكتاب في خمسة أجزاء : هي علم وظائف الأعضاء وعلم الأمراض وعلم المعالجة والمادة الطبية .

كانت لابن سيناء الطبية القيمة حيث قرن بين التهاب الحجاب وبين ذات الجنب وأشار إلى عدوى السل الرئوي وانتشار الأمراض عن طريق الماء والتراب وعرف التهاب السحايا والتهابات الصدر المختلفة وخراج الكبد ووصف اليرقان والسكتة الدماغية وعرف العقاقير المنشطة للقلب .

كان طبيبا نفسيا أيضا سبق فرويد في العلاج بالتحليل النفسي ، فقد عالج فتى حار الأطباء في علته ولذلك يقول في علاقة الروح بالجسد قصيدته العينية :

هبطت إليك من المحل الأرفع

ورقاء ذات تعزز وتمنع

وصلت على كره إليك وربما

كرهت فراقك وهى ذات توجع

تبكي إذا ذكرت عهود بالحمـــى
بمدامع تهمي ولم تتقطـــع

إذا عاقها الشرك الكثيف وصدها
قفص عن الأوج الفسيح المربع

فلأى شـــئ أهبطت من شامـــخ
عال إلى قعر الحضيض الأوضع

إن كـــان أهبطها الآلـــة لحكمـــة
طويت عن الفذ اللبيـــب الأروع

وهبوطهـــا إن كـــان ضربة لازب
لتكـــون سامعة بما لم تسمـــع

أنعم برد جواب مـــا انـــا فأحض
عنـــه فنار العلم ذات تشعشع

ويقول في الطب الوقائي :

احفظ أخي وصيتي وأعمل بهـــا
فالطب معقود بنص كلامـــي

لا تشرب عقيـــب أكل عاجـــلا
فتقـــود نفســـك للأذى بزمـــام

وأجعل طعامـــك كـــل يوم مرة
وأحذر طعامك قبل هضم طعام

إن السعـــادة صحـــة وصيانـــة
فأحفظ رعاك الله نصح إمـــام

أما أعظم الجراحين المسلمين أبو القاسم القرطبي المعروف بـــالزهراوى فقد كان بارعا في الطب والجراحة وله كتاب بعنوان " التصريف لمن عجـــز عن التأليف " مكون من ثلاثة أقسام : -

١-قسم باطني .

٢-قسم صيدلي .

٣- قسم جراحي .

ويتحدث الزهراوى عن تعقيم الجراح وتطهيرها بالكي وبالقوابض (المواد المرة التى تقلص الأجسام وتشدها) .

وقد رسم أبو القاسم الزهراوى أدوات الجراحة التى استعملها ، وظلت كتبه تدرس في أوروبا لمدة ستة قرون . ووصف الزهراوى كيفية تفتيت الحصاة في المثانة .

وكتاب الزهراوى مكون من واحد وعشرين جزءا في فنون الطب والجراحة وبه أكثر من مائتي شكل للالآت والأدوات الجراحية .

طبع الكتاب بترجمته اللاتينية سنة ١٤٩٧ م واعتبر المصدر الأساسي لجميع الجراحين في أوربا .

ومن الأطباء المسلمين ابن النفيس أحد أطباء دمشق في القرن السابع الهجرى له كتاب " شرح تشريح القانون " ولقد وصف الرئة وصفا دقيقا ، واكتشف الدورة الدموية ووصفها وصفا دقيقا قبل أن يكتشفها سرفينوس البرتغالى بثلاثمائه سنة ، وأجرى كثيرا من التجارب وأثبت أن الدم ليس سائلا مستقراً في الأوردة والشرايين بل هو سائل متحرك يدور في أنحاء جسم الإنسان .

ومن الأطباء المسلمين أيضا ابن زهر الأندلسي الذي أدخل الظواهر العلمية في الطب، وهو أول من جمع بين الطب والجراحة والصيدلة .

أما ابن رشد الذي شرح أرسطو فاشتهر بالفلسفة دون الطب فقد شرح قانون ابن سينا وشرح كتابات جالينوس وله مؤلفات عن الترياق والسموم والحميات ، وله كتاب في الطب يدعى " الكليات " .

أما في طب العيون فهناك على بن موسى صاحب كتاب " مذكرات لأطباء العيون " الذي تحدث عن إزالة المياه البيضاء بالشفط (الكاتاراكت) وأول من أخترع الإبرة المجوفة .

لم ينصب اهتمام علماء المسلمين بالطب والجراحة والعيون فحسب بل اهتموا بما يتعلق بها مثل المستشفيات والصيدلة .

* المستشفيات :

أهتم المسلمون بالمستشفيات التى عرفت باسم البيمارستان (كلمة فارسية تعنى مكان المرضى) أهم المستشفيات مستشفيات الجذام ومستشفيات المجانيين والمستشفيات العسكرية ومستشفيات السجون والمستشفيات المتنقلة ومحطات الإسعاف والمستشفيات العامة .

كان أول من بنى مستشفى هو الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك في دمشق وزودها بالأطباء .

وفي عهد الخلافة العباسية كثرت المستشفيات في بغداد والأمصار وبنى الرشيد والمعتضد والمقتدر العباسى ومعز الدولة بن بويه وأخوه عضد الدولة عدة مستشفيات ، بنى الأمويون في مصر مستشفي الفسطاط ثم بنى الفتح بن خاقان (وزير المتوكل) مستشفي الفسطاط ثم بنى أحمد بن طولون المستشفي الأعلى كما بنى كافور الاخشيدى الأسفل وبنى صلاح الدين الأيوبي المستشفي الناصري في القاهرة وبيمار ستان الأسكندرية كما بنى نور الدين بن محمود زنكي المستشفي النورى الكبير بدمشق .

أنواع المستشفيات :

١- مستشفي الجذام :

كان المجذومون يجمعون ويعزلون عن المجتمع حتى لا يسرى داءهم إلى غيرهم ثم يعالجون وكانت أولى مستشفي للجذام قد بنيت في عهد الوليد بن عبد الملك قبل أن يبنى أول مستشفي في أوربا بخمسة قرون .

٢- مستشفي المجانين :

كان المجانين لهم أجنحة خاصة في المستشفيات العامة أو مستشفيات خاصة بهم في أماكن مناسبة للعلاج النفسي والعقلي في الوقت الذي كانت أوربا تداوى المجانين بالضرب المبرح .

٣- المستشفي العسكري :

أقيمت مستشفيات عسكرية توافق الجيش ومزودة بالأطباء والممرضات لعلاج الجند ، ومن المستشفيات العسكرية مستشفي السلطان محمود السلجوقى التى كانت تنتقل على أربعين جملا .

٤- مستشفي السجون :

أُقيمت وحدات علاجية للمساجين في بغداد في العصر العباسي .

٥- المستشفيات المتنقلة :

كان الأطباء يتنقلون بين المدن والقرى والمناطق النائية لعلاج المرضى وكان ذلك منذ العصر العباسي .

٦- محطات الإسعاف :

وكانت تقام بالقرب من الجوامع وأماكن تجمع الناس ، وقد أفرد ابن طولون في مسجده مكاناً خاصاً للإسعاف عليه أطباء يتناوبون .

٧- المستشفيات العامة :

لم تخل مدينة كبيرة من مستشفي في الشرق الأوسط أو الغرب وكان الخلفاء والولاة يتبارون لإقامتها ويوقفون عليها الأوقاف .

٢ – علم الأدويه (الصيدلة) :

كان لعلماء المسلمين أثر كبير في ميدان الصيدلة وتركيب الأدوية فقد استطاعوا أن يتوصلوا إلى طرق التقطير والتكليس والتحويل والتبخير والتبلور وهم الذين اكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر ونترات الفضة والراسب الأحمر والبورق وحامض الطرطير وملح البارود والزرنيخ وزيت الزاج والبوتاس وروح النشادر واستطاع المسلمون أن يكتشفوا الأدوية التى تعالج الأمراض ومن النباتات التى عرفوا فضلها السنامكى والكافور والصندل والراوند والمسك وجوز الهند والتمر هندي والحنظل وجوز الطيب والقرفة وهم الذين اخترعوا الأشربة كالكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية .

المسلمون أول من استعمل الترياق واستخدموا الحشيش والأفيون للتخدير .

كان المسلمون يجلبون الأشياء والمواد المستخدمة في صناعة العقاقير ويقومون بصناعة الأدوية ، وعلاج المرضى بها ، وكانوا قد فرضوا على الأطباء أن يكتبوا الوصف للمريض من الأودية في ورقة خاصة كانوا يسمونها تذكرة أو الصفة أو نسخة أسس المسلمون الصيدليات التى تدفع الأدوية وكان يقوم عليها شخص يدعى " أمين " .

ووصف لنا الصيادلة المسلمون النباتات والأعشاب وكيفية التحضير في كتبهم ، ورسموا صورا لها ومن كتبهم :

– تذكرة داود : وهو كتاب ضخم معروف كان مرجعا للصيادلة في القرون الماضية مرتبة أبجديا ومؤلفه داود الانطاكي وله كتب أخرى منها :

– " البهجة والدرة المنتجة فيما صح من الأودية المجربة " و" غاية المرام فى إصلاح الأبدان " . وقد استفادت شركات الأدوية الأوربية والأمريكية من كتاب داود .

- كتاب " منهاج الدكان ودستور الأعيان لداود ابن أبى النصر من علماء القرن السابع الهجري وكتاب الرحمة في الطب والحكمة وفيه أدوية لعلاج داء الثعلبة في الشعر والبهاق وأوجاع الظهر والمفاصل وضيق التنفس وعلاج الحروق وعلل الكبد والطحال وطرق الفصد والحجامة وحصى المثانة والبول الدموي وعلاج البواسير .

وكان جابر بن حيان أعظم علماء الأدوية والصيدلة المسلمين فهو الذي استحضر الحامض الكبريتى بتقطيره من الشبه واسماه " زيت الزاج " وأول من إكتشف الصودا الكاوية واستحضر ماء الذهب وأدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالخل بواسطة الحامض وهى الطريقة المستخدمة حتى الآن في تقديرات عيار الذهب .

ومن المركبات التى استحضرها جابر بن حيان كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم واستعمل ثاني أوكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج ودرس خصائص ومركبات الزئبق واستحضرا بعضها في تحضير الأوكسجين . .

ولجابر بن حيان كتاب عن السموم بعنوان " السموم ودفع مضارها " والكتاب في خمسة فصول = الأول في أوضاع القوى الأربع وحالها مع الأودية المسهلة والسموم القاتلة وحال تغير الطباع والكيموسات المركبة .

والثاني : في أسماء السموم ومعرفة الجيد من الردىء وكمية ما يسقى من كل واحد منها وكيف يسقى ووجه إيصالها إلى الأبدان .

والثالث : في ذكر السموم العامة .

والرابع : في علامات السموم المسقاة .

والخامس : في ذكر السموم المركبة .

وقد قسم السموم إلى حيوانية ونباتية وحجرية . ومن علماء الأدوية ابن أبى أصيبعة وابن البيطار .

٣- في مجال علوم الرياضيات والفلك :

كانت الرياضيات والفلك من العلوم التى أحبها المسلمون ووضعوا القواعد الأساسية للحساب والهندسة والجبر والفلك وعلم الهيئة ففي الحساب تستخدم الإعداد وطريقة الحساب التى اخترعها المسلمون كما اخترعوا الجبر وعندما انشأ المأمون دار الحكمة ضم إليها محمد بن موسى الخوارزمي وكتبه عن الجبر معروفة باسم الجبر والمقابلة كما وضع الخوارزمي أسس اللوغارتيمات .

كان الخوارزمي من أفضل العقول العلمية من المسلمين وهو بلا شك الرجل الذي أثر أبلغ التأثير في الفكر الرياضي طيلة العصور الوسطى .

كما كان حساب المثلثات وهو أحد فروع الرياضيات يحظى باهتمام المسلمين لاستخدامه في علم الفلك ، كما كان اختراع الصفر أو نقله عن الهنود بواسطة محمد بن أحمد انقلاباً في عالم الرياضيات .

ولقد ارتبطت العلوم الطبيعية بالرياضيات ولهذا نجد أن علماء الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلك هم أنفسهم أمثال بن الهيثم والخوارزمي والبيرونى .

عرف المسلمون الحساب من المصدر " حسب " ومعناه العد والعدد ، وأطلعوا على الحساب عند الفرس والهنود وأخذوا نظام الترقيم وهذبوه وكونوا منه سلسلتين :

١- سلسلة تعرف بالأرقام الهندية .

٢- سلسلة تعرف بالأرقام الغبارية نسبة إلى الغبار الذي يحتاج للرسم .

الأولى هو الحساب الذهني الذي لا يحتاج لأدوات والثاني يحتاج إلى أدوات كالقلم والورق واستعمل المسلمون الصفر ووضعوا علامة الكسر العشري والنظام العشري .

أما في علم الجبر وهو العلم الذي تستخرج به المجهولات باستخدام حروف وأرقام وعلامات وقد استخدم لفظ الجبر أيضا في اللغات الأوربية اعترافا بأنه من عند المسلمين ٠

وعالم الجبر هو الخوارزمي الذي ترأس بيت الحكمة في عهد الخليفة المأمون وله كتاب الجبر والمقابلة والذي يعد أساسا لعلم الجبر ٠

وقد نقل كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي إلى اللاتينية على يد شستر وأصبح أساسا للدراسة والبحث عند الأوربيين في هذا المجال من الرياضيات ، وقد وضعت شروح كثيرة لهذه الكتاب ٠

أما في علم الهندسة وفروعها فقد برع فيها المسلمون لحاجتهم لعلم المساحة المرتبط بمسح الأرض وقياسها من أجل تقسيم المزارع والبساتين بعرض جمع الخراج ٠

حفظ المسلمون الهندسة بعدما أهملتها الشعوب الأخرى وحافظوا عليها من الضياع وكان الاهتمام منصبا على الناحية العلمية وليست النظرية والدليل على ذلك المباني والقصور والمساجد الرائعة التى تمثل حضارة المسلمين ٠

كانت الزخارف والنقوش والزينة قائمة على أسس هندسية ومن ثم استفاد المسلمون من هذا العلم ، وظهر مهندسون أكفاء لتنفيذ الأعمال الهندسية والبنائية الرائعة وقد كتب أحمد تيمور باشا كتابا بعنوان " المهندسون في العصر الإسلامي " ذكر فيه مواد البناء والمصطلحات الهندسية وأنواع المعادن وأعلام المهندسين في العصور الإسلامية ٠

أما في علم حساب المثلثات وهو فرع من علوم الرياضيات فقد أهتم به المسلمون لدراسة المساحات الكبيرة والمسافات البعيدة ودراسة الفلك والاهتداء في الملاحة ٠

وعلم المثلثات من العلوم التى عنى بـها المسلمون وأدخلوا عليه تحسينات كثيرة أكتسب بها شكلا جديدا وصار صالحاً لتطبيقات كان الإغريق لا يقدرون عليها إلا بشق الأنفس .

وقد جعل المسلمون علم المثلثات علما مستقلاً بين العلوم الرياضية الأساسية ويعتبره الكثيرون علما إسلاميا .

أما في علم الفلك (علم الهيئة) فقد برع المسلمون في إنشاء المراصد العلمية والفلكية ووضعوا النظريات وجداول الكواكب والنجوم ومساراتها .

عرف المسلمون علم الهيئة بأنه العلم الذي يبحث في الأجرام السماوية من حيث الكيفية والوضع والحركة اللازمة لها .

اهتم الخليفة المأمون بعلم الفلك فترجم كتب المجسطي وأقام المراصد في بغداد وسمرقند ، وقام أولاد موسى بن شاكر (محمد وحسن وأحمد) بقياس عرض بغداد فقيدوه ب٢٣ درجة و٢٠ دقيقة أي برقم يصح بإضافة عشر ثوان تقريبا وقد رصدوا انحراف (سمت الشمس) ووضعوا تقاويم المنازل السيارات .

٤- الجداول الفلكية :

سميت باسم (الأزياج) مفردها زيج وهى جداول تقوم على قوانين عددية تبين حركة كل كوكب ويعرف منها مواقع الكواكب في أفلاكها ومنها أيضا تعرف تواريخ الشهور والأيام والتقاويم المختلفة وأشهر الأزياج : -

زيج إبراهيم الفزارى وزيج الخوارزمي وزيج الطوسى وزيج الشامل لأبى الوفاء وزيج ايلخانى .

وقد حول الفلكيون المسلمون العلم من تنجيم إلى علم له أصول وقواعد ومن أعلام المسلمين في الفلك :

١- نصير الدين الطوسى الذي رافق هولاكو في حملته على بغداد وبنى مرصد مراغة ولمع اسمه حتى صار حاكما على بغداد ثم وضع عدة

مؤلفات في الفلك أهمها زيج ايلخانى ، أما مرصده فقد جمع فيه علماء الفلك المؤيد العوضى من دمشق والفخر المراغى من الموصل ونجم دبيران من قزوين ومحي الدين المغربي ، كما زوده بالالآت وأقام به مكتبة ضخمة .

وقد بلغ علم الفلك عند المسلمين مبلغه في القرن العاشر الهجري حيث تعددت المراصد وظهر العديد من العلماء في القاهرة وبغداد ودمشق وقرطبة وسمرقند وبخاري ودهلى وتبريز واشبيلية وطليطله .

٥- العلوم الطبيعية :

أثبت المسلمون كفاءتهم في دراسة العلوم الطبيعية ، وقد ترجمت كتاباتهم إلى اللغة اللاتينية واليونانية ، ومازالت الأسماء التى وصفوها كما هى في الترجمات الأوربية .

والمجالات التى تحدثوا عنها في الضوء والصوت وعلم طبقات الأرض وعلوم الأحياء والكيمياء (الصنعة) وغيرها من العلوم .

وعلم الضوء عند المسلمين يسمى بالبصريات وهو يدور حول الوضع الظاهري للصور في المرايا والانكسار والأحجام الظاهرة للأشياء واستخدام الغرفة المظلمة وقد أهتم المسلمون بعلم البصريات مما أدى إلى تقدم علم الفلك والطبيعة .

والحسن بن الهيثم هو رائد علم البصريات ففي كتابه " المناظر قدم لنا كتاباً علمياً قائما على المشاهد والتجربة والاستنتاج وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وجمع في سبعة مجلدات تبحث في علم المناظر وفي تشريح العين ورسمها ورسم أقسامها وأسماء كل قسم مثل الشبكية ، والقرنية والسائل الزجاجي والسائل المائي ويبحث الكتاب في وظيفة كل جزء من اجزاء العين وكيفية النظر وكيف تسير الأشعة من النور من الجسم المرئي إلى العين .

ومن المعارف الطبيعية عند المسلمين معرفة الإبرة المغناطيسية حيث عرفوا خاصية الاتجاه وأول من استعمل الإبرة هم المسلمون لمعرفة الاتجاه.

كما عرف المسلمون الرقاص المعروف عندهم بالموار ومخترعه ابن يونس المصري وكان الفلكيون المسلمون يستعملونه لحساب الفترات الزمنية أثناء رصد النجوم ، وقد استعملوه في الساعات الدقيقة ، وقد سبق ابن يونس جاليلو بسته قرون .

كما عرف المسلمون آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالمقطوع.

كان اختراع المسلمين للبوصلة من أجل الاختراعات التى أفاد منها العالم كثيراً .

أما في علم الكيمياء فقد استطاع المسلمون إثبات وجودهم في هذا المجال وعرفوا العناصر والمواد كالكحول وحمض الكبريتيك والماء الملكي وحمض النتريك واكتشفوا البوتاسيوم وأملاح الأمونيا ونترات الفضة وكلوريد الزئبق وتحضير الزئبق .

وكان أعظم كيميائي هو أبو موسى جعفر الكوفي جابر من أشهر علماء الكيمياء (علم الصنعة) " وكتابه " مجموع الكمال " موسوعة علمية تعطينا ملخصا لعلم الكيمياء .

كما كان أبو بكر الرازى في كتابة الحاوي أول من حضر حمض الكبريتيك والكحول من تقطير النشويات أو السكريات المخمرة .

ولعلاقة الكيمياء بالصيدلة وعلم الأدوية فقد أرتبط الصيادلة بالكيميائيين ارتباطا وثيقا وكان أغلبهم له دراسة موضوعية .

واستفاد المسلمون من الكيمياء في مجالات صناعة البارود والورق من القطن أو الكتان أو الخرق .

٦- العلوم الاجتماعية :

نعنى بالعلوم الاجتماعية الجغرافيا والتاريخ والاجتماع أما الجغرافيا فهي لفظا دخيلة على اللغة العربية واسمها في العربية علم تقويم البلدان .

احتاج المسلمون عقب الفتوحات الإسلامية إلى معرفة مسالك ودروب البلدان ومناخ وغلات وتضاريس الأمصار ، ومن ثم وضعت كتب المسالك والممالك لتقدم تقريرا عن حياة الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث الهجري .

ألف ابن خرداذبة كتابه المسالك والممالك وكان متولياً للبريد والخبر بنواحي فارس ، وكذلك قدم قدامة بن جعفر كتابه " الخراج وصنعة الكتابة " لتبيين المسافات والطرق وقيمة الجباية في الدولة .

- ولقد شجع الإسلام المسلمين للارتحال والسفر وذلك بسبب :

١- فريضة الحج التى تعنى السفر والترحال إلى مكة المكرمة .

٢- لطلب العلم وذلك للسفر إلى أى مكان يتوافر فيه العلماء .

تأثرت الكتابات الجغرافية في عهدها الأول بما وصل إليهم من اليونان ، ولكن عندما بدأ عصر الدولة العباسية وبالتحديد في القرن الرابع الهجري انطلق المسلمون في كل العلوم وفي علم الجغرافيا ، فظهر علماء الجغرافيا أمثال الأصطخرى وابن حوقل والمقدسى ويمثلون درجة عالية في البحث المبنى على الاختيار الشخصي والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل والتأليف الجغرافي الواعي .. وأهتم هؤلاء الجغرافيون بثلاثة جوانب : -

١- بالأقاليم الإسلامية والأقطار المجاورة كما هو عند البلخى والأصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

٢- التخصص في قطر بعينه مثل الهمذانى في صفة جزيرة العرب والبيرونى عند الهند وابن فضلان عن بلاد البلغار .

٣- تأليف المعاجم الجغرافية التى وجدت طريقها إلى المكتبة الجغرافية منذ القرن الخامس للهجرة ومنها كتاب معجم ما استعجم للبكـــري ومعجـم البلدان لياقوت الحموي .

وتمتاز مؤلفات الجغرافيين المسلمين بوجود خرائط توضيحيـــة للعـالم ورسم دروب السفر والترحال ، وتوضيح طرق التجارة والبريد ومن أشــهر المؤلفات كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء ونزهة المشتاق في اختراق الآفـاق للادريسى .

وقد ارتبطت الجغرافيا بدراسة البحر فظهر المسلمون الذين جابوا البحار شرقا وغربا بل انهم قادوا فاسكو داجاما إلى اكتشاف العالم .. ووصلـــوا إلى البحر الأسود وصقلية وكريت وقبرص والصين وجزر شـــرق أفريقيـا وارتبطت علوم الجغرافيا بالرحلات التى قام بها الرحالة المسلمون ســـواء لطلب العلم أو نشر الإسلام أو المشاهدة والاطلاع وقد برز من هؤلاء ابـــن جبير وابن فضلان وابن بطوطة والأدريسى والهراوى وأسـامة بـن منقـذ وعبد اللطيف البغدادي وابن سعيد الأندلسي والعبدوى المغربي .

ومن رواد الجغرافيا أبو حامد الغرناطى صاحب كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب " في وصف رحلاته وزكريا بن محمد القزوينى صاحب كتاب آثـــار البلاد وإخبار العباد " وكتاب " عجائب المخلوقات وغرائـــب الموجـودات " والدمشقى صاحب كتاب " نخبة الدهر في عجائب البر والبحر وسراج الديـن ابن الوردى صاحب كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب .

وابن حوقل صاحب كتاب صورة الأرض وهـــو مثـل مســالك الممـالك للاصطخرى بيد أن ابن حوقل أضاف عليه في الوصف .

ونتناول إسهامات المسلمين في علم التاريخ فقد اهتم علماء المســـلمين بالموسوعات التاريخية أمثال كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري ومـــروج الذهب للمسعودى والبداية والنهاية لابن كثير وتجارب الأمم لابن مســـكوية

وهذه هي بعض المؤلفات المكتوبة بالعربية أما ما كتب باللغات الفارسية والأردية والتركية فهي لا تقل عما كتب بالعربية ويمكن الاطلاع عليها في كتابنا القطوف الدانية .

أما في علم الاجتماع فإن إسهامات الفارابي بشان الدولة الفاضلة والماوردى في كتابه الأحكام السلطانية وابن خلدون في مقدمته إنما يمثلون قمة الفكر الإسلامية والنظرة الثاقبة في المجتمع .

وكان أبو الفضل بن مبارك الناكورى أحد العلماء البارزين في التاريخ والاجتماع في عهد السلطان جلال الدين أكبر وله كتاب أكبر نامة وائين كبرى يمثلان فكراً سليما في علم الاجتماع .

الفصل التاسع

المؤثرات الساسانية في العمارة الإسلامية في العصر العباسي

أقام المسلمون حضارة زاهرة في بقاع عديدة من العالم ، فكان لهم حضارة في الأندلس وشمال أفريقيا ومصر والشام والعراق وإيران والهند وتركيا ، ومع أن هذه الحضارة التى أقامها المسلمون في كل بقعة من البقاع السابقة لها عناصرها ومقوماتها المستقلة إلا أنها في مجموعها تعبر عن حضارة مشتركة بين شعوب تدين بدين واحد وهو الدين الإسلامي .

والمسلمون الذين أقاموا حضارة في مصر تأثروا بالواقع الحضاري لشعب ورث حضارة الفراعنة واليونان والرومان والاقباط ، كما أن الحضارة التى أقامها المسلمون في الأندلس تأثرت بحضارة الشعب الأندلسي وأخذت بعض مقوماتها من حضارة الشعب الأيبيرى .

وبالمثل فإن حضارة المسلمين في إيران ورثت عناصر فارسية قديمة ، لأن الشعب الإيراني له تراثه الحضاري العريق الذي لا يمكن اهماله ، ولما كان الفرس أصحاب حضارة زاهرة قبل الإسلام فان حضارتهم تركت آثارها على الحضارة الإسلامية .

ولما كانت الخلافة العباسية قد وقعت تحت سيطرة العنصر الفارسي ، وأقام العباسيون حاضرتهم بغداد على بعد عدة فراسخ من تيسفون – المدائن – حاضرة ملوك فارس السابقين .

كانت الخلافة العباسية أكثر انفتاحا على العنصر الفارسي أكثر من الأمويين ونقل الفرس موروثاتهم الحضارية التى ورثوها عن أجدادهم في

السياسة والاقتصاد والفنون والآداب والعمارة بل والدين أيضا إلى العرب المسلمين ·

وتجلى التأثير الفارسي على العمارة الإسلامية في العصر العباسي ، ووجدنا مؤثراتهم واضحة في تخطيط بغداد وبناء قصورها وفي عمائر سامراء وقصورها ·

ولما كان العصر الساسانى هو آخر عصور الازدهار الفارسي ، فانه قد جمع بين عناصر العمارة في الحضارات القديمة فضم عناصر هخامنشية وبارثية واشكانية بالإضافة إلى الهلينية ، ومن ثم كان في مخيلة المعماريين الفرس قيم وأسس وعناصر ساسانية ومن هنا جاءت العمارة العباسية تحاكى العمارة الساسانية ·

وقد استرعى انتباهى هذا التأثير باعتباره من الدراسات الحضارية التى تشغل بالى ، لهذا قمت بعمل هذا البحث بعنوان " المؤثرات الساسانية في العمارة الإسلامية في العصر العباسي ·· ، آخذا في اعتباري أن الحضارة تأثير وتأثر، أخذ وعطاء ، ولذا لا يمكن أن نغالي في التأثير الفارسي ، ولا يمكن أن نقلل من أهميته ، كما أنه لا يمكن أن نقلل من أهمية دور العرب المسلمين في تطويع العناصر الحضارية للأمم السابقة ، وإبداع أعمال معمارية لا تقل عظمة عن أى حضارة سابقة إن لم تكن تفوقها ·

دولة الساسانيين

الساسانيون من أصل آرى ، أقاموا في إقليم فارس ، وكان جدهم الأول يعمل في منصب رفيع في معبد ناهيد [1] الكائن باستخر ، وتزوج ابن

---

[1] آناهيتا (تاريخ مردم إيران – ايران قبل از اسلام تأليف دكتر عبد الحسين زرين كوب تهران ١٣٦٤ ص ٢٣) ·

ساسان (١) [illegible]تسحى ببابك من بنات أمير بالمنطقة (٢) ، وبعد ذلك استولى على السلطة من يد والد زوجته ، وأعد أردشير الابن الثاني لبابك جيشا [illegible]دارابگرد ، وتلقب بلقب شاه بارس بعد موت أبيه ، ووسع ملكة (٣) .

اقلقت انتصارات اردشير - اردوان الخامس الأمبراطور الاشكانى ، واراد القضاء على اردشير ، ولكنه قُتل بعد معارك متتالية في شوش (٤) ، وسقطت إيران بعد خمسة قرون ونصف (منذ سقوط الهخامنشيين) في يد أرىّ فارس .

وبغلبة اردشير بن بابك الساسانى ، وسقوط عرش إيران في يده صار الحكم بيد سلسلة من الملوك الوطنيين ، واعتبروا أنفسهم ورثة الهخامنشيين (٥)، وحكموا ما بين سنة ٢٢٤ - ٦٥١ م وأسست هذه الأسرة حكومة وطنية ، اعتمدت في حكمها على الدين القومي والفنون والحضارة الوطنية ، وربما لم يكن في إيران على تاريخها الطويل مثيل لها (٦) .

استولى أردشير (٧) على همدان وآذربيجان وجرجان وابرشهر ومرو ، ووصل نفوذه، حدود بلخ وخوارزم وتبعه ملوك كوشان وتوران .

---

(١) ساسان لقب فارسي قديم بمعنى " القواد " ولو أنه انقلب أخيرا فصار اسما لأسرة (إيران ماضيها وحاضرها تأليف دونالد ولبر ترجمة د. عبد النعيم محمد حسنين الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ٨٢) .

(٢) حماسه سراى در إيران تأليف د. ذبيح الله صفا چاپ چهارم تهران ١٣٦٣ ص ١٣٣ .

(3) H. Masse . La Civilisation Iranienne Paris 1962 P 126 .

(٤) تاريخ مردم إيران ٣١ ٤١ / حماسه على إيران ٦ .

(٥) [illegible] الساسانيون سلسلة نسبهم [illegible] عن طريق سلسلة ملوك [illegible] الذين ظلوا مستقلين إلى أن دخل فارس أو بارس تحت الحكم البارثي ثم صاروا بعد ذلك [illegible] أصطخر إلى اردشير (إيران ماضيها وحاضرها ص ٤٢) .

(6) R. Chirshman . l'iran des origines A L'Islam 1951 P 269

(٧) [illegible] .

وبناء على ماورد في الرسالة الثالثة لشـابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢ م) أنه كانت تحت سيطرته بارس وخوزستان وما بين النهرين وبـلاد العـرب وأرمنستان وآذربيجان وكرجستان واران ومازندران وماد وجرجان ومـرو وخراسان وسيستان وبلوجستان ومكران ووادى السند وكوشـان والصغـد وعمان [1].

ففي عهد خسر انوشيروان (٥١٣ - ٥٧٠ م) امتد نفـوذ الساسـانيين حتى سواحل البحر الأسود ، ودخلت مدينـة انطاكيـة تحـت سـيطرتهم ، وصارت جنوب بلاد العرب واليمن من توابعهم ، وتعلق بحكوماتهم ناحيـة باكتريا حتى جنوب وادي جيحون وفي عهد خسرو برويـز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) دخلت سورية وآسيا الصغرى ومصر تحت سيطرة إيران [2].

وفيما يلي حدود الدولة الفارسية [3] المترامية الأطراف في عهد الدولـة الساسانية : من الشرق : مصب نهر السند ، بحر عمان ، امتداد الشـاطىء الغربي حتى نهر سيحون (الحدود الفعلية لخجند) .

من الشمال : نهر سيحون على امتداد خيوه وخليج كراسنو ودسك حتـى البحر الأسود .

من الغرب : جنوب شرق البحر الأسود بما فيهم البلاد غربي نهر الفرات حتى صحراء سورية .

من الجنوب : من امتداد الحدود الغربية حتى الساحل الغربـي للمحيـط الهندي مشتملا على بحر عمان والخليج العربي ونواحـي جنـوب هذيـن البحرين [4] .

---

(1) أطلس تاريخي إيران - مؤسسه جغرافيا دانشگاه - تهران ١٣٥٠ لوحه ٨ .

(2) تاريخ إيران باستان - مرحوم مشير الدولة چاپ أول جلد دوم ٥٠ .

(3) تاريخ مردم إيران ٤٥١ .

(4) تأثير هنر ساساني در هنر إسلامي دكتر عباس زماني تهران ٢٥٣٥ ص ٦ .

الفنون المعمارية الساسانية

إن الفنون الساسانية تضم عناصر فنية قديمة بالاضافة إلى المكونات الساسانية ، فقد أخذ الفن الساسانى عناصر اشكانية وهخامنشية كثيرة ، وتساوى في عظمته بالفن الروماني والبيزنطي .

ويلاحظ في الفن الساساني القاعات المربعة ذات القباب والايوانات المسقوفة المتناسقة ، ويتكون من أعمال الجص والموازيك والنقش على الجدران ، والنحت والنسيج والسجاد وشغل المعادن وأعمال الفضة والبرنز والنقوش على الاختام وهي جميعا أعمال تشد الانتباه .

إن العمارة الساسانية تتبع عناصر الهخامنشية والاشكانية ، وسارت على دربها ، واستخدموا في بناء المدن الساسانية الايونات المدورة والمربعة وتفوقوا في النمط المستطيل .

ولقد اتسمت العمارة الساسانية ببعض السمات منها : القاعات والايونات الكبيرة والصغيرة ، كما كان يستعمل في هذه المباني الأعمدة المدورة والمربعة والفتحات البارزة والأقواس الظاهرة ، والنقوش الجصية والحواشى الوردية وبوتقات ونقوش ، وكانت المواد المستعملة هي الجص والحجر والجير والآجر وأحيانا الحديد والخشب [1].

ومن المدن التى مازالت آثارها باقية من العصر الساسانى مدية استخر والتي بقى من آثارها قليل من الخرابات ، وكانت من قبل تضم معبد " نسلهيد " وكانت هذه المدينة تضم جدران من الطوب اللبن وأبراج نصف دائرية ، وينسب بعض المؤرخين هذه المدينة إلى ما قبل العصر الساسانى [2] .

[illegible]

[1] R. Ghirshman P. 293

والمدينة الثانية هي مدينة فيروز آباد جنوبى شيراز ، والتي أسسها اردشير بابكان مؤسس الدولة الساسانية (٢٢٤ - ٢٤١ م) ويلاحظ من خراباتها أن جدرانها بها خندق وبرج ، وبقى من آثارها خارج المدينة قلعة دختر وقصر فيروز آباد وقد بنيا في عهد أردشير الأول [١] ، وفي وسط المدينة معبد نار مكون من أربع فتحات مصنوعة من أحجار منحوتة ، وبجوار المعبد برج كانوا يشغلون في قمته النار المقدسة عند الاحتفال بالمراسم الدينية .

وقلعة دختر تستقر فوق صخرة حجرية كات محصورة في الجدار وكان هذا الجدار جزء من الجدار الخارجي للمبنى ، وفي أحد أضلاعها برجين مربعين ويتشكل هذا البناء أساسا من ايوان بعرض أربعة عشر مترا وقاعة متصلة به بنفس العرض ، وسقف الأيوان متناسق وسقف القاعة قبة مدورة ، وهذه القلعة ستكون من العمائر التى قلدت في العصر الإسلامي [٢].

وربما يكون قصر فيروز آباد قد بُنى بأمر أردشير بابكان قبل سلطنته ،وبناء هذا القصر مستطيل بطول مائة وأربعة أمتار وعرض البناء خمسة وخمسون مترا [٣] ، وهذا البناء يشمل قسمين : قصر الضيافة والقصر الخاص ، والقسم الأول مركب من ايوان واحد في الوسط وأربعة أيوانات صغيرة بالأطراف على عمود وملحق بالايوان الكبير والايونات الصغيرة قاعة مربعة ، وتنتهي هذه القاعة من أحد طرفيها بايوان كبير وأيوانيين صغيرين ، ومن الطرف الآخر بالقصر الخاص يربط القاعتين قاعة متوسطة، وسقف الايوانات مستو وسقف القاعات على شكل قبو مربع [٤] .

---

[١] إيران ماضيها وحاضرها - دونالد ولبر ترجمة د. عبد النعيم حسين ص ٤٦ .

[٢] L' art de L'iran par A. Godard . Paris 1962 P. 219 .

[٣] عرضه ١٨٠ قدماً وطوله أكثر من ٣٠٠ قدماً - إيران ماضيها وحاضرها ٤٦ .

[٤] تأثير هنر ساساني درهنر إسلامي ١٢ .

والمدينة الهامة الأخرى في العصر الساساني هي مدينة بيشابور التي أسسها شابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢ م) وهي ذات زوايا أربع ، وكانت هذه المدينة تقع جنوب غرب كازرون ، ويُشاهد بوضوح آثار الجدران والخندق وقد أُقيمت بيشابور على ربوة ، في حماية قلعة ، ويوجد بها شارعان أصليان متقاطعان ، وكانت مبان السلطنة والقصر والمعبد يُشدان الانتباه .

ويضم القسم العام منها قصرا بقاعة كبيرة مربعة ، ضلع كل ناحية اثنان وعشرون مترا ، وإرتفاع سقفها خمسة وعشرون مترا ، وعلى أطرافها الأربعة رواق أو ايوان ، وهذه القاعة والايوانات الأربعة يحيط بأطرافها قصر آشور الأشكاني (١) .

ويضم هذه البناء أربعة وستين ايوانا صغيرا ،وجدرانه منقوشة ، وقبة الايوانات مزينة بالجص والفروع المتداخلة ومزينة بألوان قرمزية وصفراء وسوداء وكانت الجدران والأرض من الموازيك الملون الشبيه بالسجاجيد الإيرانية (٢) .

ويوجد بجوار القصر معبد ، وهذا المعبد مكون من قاعة مربعة عرضها أربعة عشر مترا وارتفاعها أربعة عشر مترا ، ومحاطة بطريق وجدار واحد وهذا البناء من الأحجار المنحوتة والمدعمة بالحديد ، والسقف مرفوع على أعمدة على شكل رأس ثور .

والبناء الضخم الآخر الذي ينسب لعهد شاهبور الأول قصر تيسفون وهو الآن ايوان عظيم معروف ب " طارق كسرى " وهذا الايوان أربعة وعشرون مترا ارتفاعا ، وثلاثة وأربعون مترا عمقا ،وخمسة وعشرون

---

(١) ...

(٢) R. Chirshman P. 139

تة : ونصف عرضا [1] ، وكان محل اهتمام المعماريين في العصور الإسلامية [2].

وقصر سروستان من المبانى الساسانية التى بُنيت في عهد بهرام كَور (٤٢١ - ٤٣٨ م) وهو شبيه بقصر فيروز آباد ، وعبارة عن ايوان محصور بين حجرات وشكله مستطيل وسقفه مستو ، وله قاعة لها قبة مربعة وايوانها في الأمام بين جدارين أقل عمقا، ومن الاختلافات الظاهرة بين قصر سروستان وفيروز آباد وجود عدة مداخل ، وأن قصر سروستان كان مجال تقليد لمعماري المسلمين .

ومن مبانى أواخر العهد الساسانى قصر دامغان ،والقسم الرئيسي منه ايوان كبير وقاعة مربعة في نهايته ، والشكل العام لهذا البناء انه شبيه بقلعة دختر فيروزازآباد ، ولكن هنا الايوان مرفوع على عمود مدور ومقسم ثلاثة أقسام ، وكان أيضا مجال تقليد في العصور الإسلامية [3] .

ومن المباني التى أقيمت في العصر الساسانى قصر شيرين غرب ايران في عهد خسرو برويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) وهذا البناء يشبه تماما قصر فيروز آبار ولكن المعماريين يعتقدون أنه - في عظمته - يشبه قصر داريوش الخامنشى .

ومن المباني التى يجب الإشارة إليها إيوان كرخه من آثار عهد شاهبور الساسانى (٣٠٩ - ٣٧٩ م) وهذا البناء يقع شمال شوش بخمسة وعشرين كيلومتراً ويقع على شاطىء نهر كرخه ، وهذا البناء في مدينة مستطلية طوله أربعة كيلومترات وعرضه كيلومتر واحد ، ومركب من قاعة

---

(1) يسمى طاق خسرو أو طاق كسرى وهو بناء يرتفع ٩٠ قدما ويبلغ عرضه ٧٥ قدما وطوله ١٥٠ قدما - إيران ماضيها وحاضرها ٤٦ .

(2) A. Godard P. 223 .

(3) تأثير هنر ساساني در هنر إسلامي ١٣ .

مستطيلة وسطها شكل مربع ومغطى بقبة ترفعها أقـــواس عرضيـــة وهـــذا البناء كان مورد تقليد في العصور الإسلامية [1] .

الفنون العربية

من المعروف أن البلاد المفتوحة تقع تحت تأثير فاتحيـــها ، والمعــروف أيضا أن الرسول ﷺ قد وُلد في بلاد لازرع فيها ،وأن أكثر سكانها بـــدو ، كانو يرحلون دائما وراء الكلأ والظــروف المعيشـــية المناسبـــية ، وكـــانوا يوجهون إبلهم وقطعانهم إلى حدود البلاد العامرة والغنية ، وإذا ما ســـقطت الأمطار بمكان اتجهوا إليه ، وأقاموا مجتمعهم بجوار المراعى ، فـــإذا مـــا جفت المراعى رحلوا إلى مكان آخــــر ، وكـــانوا يحصلـــون علـــى الغـــلال والجواهر والأقمشة مقابل خرافهم ، ومن ثم لم تُتح لـــهم حيـــاة التنقـــل - الاستقرار .

وعندما ما انطلق العرب من جزيرتهم الجدباء ، وفتحـــوا بـــلاد الشـــام ومصر وإيران لم يكن لديهم سوى الخيام المصنوعة من الصوف ، وكـــــان بناء الكعبة بسيطا ، ولم يكن مسجد المدينة - أول بناء إسلامي بعد الهجرة - سوى قطعة أرض محصورة بين جدران ومغطاة بفروع وسعف النخيل [2].

ومن المعروف أنه كان بأطراف شبه الجزيرة العربية بلاد مثل الحـــــيرة واليمن وكان بهذه البلاد ميان منذ القدم ، ولكن اليمن كانت قد أُلحقت منـــذ عهد خسرو الأول [3] (٥٣ - ٥٧٩م) ببلاد الامبراطورية الإيرانية [4] وحكمها نائب السلطنة حتى ظهور الإسلام .

---

(1) ... ص ١٤ .

(2) ... الإسلامية ... .

(3) ... - تاريخ ... إيران ٢٩٤ .

(4) تاريخ ... إيران ٢٩٦ .

أما الحيرة فكانت على ساحل الفرات ، وبعد تأسيسها كانت تستقل حينـــا وتتبع الامبراطورية الساسانية أحيان أخرى [1] ، وأخيرا حكمها والى إيرانـــي وظلت ولاية فارسية [2] حتى ظهور الإسلام .

وبناء على ذلك لم يكن لدى العرب فنون معمارية جديـــــرة بالاهتمـــام ، يمكنهم حملها إلى الممالك المفتوحة ، ولكن إذا أشرنا إلى آثار عاد وثمـــود وجنة شداد ، فإنها بناء على رأى جرجى زيدان ترجع لعناصر تشترك فـــي أطولها مع الكلدانيين والآشوريين والفنيقيين [3] .

والفنون الإسلامية التى تولدت بعد الإسلام فهى فنون معمارية إســـلامية جاءت نتيجة الاحتكاك خارج الجزيرة العربية في الشرق والغرب .

إسهامات الممالك المفتوحة

لمعرفة خصائص أى فن بشكل أفضل يجب تتبع تاريخه ، ولكننا نـــوى أن الفن الإسلامي لم يظهر دفعة واحدة ، ويجب أن نتعـــرف علـــى خصـــائص الحضارات التى سبقت ظهور الإسلام ، لذا يجب معرفة الحضارات اليونانيـــة والفارسية والفرعونية وحضارات الشام وما بين النهرين ويجـــب الاطـــلاع على تاريخ كل منطقة حتى ظهور الإسلام لأنها تشكل العنـــاصر الأساســـية للفن الإسلامي ، ويلاحظ أنه في منطقة إيران وما بين النهرين كـــان الفـــن الساسانى قد أسهم إسهاما كبيراً ، ومن المحتمل وجود عنـــاصر أشـــورية وكلدانية .

وقد أسهم الفن الفرعوني والقبطى في مصر باسهامات رئيسية ، وفـــي آسيا الصغرى كان الفن البيزنطي ، وفي شمال أفريقيا وأسبانيا كان الفـــن البيزنطي والأسباني .

---

[1] يرجع هذا لعلاقة الحيرة مع الفرس ، وعلاقة المناسبة مع الرومان المسيحيين (تاريخ مردم ٤٧٢) .

[2] تاريخ مردم إيران ٥٣١ .

[3] جرجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامي بيروت ١٩٦٧ ، ٣١٢/٤ .

وبشكل عام فإن الفن الإسلامي وجد في إيران الفن الاشكالي والساساني. وفي مصر الفن الفرعوني والقبطي ، وفي شمال أفريقيا الفن الروماني والبربرى ، وفي أسبانيا – الروماني والأيبرى ، وفي القرون الوسطى كانت مصر وإيران وأسبانيا تشكل الأقطاب الثلاثة للفن الإسلامي [1] .

---

(١) هنر ساسانى در هنر إسلامي ٢٧ .

التأثيرات الساسانية في العمارة الإسلامية في العصر العباسي

سقطت الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ ، وانتقل الحكم للعباسيين ، وقامت دولتهم بمساعدة الجيوش الخراسانية التى قادها أبو مسلم الخرسانى وانتقل مركز العالم الإسلامي من دمشق إلى بغداد - عدة أقدام من تيسفون الساسانية وأهتم العباسيون تدريجيا بالنظم الفارسية ، وبدأ تأثير الفن الساسانى على الفنون الإسلامية العباسية أكثر وضوحا .

تركز حكم بلدان العالم الإسلامي في بغداد في العصر العباسي الأول - شأنه شأن أى حكم في بداية أمره - فصارت بغداد قبلة للفنانين وأهل الفن وبطبيعة الحال كان الإيرانيون أكثر من الآخرين اقبالا - لأنهم وجدوا أنفسهم في عاصمتهم التاريخية - التى لا تختلف كثيرا عن عاصمة دولتهم التى انقرضت على يد العرب المسلمين ، ومن هنا نجد أن الاهتمام بالفنون الإسلامية في العصر العباسي لابد وأن يصاحبه دراسة للفنون الساسانية لما لها من تأثير واضح وخاصة في العصر العباسي .

لم تكن بلاد ما بين النهرين أرضا مجهولة للفرس ، ومنذ آلاف السنين كانت هناك علاقات حربية وغير حربية بين إيران وهذه البلاد ،وهذه العلاقات قديمة قدم التاريخ البشرى ، وقد قامت حروب متتالية وصراعات متعاقبة بين العيلاميين والآشوريين انتهت بانقراض أسرة ايلام (عيلام) ، على يد الآشوريين ، ثم انقرضت سلسلة الآشوريين على يد الميديين (مادها) [1] .

---

[1] حضارة العراق عماد ١٩٨٥ ، ٢/١٠٩ .

استولى كورش الهخامنشى على بابل سنة ٥٣٩ ق ٠ م ٠ (١) ، وظلت بلاد ما بين النهرين تحت سيطرة الهخامنشين (الفرس) حتى سقطت في يد الاسكندر وظلت قرابة قرنين تحت السيطرة الهيلينية ، وفي سنة ١٤٠ ق٠م ٠ استولى الاشكانيون على بابل ، وطردوا خليفة السلوقيين ، واستقروا في تيسفون - التى ظلت ٧٧٧ سنة عاصمة للدولة الفارسية (٢)٠

ظلت بلاد ما بين النهرين - منذ مجيء الاشكانيين وحتى سنة ٦٣٧ م - حيث جاءها العرب - كأى ولاية فارسية ، وظلت مائة عام يسيطر عليها ظاهريا النظام القبلي - ومع انتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد ، استردت مكانتها ٠

وقام الفنانون الفرس كغيرهم من سائر الاجناس بنشر فنونهم - وخاصة أنهم ولدوا في تلك البلاد وعاشوا علىأرضها ومثلما بنى أجدادهم العمائر الساسانية بنواهم العمائر العباسية ، وبعبارة أخرى كان ابناء صناع تيسفون الساسانية هم صناع تيسفون العباسية(٣)٠

ومن الجدير بالذكر أن انتهاء السلسلة الآرية وقيام السلسلة العربية لم يؤثر كثيرا في استمرارية الأنماط السابقة ، وخاصة أن الخلفاء العباسيين كانوا يقلدون العادات والتقاليد الشاهنشاهية السابقة ٠

---

(١) إيران ماضيها وحاضرها ٢٩ ٠

(٢) إيران از آغاز إسلام - بروفسور كيرشمن ترجمة محمد معين طهران ١٣٣٦ ص ٢٤٤

(٣) ... الفن الإسلامي ٨/٥ ٠

نماذج من التأثيرات الساسانية في العمارة العباسية

مدينة بغداد

ظهرت التأثيرات الأولية في العصر العباسي – في تأسيس مدينة بغداد فقد أسسها المنصور الخليفة العباسي الثاني (١٣٦ – ١٥٨ هـ) لتكون حاضرة لدولته ، فأنشأها على شكل دائرة ، وأنشأ قلعتها وقواها بالأبراج المدورة على نمط تمدن الساسانية ، وحفر خندقا ، وجعل لها أربعة أبواب ضيقة ومرتفعة تتصل ببعضها بشارع دائري وخارجي وآخر داخلي متقاطع، وقسم المدينة أربعة أقسام [١] .

وكانت أهم المبانى الرئيسية في المدينة القصر والمسجد [٢] ، وكان المسجد طبقا لما كتبه المؤرخون – على نمط مسجد الكوفة – الذى كان تقليدا للعمائر الساسانية .

ومدينة بغداد – التى بناها وشارك في عمارتها البناؤن الفرس – خضعت لمؤثرات معمارية ساسانية كثيرة ، ويلاحظ آثارها الباقية من العصر العباسي تأثيرات الفن الساسانى [٣] .

الرقة :

تقع الرقة على مسافة مائتي كيلومتر شرقي حلب ، وعلى الطرف الأيمن لنهر الفرات، وقد اتخذها هارون الرشيد طبقا لما كتبه ياقوت الحموي في القرن الثامن الهجري – سكنا له [٤] ، وقد أقام وسطها قلعة ويلاحظ من خرابات وأطلال هذه المدينة – حجرة مستوحاة من الفن الساسانى ، ويرى

---

(١) هنر معماري در سرزمينهاى إسلامي ج . هوك ترجمة دكتور پرويز حاويد طهران ١٣٤٨ ص ٢٦ .

(٢) الحضارة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية د. أحمد الحسينى القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٣٨٠ .

(٣) تأثير هنر ساسانى در هنر إسلامي ٥٨ .

(٤) معجم البلدان ٣/٦٠ .

فيها الشرفات – وهى من العناصر المعمول بها في الفن المعماري الساساني .

ويلاحظ في قصر فيروز أباد وقصر سروستان القاعات السريعة التى بها نوافذ مقصبة، والاختلاف بين شرفات الرقة والشرفات الساسانية هو أن النوافذ المقصبة مستعملة في الزينة أكثر ، يضاف إليها المربعات المدورة المستعملة في الزينة ، ونفس الأمر في العمائر الساسانية ، دون عناية بالمثمنات والمنحنيات بين الشرفات التى تتصل بالدوائر وكانوا لا يزينون زينة خاصة .

ومن بين أطلال الرقة التى تسترعى الانتباه ، بوابة المدينة الباقية – وهذه البوابة من الخارج لها فتحات خلفية تزينها اسطوانات نصف دائرية وأعلى هذه الفتحات فتحات أخرى تذكرنا بنقوش طاق كسري في تيسفون وتتقارب مع الأقواس العباسية في الرقة [1].

وتختلف بوابة المسجد قليلا في منازلها وواجهتها الجنوبية حيث نجد الواجهة لها عدة أسقف مستطيلة وبيضاوية أو بروز خارجي وهذه الأسقف والأقواس البيضاوية والأعمدة مشابهة للأعمدة الساسانية حيث يوجد أعلاها نافذة بأربع فتحات للإضاءة ، وهذه تماثل الأبراج الساسانية النارية التى كان يُشغل فيها النار المقدسة [2] .

---

(1) [illegible] الإسلامية [illegible] عبد الرؤوف القاهرة ١٩٧٥ ص ١٩٣ .

(2) هنر إسلامي - [illegible] كونل ترجمة هوشنك طاهري طهران ١٣٤٧ ص ٣٣ .

مسجد سامراء

هذا المسجد يقع على بعد مائة متر من سامراء الحالية ناحية الشمال ومسجد سامراء مثل سائر البنايات التى بقيت أطلالها وأعمدتها ،ولم يبق منها إلا المنارة الحلزونية [1] وقلعة مستطيلة من الآجر ٠

تقع المنارة شمال المسجد بفاصل ٣٠ متراً ، وهذه المنارة مكونة من سبع طبقات بسلم مزين بنوافذ بيضاوية ، وأعلاها حجرة صغيرة حولها شرفة مدورة مازالت باقية حتى الآن ، وقلعة المسجد طولها مائتان وعشرون متراً وعرضها مائة وستون متراً وعليها أبراج متوسطة الارتفاع وعدد من النوافذ ٠

ولهذا المسجد واجهة حجرية مثل مسجد الكوفة وهى تذكرنا بعمائر الملوك الهخامنشيين ، وتذكرنا نقوش مئذنة المسجد من الوهلة الأولى بنقوش ما قبل العصر الساسانى ٠

ومئذنة مسجد سامراء مثل مئذنة مسجد أبى دلف وهما على النمط المعماري الساسانى الذي يتضح في فيروز آباد التى بنيت في عصر اردشير الأول (٢٤١ - ٢٢٤م) ، وبناء فيروز آباد يشبه مسجد سامراء من حيث المساحة ، وهذا البناء يشبه مسجد سامراء بوجود برج في الواجهة وتدلنا هذه الأطلال التى مازالت باقية على الرغم من تأثير الماء والهواء والزلازل على أن الأسلوب العام لمئذنة سامراء هو نفسه أسلوب برج فيروز آباد [2] ٠

---

(1) يقارن بعض المؤرخين بين منارة سامراء والاسكندرية - ولكن البناء الأخير ليس حلزونيا كالأول - [illegible] ٧٥ ٠

(2) [illegible] ٧٥ ٠

قصر الأخيصر :

يقع هذا القصر على مسافة أربعين كيلومتراً من كربلاء، ومائة وعشرين كيلومتر من جنوب غربي بغداد ، وصاحبه مجهول ،ويقول بعض المؤرخين أنه بني على يد عيسى بن موسى حفيد المنصور الخليفة العباسي بعد سنة ٧٧٥ م ، والبعض يرى أنه شُيد على يد قادة القرامطة ، وبعضهم يسمونه " قلعة شكار " وتخطيط هذا القصر على النحو التالي :

قسم مركزي مستطيل ومركب من قسمين أحدهما جهة الشمال وهو عبارة عن حجرة سقفها محور بين ثلاث جهات .

والقسم الثاني منها مبني مركب من إيوان منتهى بقاعة مربعة وحجرتين مزدوجتين مستطيلتين متصلتين بإيوان ، وأيوانين متوازيين مع القاعة المربعة ومرفوعين على أربعة أعمدة ،وهناك إيوان آخر مرفوع بعمودين خلف القاعة المربعة وأمامه فضاء وعلى طرفيه أربع حجرات .

والقسم المركزي محاط من جهاته الأربع بجدار ومبنى ، والمبنى المحيط مكون من فضاء محور بين حجرات أربعة بنايات مستطيلة ، كما أنه هناك قلعة خارجية وأخرى داخلية ، والقلعتان بهما أبراج تستعمل في الدفاع .

وهناك بروز في جانب الجدار الأصلي به نوافذ على شكل هلال وهناك أقواس بيضاوية .

والواجهة بها أقواس وقباب في المدخل على شكل مستطيل ، وكما أن الأعمدة كغيرها من أجزاء القصر مبنية من الحجارة ولكن الأقواس الهلالية والقبابية من الأجر [1] .

وهذه القصر متأثر بشكل واضح بالنمط المعماري الساساني والدليل على ذلك هو أن المبنى من جهة التخطيط العام مكون من مبان أصلية وفرعونية

ومسقات وهى مجموع الايوانات والقاعات المربعة والمستطيلة والدهليز ؛ وهذه العناصر كانت موجودة في مبانى العصر الساسانى خاصة في قصر شيرين ويلاحظ في قصر الأخيصر الاختلاف الواضح في وضع الدهليز حيث أنه في قصر الأخيصر يحيط به جدار المبنى الأصلي وينفصل عن الحجرات أما في قصر شيرين فالدهليز الخارجي يبتعد عن القسم المعماري ٠

تتشابه المبانى الفرعية لقصر الأخيصر مع مبانى قصر شيرين حيث أن جدارها على شكل T والحجرات مستطيلة على شكل ايوان وحجرتين على الطرفين ٠

وفي الجزء المعماري للمبنى الأصلي للايوان في قصر الأخيصر يشبه قصر فيروز آباد حيث ينتهى الايوان بقاعة مربعة وعلى الطرفين ايوانين ٠

ومسجد قصر الأخيصر يشبه مسجد الكوفة مع اختلاف يسير في بعض الأعمدة وخاصة أن مسجد الكوفة قد بُنى بواسطة المعماريين الفرس ٠

أما من ناحية الشكل فان قصر الأخيصر قلعة لها أبراج عالية وحصون قوية لم تكن معروفة من قبل إلا في مدن استخر وتيسفون والكوفة وهى عناصر ساسانية ٠

- كما أنه في قصر الأخيصر تظهر الأقواس الهلالية وهذا النوع من الأقواس من العناصر المعمول بها في العصر الساسانى ويتضح هذا في قصر عُمان ٠

- كما أن سقف قصر الأخيصر على هيئة قباب مدورة وهذا نمط ساسانى نجده في إيوان كرخه المنسوب لشابور الثانى الساسانى (٣٥٩ - ٣٧٩م) ٠

ومن الناحية المعمارية والمواد المستعملة فانه في قصر الأخيصر استخدم الحجر وفي الأقواس استخدم الأجر وهذا هو النمط المستعمل في

أغلب القصور الساسانية مثل قصر فيروزآباد وبيشابور وسروستان – والجدران في قصر سروستان من الحجارة والأقواس والسقف من الأجر[1].

الجوسق الخاقانى :

يسمونه أيضا باسم (تيسفون الأعراب) ويقولون أنه من عمائر المعتصم الخليفة العباسى في سامراء ، ومازالت أطلاله باقية في واد فسيح يجرى فيه نهر دجلة ، وما بقى من آثاره جدران محيطة وقنوات وأحواض يمكن تحديدها والقسم المسكون منه مكون من حجرات مستطيلة ومربعة وأيوانات ودهاليز ويقول بيليه إن عمارة هذا القصر قد استلهمها العرب من القصر الساسانى المشهور في تيسفون ، وقد ظل هذا في بؤرة فكر الأعراب على مر الأيام ولهذا سمى تيسفون الأعراب [2] .

قصر بو القوارة :

أنشىء هذا القصر في عصر الخليفة العباسي المتوكل ، وهذا القصر مركب من مبنيين بهما أبراج عالية ومتوسطة [3] والمبنى الأول وهو الشمالي به شوارع وأعمدة صخرية ويمكن اعتباره مبنى خارجيا .

والمبنى الثاني جنوبي وهو مثل الجوسق الخاقانى ويذكرنا بقصر الخيصر ويضم مدخلا وساحة وايوانا وقاعة ومبان متصلة بالايوان وقاعة الجلوس .

وقصر الأخيصر والجوسق وبوالقوارة يشبهون بعضهم البعض وفيهم الكثير من العمارة الساسانية منها :

– الجدران التى تقويها الأبراج العالية والمتوسطة وهى تذكرنا بمدينة استخر وتيسفون الساسانية –

---

(1) [illegible] ٦٥ .

(2) Prome et Samarra Paris 1907 P. 127

(3) [illegible]

المباني الأصلية والفرعية تشبه القصور الساسانية في تيسفون وقصر شيرين ٠

- الشوارع ومجارى الماء والأحواض والحدائق بطرف القصور تذكرنا بقصر شيرين الساسانى ٠
- الأيوان الكبير للجوسق الخاقانى والايوان الصغير بأقواسها والأدوات المستعملة في النقوش من الداخل والخارج تشبه مثيلتها في (طاق كسري) والأيوان أيضا يقترب من قصر سروستان الساسانى من الخارج ٠
- قاعة الجلوس في القصرين عبارة عن صليب ينقسم إلى ثلاثة أقسام ويلاحظ هذا في قصور دامغان وكيش وقصر شيرين ، كما أن قاعة الجلوس الصليبية الشكل الواقعة في طريق مشهد حيدرية والقاعة العظيمة بقصر بيشابور كلها تشبه ما هو موجود في قصر بو القوارة [1]

مسجد أبى دلف :

يقع على مساحة خمسة عشر كيلومترا شمالي سامراء على الساحل الغربي لنهر دجلة في منطقة خربة ، وهذا البناء مثل مسجد سامراء له جدار آجرى ومقوى بالأبراج المتوسطة الدائرية ولكن مساحته أقل من مسجد سامراء وقلعته ومئذنته أقصر ، وأعمدة مسجد أبى دلف من الآجر تتصل بالسقف والأقواس ، وهذا المسجد أيضا به قاعة حجرية في الجهة القبلية ٠

وهذا المسجد له منارة حلزونية خارجية تذكرنا بأبراج النيران الساسانية ومازالت الأسس المعمارية المعمول بها قبل الإسلام في إيران ظاهرة فيه

---

(1) R. Ghirshman P. 149

من ناحية الواجهة الحجرية التى تذكرنا بالقصور الهخامنشـــية والأقــواس والأعمدة والأبراج التى تذكرنا بالقصور الساسانية [1] ٠

نقوش وزينة القصور:

يلاحظ أنه في تزيين القصور العباسية التى ذكرنا خاصة قصر بو القوارة وتيسفون الأعراب وسائر مباني سامراء وأن هناك ثلاثة أنماط :

أولها: ما يتربط بالأسس الهيلينية فيما بعد العصـــر الاشـكانى والعنــاصر الكلاسيكية التى تتعدد مثل أوراق الأشجار واللؤلؤ والحواشى والأغصـان الكثيرة وعسف النخيل ، ولا نجد الانحنـــاءات الكثـــيرة فـــي النقـــوش الكلاسيكية ، وهناك أيضا نمط نصف هلينى ونصف الآخر فارسي ، ولـــم يكن النمط الهيلينى مستقلا ومؤثرا في العمارة الساسانية [2] حيث نجـــد أوراق الأشجار والأغصان واللؤلؤ فـــي أســقف بيشـــابور وتيســفون ودامغان ٠

وثانيها: المربعات والنجوم واللوزي وبعض الشفاه التى تشكل الحاشـية ، وهذه النقوش الهندسية بعيدة عن الطبيعة والنباتات ولكنها نمط متحرر ، وغالبا ما تكون مزينة بخطوط متقابلة وهذا النمط تأثير ساسانى ٠

ويلاحظ في نقوش سامراء زهور النيلوفر واللوز ، وكان هذا معمولا بــه في العصور السابقة منذ العصر الهخامنشى في بلاد ما بين النهرين وإيـوان وكثر استعماله في العصر الساسانى ٠

والأمثلة على ذلك البلوكات الكلسية المستعملة في قصر بيشابور وقصـر تيسفون والنقوش الحجرية في طاق بستان ٠

---

(1) [illegible] ساساني [illegible] إسلامي ٧٥ ٠

(2) [illegible] ٤٧ ٠

وثالثها: التركيبات الطبيعية ، ويلاحظ فيها العناصر النباتية بكثرة والأوراق تتصل بالأغصان وتشكل زينة ، وسيلاحظ هذا في قصر سامراء وهذا النمط كان مستعملا في العصر الساساني [1] .

---

[1] تأثير هنر ساساني در هنر إسلامي ٧٢ .

الفصل العاشر

المغول بين البدواة والحضارة

كانت حياة العرب في الجاهلية حياة بدوية خالصة ، وخاصة حياة الأعراب – الذين كانوا يهيمون في الصحراء الشاسعة الشديدة الحرارة ، القليلة الخير ، وكان الأعراب في الجاهلية لا يقر لهم قرار ، ولا يطيب لهم مقام في أى مكان من قلب الصحراء ، فقد كانوا دائمي التجوال بحثا عن مصادر الماء والكلأ ، وكانت هذه الحياة لا تحتم الاستقرار ، ولما لم يتحقق شرط الاستقرار ، انعدم فيهم أسس وقواعد التحضر ، فالاستقرار شرط أساسي للتحضر ، وانتشر بين العرب السلب والنهب والإغارة ، وجاءت كلمة البداوة عكس كلمة الحضارة ، لتعبر عن هذا المفهوم ٠

وعلى الرغم من انتشار عادات سيئة بين العرب في الجاهلية إلا أن هذا لم يمنع من وجود عادات حسنة وقيم وأخلاقيات مقبولة ، وتوفرت للقبيلة بعض عناصر التحضر ، حيث كان يضم القبيلة نظام سياسي متعارف عليه ونظام اقتصادي محدود ، وكان هناك حياة أدبية وثقافية ونتاج علمي محدود كما كان هناك قيم وعادات وتقاليد متعارف عليها، ولكن هذا لم يرق بالقبيلة العربية الجاهلية إلى درجة التحضر ، وظل السلوك البدوي مسيطراً على حياة القبيلة ، حتى جاء الإسلام ، ودخل العرب جميعا الإسلام ، وحملوا رسالته إلى البلاد المجاورة ، وكانت هذه البلاد – مثل فارس وبلاد الروم ومصر أصحاب حضارة ، فتحضر العرب ، ليس بسبب اتصالهم بالأمم المتحضرة فقط بل بسبب اعتناقهم الإسلام أيضا ، فقد كان الإسلام هو الوعاء الذي انصهرت فيه جميع الحضارات القديمة ، وامتزجت هذه الحضارات بحضارة الإسلام ، ونتج لنا حضارة جديدة سميت باسم الحضارة الإسلامية أو حضارة المسلمين ، وشملت هذه الحضارة عناصر فارسية

ويونانية وفرعونية انصهرت هذه العناصر بقيم وأصول الحضارة الإسلامية، وصارت هذه الحضارة جزءا لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية .

لقد كان العربي قبل الإسلام بدويا يتصرف بالسليقة ، والبداوة لا تعني الإغراق في الجهالة والهمجية ، بل إن العرب قبل الإسلام أطلق عليهم بدوا لسكناهم البادية من الأرض [1] ، التي لا حضر فيها ، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحارى قيل : قد بدوا ، والاسم بدو ، إذن البدو مجرد لفظة تطلق على من يقطن الصحراء حتى وإن جاء من الحضر .

ويقولون من بدا جفا : أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب [2] وهذا لا يعني أن البداوة سلوك يكتسب من البيئة ، وفي الحديث : لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية، قال ابن الأثير إنما كره شهادة البدوي لما فيه من جفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع وإليه ذهب مالك والناس على خلافه .

وهؤلاء البدو والأعراب هم الذين حملوا الإسلام ، وتحولوا إلى أصحاب دولة وحضارة زاهرة .. ، فهل يا ترى تكوينهم الدولة وإقامتهم لحضارة ينفي عنهم صفة البداوة ... ؟ وإذا ظل العرب على بداوتهم ولم يدخلوا الإسلام هل يا ترى كان بإمكانهم إقامة دولة وحضارة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يتحقق هذا قبل الإسلام ؟ هذا لو استثنينا ما قام به عرب الجنوب قديما .

والمغول كانوا على شاكلة العرب ، كان المغول شعبا همجيا تغير قبائله على بعضها البعض ، فتسلب وتنهب وتقتل ، وظل شعبا همجيا جلفا عدوا للحضارة ، حتى دخلوا الإسلام ، فأعادوا عمارة ما هدموه ، وأقاموا مدنا وشيدوا حضارة ، وتركوا تراثا أدبيا وثقافيا رائعا .

---

(1) لسان العرب لابن منظور دار المعارف مادة بدو ١/٢٣٤ - ٢٣٥ .

(2) المصدر نفسه ، ونفس المادة ١/ ٢٣٥ .

ما الفرق إذن بين العرب قبل الإسلام والمغول قبل إسلامهم ؟ . . . كان العرب قبل الإسلام أقل جفاء من المغول ، كانت هناك كثير من القيم الأخلاقية تنتشر بينهم ، فالعربي كان كريما شجاعا ينزع للمساعدة والنجدة كان لا يسلب لمجرد السلب ، وإنما ليعيش ، ولم يكن الصعاليك يغيرون لمجرد الإغارة ، بل للحصول على المال اللازم لإعاشتهم ، وتوزيع ما تبقى على أهل الخير كانوا يغيرون ليأكلوا وليس لكنز المال ، لم يكن العربي ميا لا لسفك الدماء حباً في السفك أو لشغفه برؤية منظر الدماء وجثث القتلى ، لم يحارب العربي لمجرد الحرب بل من أجل البقاء ، وحماية للمراعى مصدر العيش أو الدفاع عن شيم وكرامة القبيلة .

أما المغولي حتى عهد هولاكو ، كان يقتل لمجرد القتل ، ويسفك الدماء لمجرد السفك، ويميل لرؤية الدماء التى تنزف ،وسماع آهات المتأوهين ، لم يكن هناك من أخلاقيات تذكر ، لا يحرمون أكل شيء حتى أنهم كانوا يأكلون جميع الدواب [1] .

إنهم كانوا يقاتلون وليس في قتالهم استثناء ولا إبقاء ، يقتلون الرجال والنساء والأطفال وكأن قصدهم إفناء النوع ، وإبادة العالم ، لا قصد الملك والمال [2] .

ويستوقفني مقارنة كتبها جرجى زيدان [3] قال فيها : " أكتسح بدو المغول على ما يحيط بلادهم من الممالك العامرة ، اكتسحوها في بضعة عشر عاما ، كما أخرج بدو العرب في أول الإسلام ، وافتتحوا مملكتي الروم وفارس في نحو تلك المدة ، وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة ، لأن المسلمين كانوا في أيام جنكيز خان قد تحضروا وانغمسوا في الترف .

مختصر تاريخ العرب ٣٣٤ .

تاريخ الخلفاء ٤٦٧ .

تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ٥٠٨ .

وانقسموا على أنفسهم ، كما كان الروم والفرس عند ظهور الإسلام والتاريخ يعيد نفسه " .

وفي هذا القول مغالطة كبرى ، فالعرب البدو – الذين اكتسحوا مملكتي الروم والفرس – لم يكونوا هم العرب قبل الإسلام ، لقد اكتسحوا مملكتي الروم والفرس بفضل الإسلام – الذي رفعهم من البداوة إلى الحضارة فأصبحوا خاضعين لنظام سياسي واقتصادي واجتماعي وأدبي وثقافي ، وأصبح هناك وحدة تجمع هؤلاء البدو وهى " الإسلام " ، وقد فتحوا هذه البلاد بفضل الإسلام وإذا لم يكن هذا القول صحيحاً فلماذا لم يفتح هؤلاء البدو تلك الممالك قبل الإسلام .. ؟ بل أنه من العجيب أنهم كانوا لا يستطيعون التحرش بأي منها .

أما المغول فعندما اكتسحوا العالم الإسلامي ، فقد اكتسحوه بفضل القوة التنظيمية – التى نظمت هؤلاء البدو – وجمعتهم تحت قيادة واحدة ، ثم اطلقت هؤلاء الجياع الهمج على أرض غنية فيها آمالهم ومرامهم .

والاختلاف الثاني بين العرب والمغول ، وهو أن العرب – الذين خرجوا بالإسلام – لم يكونوا سفاكين للدماء ، لم يقتلوا لمجرد القتل ، ولم يفعلوا أي شيء مما فعله المغول من قتل ونهب وسلب .

ويميل بعض المؤرخين – وخاصة الذين عرفوا فضل المغول بعد اسلامهم – إلى التماس الأعذار لهم ، ويميلون إلى تخطئة من يظن أنهم كانوا مجرد شعب همجى بربرى مغير[1] ، ويعترض البعض على بعض الأحداث التى ارتكبها المغول – مثل أحداث القتل والنهب وحرق مكتبة بغداد، ويرى أن المؤرخين الآخرين يلونون التاريخ بلون قاتم [2].

---

[1] رأى د. فؤاد عبد المعطي الصياد – المغول في التاريخ ١٤ .

[2] رأى د. محمد موسى هنداوي – سعدي الشيرازي ٢٣ .

ويستند الرأي الأولى إلي أن المغول اهتموا كل الاهتمام بتشجيع العلوم ذات الخطورة العلمية كالطب لحفظ الأبدان والرياضة والهيئة لاختيار الأوقات ، وأن هولاكو أقام مرصدا كبيرا في مدينة مراغة بآذربيجان أعده بأدق الأجهزة المعروفة في زمانه ، وأن العالم الفلكي نصير الدين الطوسي - الذي كان يشرف على هذا المرصد - قد الحق به مكتبة تحوى أربعمائة ألف مجلد .

والرد على هذا سهل وميسور ، فالمغول اهتموا بالرياضة والصيد والقنص ، وذلك لتدريب جيوشهم ، فهم لم يهتموا بالطب لعلاج المرضى ، ولم يهتموا بالرياضة إلا لحفظ أبدان جندهم استعداداً لقتال الأعداء ، كما أنهم كانوا مغرمين بالفلك والتنجيم ، وليس بناء مرصد مراغة إلا من هذا القبيل ، ولو كان شعبا حضاريا بالفعل لاهتموا بما ينفع الناس ، وشعوب البلاد المفتوحة ، فهيئوا طرق التجارة وشقوا قنوات الزراعة ، وأقاموا المدارس للتعليم والمساجد والمعابد للعبادة .

أما الرأي الثاني فيستند إلى أن المؤرخين عند حديثهم عن عدد القتلى في بغداد قد بالغوا فيه حتى وصل عدد القتلى إلى مليوني قتيل ، والمعروف أن أقل إحصاء للقتلى هو ثمانون ألف وأعلى إحصاء هو مليونان ، ويعترض هذا الرأي على هذا الرقم ، ويرى أن هذا تلوين للتاريخ بلون قاتم، فهل يا ترى لو أن عدد القتلى في بغداد هو ثمانون ألف قتيل فقط يكون هذا الرقم غير قاتم اللون ؟ يكفى أنه لم يبق في بغداد حي إلا من أختفي في بئر أو قناة وهذا رأى أغلب المؤرخين حتى الذين لم يعطوا رقما محددا لعدد القتلى فهل كان في بغداد ما يكفى من آبار وقني لاختفاء عشرة آلاف مثلا ؟ إذن أين الباقي ، وكان عدد سكان بغداد في ذلك الحين يزيد عن مليوني ونصف المليون ، قد يقال أن الباقي فرصوب الهرب فكيف فروا والجيش قد التف حول المدينة من كل جانب ؟ ..

وصور القتل والسلب والنهب التى قامت بها الجيوش المغولية قبل هولاكو وفي أيامه، توضح مدى الهمجية التى كانوا عليها ، فلقد دمروا قلاع الإسماعيلية ، وأمروا بإحراق مكتبتهم العامرة بحجة أنها تحمل أفكار الملاحدة ، فمن يكون هو حتى يفعل ذلك ؟ إن هولاكو لم يكن مسلما ولا مسيحيا ولا يهوديا ولا بوذياً ، فكيف له أن يقرر أن هذه كتب الحاد ؟ ..

وعندما دخل هولاكو بغداد قتل اللآلاف من العلماء ، وقتل الخليفة العباسي ، واسقط الرمز المقدس عند المسلمين ، وألقى بكتب العلم التى كانت بخزائن الخلفاء بدجلة ، واعتزم إضرام النار في بيوت بغداد فلم يوافقه أهل مملكته [1] ، وربما كان أهل مملكته يبغون الحصول على غنائم أكثر .

لم يترك المغول بغداد إلا أطلالا يلفها الخراب وتملأها العظام البشرية ، فكانوا يذبحون الرجال والنساء والولدان من الوريد إلى الوريد ببرودة أعصاب ... والغريب أنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال الهمجية لا بدافع الحقد والانتقام ، وإنما بدافع الغريزة الوحشية الكامنة في أعماقهم [2] .

انهم كانوا يقتلون ولا هم لهم ولا هدف إلا المذابح والدمار والإبادة [3] ، فهل كان العرب قبل الإسلام أو بعده كذلك ...

ومع كل هذا التبدى والجفاء والهمجية ، كان هناك ومضات خير ، قد تغير اللون القاتم لسيرة هولاكو ، فقد أمر بدفن الموتى وتعمير بغداد بعد خرابها ،وأمر ببناء الأسواق وإعادة بناء مسجد الخليفة ومشهد موسى الكاظم [4] .

---

[1] تاريخ ابن خلدون ٥/١١٥٠

[2] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٤٧ .

[3] المصدر نفسه ١٤٧ .

[4] تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ٢/٣٧١ - ابن العبري ٤٧٥ .

وما يحسب له أيضا أنه أمر نصير الدين الطوسى ببناء مرصد مراغة ، وقد أقام نصير الدين المرصد في هذا المكان ، وأقام بجواره دار حكمة ورتب فيها الفلاسفة ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها لكل طبيب في اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم ودار حديث لكل محدث نصف درهم [1] ، ويلاحظ حتى في قيمة العلوم التى كان نصير الدين يهتم بها ، حيث كانت الحكمة على رأسها والفلاسفة أعلى درجة ، وهذا يتمشى مع مذهبه الشيعى .

والمغول الذين صورهم الشاعر في قوله :

جاءوا وهدموا وأحرقوا   وقتلوا ونهبوا وذهبوا [2]

والذين صورهم ابن يوسف الدمشقى القرمانى بقوله :

" هجموا وهدموا وأحرقوا وأزهقوا ونهبوا " [3] ، والمغول الذين بقروا بطون النساء بحثا عن الجواهر ،وأرتكبوا المذابح ، وهتكوا الأعراض ، هؤلاء البربر الهمج - هم الذين اعتنقوا الإسلام واستقروا في البلاد المفتوحة ، وأقاموا دولة من أعظم الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي هي دولة الايلخانيين ، كانت دولة متحضرة أقامت مدنية رائعة ، مازالت آثارها باقية حتى يومنا هذا [4] ، وهذا كله بفضل الإسلام - الذي حولهم - كما حول العرب من قبل - من شعب همجي بربري بدوي إلى شعب مدني حضاري .

---

(1) البداية والنهاية ٢١٥/١٣ .

(2) " آمدند وكندند وسوختند ، وكشتند وبردند ورفتند " جهانكشاى ٨٣/١ .

(3) تاريخ الدول ٨٦ .

(4) انظر كتاب الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين د. فؤاد عبد المعطي الصياد .

وهنا نقطة هامة يجب الإشارة إليها ، وهى أن الشعب الغازي المنتصر هو دائما صاحب الغلبة ، ينشر لغته وثقافته ودينه في البلاد التى يفتحها ، كما فعل العرب المسلمون ، عندما فتحوا بلاد الفرس والروم ، ومثل المسلمين الذين فتحوا الهند وأسبانيا، ومصر وشمال أفريقيا ، وكما فعل الفرنسيون والإنجليز والأسبان والبرتغاليون في الدول التى استعمروها في آسيا وافريقيا والأمريكتين ، لكن القضية هنا مختلفة تماما ، فالشعب المنتصر اعتنق دين الشعب المنهزم وتعلم لغته ،وأخذ ينهل من حضارته وثقافته، وهذا كله بفضل الإسلام وحضارة الإسلام والمسلمين •

المصادر والمراجع

١- الأدب التركي الإسلامي - محمد عبد اللطيف الجوهري ، الرياض ١٩٨٧ .

٢- الإسلام في إيران - بطروشوفسكي ترجمة د. السباعي محمد السباعي ، القاهرة ١٩٨٥

٣- الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي - محمد حسن الأعظمي والصاوي شعلان حققه مصطفي غالب بيروت ١٩٨٢ .

٤- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بيروت .

٥- تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - شوقي ضيف الطبعة التاسعة سنة ١٩٨١ .

٦- تاريخ الحضارات العام - عويدات بيروت ١٩٨٥ .

٧- تاريخ الرسل والملوك - محمد بن جرير الطبري ، بيروت .

٨- تاريخ العرب - فليب حتى ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور بيروت .

٩- تاريخ العرب العام - جواد على بيروت ١٩٨٤ .

١٠- تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم د. أحمد محمود الساداتي ، القاهرة ١٩٧٠ .

١١- تبسيط العقائد الإسلامية حسين الأيوب الكويت ط ٤ .

١٢- التغيير الحضاري وتنمية المجتمع د. محيى الدين صابر سرس الليان ١٩٦٢ .

١٣- الثقافة الفردية وثقافة الجمهور لويس دوللو ترجمة عادل العوا ط٢ بيروت ١٩٨٢ .

١٤- حركات الغلو والتطرف في الإسلام - د. أحمد الشـــاذلي القاهرة ١٩٨٦ .

١٥- الحضارة - أحمد حمدي محمود ، دار المعارف ١٩٧٧ .

١٦- الحضارة - حسين مؤنس - الكويت ١٩٧٨ .

١٧- حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي - جلال مظهر ، القاهرة .

١٨- الحضارة الإسلامية - طه ندا الإسكندرية ١٩٨٥ .

١٩- حضارة العرب - مصطفي الرافعي بيروت ط ٣ - ١٩٨١ .

٢٠- الحقيقة الحضارية- جورج حنا بيروت ١٩٨٥ .

٢١- حوار الحضارات - روجيه جارودي ترجمة عـــادل العـوا بيروت [illegible] .

٢٢- الحياة الشعرية في بلاط المعتضد [illegible] د. [illegible] مكتبة جامعة القاهرة ١٩٨٣ .

٢٣- الخلافة الإسلامية ، أحمد كمال حلمي القاهرة [illegible] .

٢٤- الدولة الإسلامية الأولي ، أحمد إبراهيم الشريف ١٩٦٥ .

٢٥- الدولة البيزنطية - السيد الباز العريني ١٩٦٥ .

٢٦- روائع إقبال - السيد أبو الحسن الندوي بيروت ط ٢- ١٩٦٨ .

٢٧- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي ، القاهرة ١٩٨٨ .

٢٨- السيرة النبوية لابن هشام بيروت .

٢٩- شاعر الإسلام محمد عاكف د. عبد السلام فهمي مكة المكرمة .

٣٠- شمس العرب تسطع على الغرب زيغريد هونكـــه ترجمـــة فـــاروق بيضون وكمال دسوقي بيروت ١٩٦٩ .

٣١- ضحى الإسلام - أحمد أمين - بيروت ط ١٠ .

٣٢- عبقرية العرب - عمر فروخ بيروت .

٣٣- العلامة اقبال حياته وآثاره - أحمد معوض ٩٨٠ .
٣٤- فجر الإسلام - أحمد أمين بيروت ط ١٠ /١٩٦٩ .
٣٥- الفرج بعد الشدة للتنوخي طبعة مصر ١٩٠٤ .
٣٦- الفرس والحضارة الإسلامية - مقال منشور في مجلة كلية التربية جامعة المنوفية ١٩٨٦ د. أحمد الشاذلي .
٣٧- فرهنك أدبيات فارسي زهرا خانلري كيا - توس ١٣٦٦ هـ. س
٣٨- فلسفة الحضارة - البرت اشفيتر ترجمة عبد الرحمن بدوي بيروت ١٩٨٠ .
٣٩- الفهرست لابن النديم - طبعة تونس .
٤٠- في الأدب الجاهلي - طه حسين - القاهرة .
٤١- في فلسفة الحضارة الإسلامية - عفت الشرقاوي بيروت ١٩٨٩ .
٤٢- في موكب الحضارة الإسلامية - مصطفى الشكعة ١٩٨٠ .
٤٣- قصة الحضارة - ول يورانت ترجمة زكي نجيب محمود ط ٣ ١٩٦٥ .
٤٤- القيم الحضارية في رسالة الإسلام بقلم محمد فتحي عثمان الرياض ١٩٨٢ .
٤٥- كتاب الخراج لقدامه بن جعفر ، دار الكتب المصرية ٥٩٠٧ .
٤٦- كتاب الوزراء للصابي - القاهرة .
٤٧- لسان العرب لابن منظور طبعة دار الشعب .
٤٨- المجتمع المدني في عهد النبوة أكرم ضياء العمري المدينة المنورة ١٩٨٣ .
٤٩- محمد اقبال شاعر الوحدة الإسلامية - عبد اللطيف الجوهري . القاهرة ١٩٨٦ .
٥٠- المدينة - كلايف بل ترجمة محمود محمود ، القاهرة ١٩٥٩ .

٥١- المراكز الحضارية الإسلامية - حامد غنيم أبو سعيد ١٩٨٦ .
٥٢- المرجع في الحضارة العربية الإسلامية إبراهيم سلمان الكردي و عبد التواب شرف الدين الكويت ١٩٨٤ .
٥٣- مروج الذهب للمسعودى - بيروت .
٥٤- معالم الحضارة الإسلامية مصطفي الشكعة ط ٤ - ١٩٨٢ .
٥٥- معجم البلدان لياقوت الحموى بيروت .
٥٦- المعجم الوسيط - تأليف إبراهيم مصطفي وآخرين ١٩٦٠ .
٥٧- مقدمة ابن خلدون - تأليف عبد الرحمن بن خلدون تحقيق على عبد الواحد وافي القاهرة .
٥٨- مفاتيح العلوم للخوارزمى طبعة فان فلوتن .
٥٩- من الساميين إلى العرب - الشيخ نسيب وهبه الخازن ، بيروت ١٩٧٩ .
٦٠- نظام الدين أحمد [illegible] طبقات أكبري - أحمد الشاذلي - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٥ .

مقالات حضرية منشورة للمؤلف

١. حضارة اللامحاكاه •

٢. مقومات الحضارة الإسلامية •

٣. العالم العربي والعالم الإسلامي •

٤. أسلمة المجتمعات بين النظرية والتطبيق •

٥. التدرج في أسلمة المجتمع الهندى •

٦. التحول الإسلامي في المجتمع الأفريقي •

٧. دواعي تماسك عناصر الحضارة الإسلامية •

٨. النزعة الغربية لتأريخ الإسلام •

٩. منظومة الأمة الإسلامية •

١٠. حتمية البديل الحضاري •

١١. المستحدثات من المنظور الإسلامي •

١٢. فكرة النظام العالمي •

١٣. مشروع أمة متحضرة •

١٤. الإسلام حضارة عالمية •

١٥. الصيغة الحضارية للإسلام •

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٩٦/٤٦٣٥